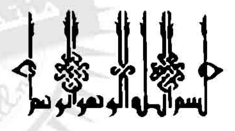


الحروب الصليبية
هل انتهت؟؟
دار المعرفة
عبد الوهاب زيتون

الحروب الصليبية
هل انتهت ؟؟

عبد الوهاب زيتون





الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار المعرفة

نشر - توزيع - طباعة - ترجمة

دمشق - خلف البريد - شارع الجمهورية - ص.ب ٣٠٢٢٦٨
سجل تجاري ٥٤٠٩٢ - هاتف ٢١٠٢٦٩ - تلكس ٤١٢٥٣٥ ط

مطبعة الصباح

دمشق - هاتف ٢٢١٥١٠

عدد النسخ (٢٠٠٠)

الإهداء

إلى شهداء أمتنا العربية العظيمة الذين استعذبوا الموت ، فوهبت لهم الحياة .

إلى رواد نضالنا القومي على دروب الوحدة والتحرير .

إلى شبابنا الذين نذروا أنفسهم لتحطيم التجزئة ، وبناء الجسر العربي العظيم من المحيط إلى الخليج .

إلى أطفالنا في فلسطين ، إلى الطير الأبابيل ، الذين جعلوا من الحجارة رمزاً حضارياً خالداً للكفاح الإنساني .

إلى أبناء ، وأحفاد من صنعوا ملاحم الفخار في ذي قار ، والقادسية ، واليرموك ، وحطين ، وعين جالوت ، وأمجاد حرب تشرين العظيمة .

إليكم جميعاً أهدي كتابي هذا عربون محبة وعرفان ووفاء .

عبد الوهاب زيتون

مقدمة

أخي ، أختي،في كل مكان من وطننا العربي الكبير .

إنه لمن دواعي اعتزازنا وفخرنا الانتماء إلى أمةٍ عظيمة ، وحمل هويتها الخالدة . فأمتنا العربية كانت منذ فجر التاريخ الإنساني ، ومازالت، أمة معطاء ، حملت مشعل الحضارة الإنسانية ، وتفاعلت مع غيرها تفاعلاً حضارياً خلاقاً مبدعاً .. أخذت من غيرها ، كما قدمت وأعطت لغيرها ، وحملت للعالمين الكثير الكثير من العطاءات الحضارية الخالدة . إن إنجازات أمتنا المعطاء ماتزال شاخصةً شامخةً ، وشواهد أبدية على عظمة إنسانها العربي وإنسانيته الرفيعة . إن بصمات أمتنا العظيمة ماتزال حاضرةً للعيان ماثلةً للرؤى في كافة مجالات الحياة والحضارة الإنسانية ؛ ماتزال خالدة خلوداً أبدياً باقياً مابقي الأثر في الحجر ، نحتاً ونقشاً وبناءً يطاول النجوم ، ويعبر المسافات اللامتناهية في التاريخ بين الأزل والأبد .

إنساننا العربي هو الذي قدم للإنسانية أول أبجدية كتبت بها ، وتطوت بها وانتشرت بها المعارف والعلوم ، والفنون،وحملها الإنسان العربي أمانةً في عنقه إلى أخيه الإنسان في كل مكان من المعمورة ، فكانت الأبجدية بذلك أعظم إنجازٍ حضاري عرفته البشرية ليومنا هذا . إنساننا العربي هو الذي أشاد الأهرامات العملاقة ، وبنى القناطر ، والحدائق المعلقة في بابل ، والبتراء، وصنعاء ، وإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .. وهو الذي عمّر الأرض فسماها بالمعمورة . أمتنا العربية العظيمة

هي التي جادت على البشرية بالأنبياء العظام جميعهم ، الذين حملوا كلمات السماء من أجل إقامة الحق في الأرض ، وبعث الدفء في الكون ، وإشاعة السلام ، ورفع ظلم الإنسان عن أخيه الإنسان ، وحمل الفضيلة ودفع الرذيلة ونشر المحبة بين البشر ولكافة بني البشر .

أمتنا العربية لم تعرف حدوداً للإنسانية تقف عندها ، أوعصبية تتحجر عليها ، أوكرهاً تُحِلّه للغير .

إنساننا العربي عُرِف منذ الأزل بنزعته الإنسانية الصادقة إلى بني جنسه من كافة بني البشر دون تمييز بين عرق أو جنس أو لون ؛ لنقرأ معاً كلمات حمورابي أول مشرّع حضاري عرفته الإنسانية ومنذ مايزيد على أربعة آلاف عام خلت :

«إذا لم تكن أنت ربي فماذا يكون . أنا الأسير الطائع لك،إنك أنت خالقي ، وأنت الذي حكّمتني في جيوش العباد .

بَدّل قوتك الرهيبة حباً ورحمة ، وابعث في قلبي الإحترام لربوبيتك ، وهبني ماترى فيه الخير لكلّ الناس »

(انظر قصة الحضارة الجزء الثاني صفحة ٢٢٣ ترجمة دكتور زكي نجيب القاهرة ١٩٦٥) .

وهذا دليل أبدي على تَطلّع الإنسان العربي منذ التاريخ الموغل في القدم ، نحو أفقٍ رحبٍ فسيحٍ للأسرة الإنسانية الواحدة . وقد تجددت نزعتنا الإنسانية وترسخت على مرّ الزمن ، وعلى لسان الأنبياء العظام جميعهم عليهم السلام . ولنقرأ معاً كلمات النبي العربي محمد (ص) : «الخلق كلهم

عيال الله ، وأقربهم إلى الله ، أحبهم إلى خلقه ..

الناس سواسية كأسنان المشط..لافرق لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى..كلكم لآدم وآدم من تراب» .

ولنقرأ معاً قوله تعالى في القرآن الكريم :

«وَجَعَلْنَاكم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» .

وليس غريباً بعد ذلك أن تكون التحية فينا ، كما لغيرنا بـ : السلام عليكم .. وسلام الله عليكم .. وسلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وأن تترادف رسالة الإسلام ، وكلمة الإسلام،معنى ولفظاً بمفهوم « السلام » لفظاً ودلالةً أيضاً ، وفي ذلك عظمة أمتنا ورسالتها الحضارية الخالدة .

.. إن أمتنا العظيمة قديمةٌ في التاريخ ، قِدَم التاريخ الإنساني ذاته ، أصيلةٌ في الحضارة ، أصالة الحضارة الإنسانية ذاتها ، عريقةٌ في هويتها ، لاتضاهيها أمةٌ من الأمم عراقةً وأصالةً وهويةً،خالدة على مرّ الزمن .

وإذا كان لنا أن نشمخ ونفخر أن أمتنا حافظت على عروبتها وأصالتها وعراقتها وهويتها العربية الخالدة رغم كل المستجدات وغوائل الأحداث العاتية العظيمة التي مرت بها ، فإننا في ذلك كله لسنا بدعاةٍ عنصريين ،أو لنظرةٍ عرقيةٍ فينا،كتلك التي عرفتها أوربا من نازية وفاشية ، وصهيونية توراتية لئيمة حاقدة . نحن ننشد السلام والمحبة لنا ولغيرنا دون تمييز .

إن أمتنا العربية حافظت على أصالتها وعراقتها وهويتها لأسباب تاريخية وموضوعية ، حية ماثلة لكل ذي بصيرة .

إن وطننا العربي الفسيح بحدوده الطبيعية الشامخة التي تفصله عن غيره من الأوطان هو أولى وأهم تلك الأسباب كلها ، وإن كانت بقية الأسباب الأخرى توالدت عن هذا السبب المادي والموضوعي في آن واحد ، فجاءت كافة المقومات الأخرى للهوية العربية كنتيجة وسبب في نفس الوقت لتوالد العروبة وتجددها وتدفقها وديمومتها الأبدية الخالدة في أرضنا ووطننا العربي العظيم من المحيط إلى الخليج .

إن الوطن العربي الرحب الفسيح بحدوده الطبيعية من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي وقمم جبال فارس وزغروس شرقاً ، ومن جبال طوروس وحوض البحر المتوسط شمالاً وغرباً ، إلى البحر العربي وهضبة الحبشة ومنابع النيل والصحراء العربية الكبرى في إفريقيا جنوباً .. كل ذلك شكل الوعاء المادي ، والرحم المكين الذي حوى الجنين العربي ، والهوية العربية منذ فجر التاريخ الإنساني ، ومنذ أن عرفت الإنسانية الحياة على الأرض . وأياً كانت أصول وتسميات تلك القبائل الأولى التي عاشت وترعرعت بين جدران الوطن العربي الفسيح ، وتنقلت بين وهاده وأكماته وسهوبه شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، سواء اتفق المؤرخون وعلماء الأنسباب فيها أم اختلفوا ، وسواء قالوا أنها انطلقت من الجنوب في جزيرة العرب ، أم نزلت من الشمال في وادي الرافدين .. كل ذلك ليس مهماً ، ولايشكل عائقاً أمام حقيقة وجود الهوية العربية ورسوخها منذ فجر التاريخ .. أمام ثبوت

العروبة وكينونتها في كل حبة رمل من صحارينا ، وكل شبر من شواطينا ، وفي كل رابيةٍ خضراء من بلادنا الغناء.. في الشمال ، كما في الجنوب،وفي الشرق كما في الغرب ، لقد تحركت القبائل العربية الأولى في هذا الوطن العظيم ، فتمازجت ، وتماثلت ، وتصاهرت ، وتوالدت بعضها من بعض ، تماماً كما يحدث لقطرات الماء بعضها مع بعض في وعاءٍ أو في قدر واحد. ومع تلك القبائل الأولى التي سكنت هذا الوطن العظيم ولدت الهوية العربية مع ولادة الإنسان في الكون . لقد مرت الأمة العربية عبر تاريخها الموغل في القدم بتجارب قاسية ومحنٍ دامية ، وواجهت عوادي الدهر والطبيعة معاً وصمدت لعواصف عابقة ، وجحافل غازية كثيرة وكثيرة .. كل ذلك مما منحها هويتها ، وثبت فيها معالم عروبتها ، وأكسبها أصالتها وعراقتها، وصهرها مع بعضها البعض في بوتقة التاريخ،أو قُلْ في مرجل بخاري عظيم لوطن عربي عظيم . هكذا تفولذت أمتنا العربية ومدت جذورها بعيداً ، بعيداً في جنبات الوطن العربي العظيم مثلها في ذلك مثل شجرة سنديان عظيمة تسر الناظرين ، وتأخذ بقلوبهم في ذرى جبالنا الشامخة ، وقد استعصت على عواصف الطبيعة .

لقد تعرضت أمتنا العربية خلال تاريخها الإنساني الموغل في القدم ، لهزات وهزات ، استهدفت في كل مرة استلاب الهوية العربية ، ومصادرتها، وتفتيت كينونة الأمة واستئصال جذورها..وانتصرت أمتنا في كل مرة.. وكانت في كل مرة ترد على هجمات الغزاة الذين استغلّوا ضعفاً عارضاً فيها أو خلافاً فتجزئة في صفوفها ، باستعادة وحدتها القومية ، واستنفار كمونها

الحضاري الأصيل ، ودحر الغزاة ، وجعله أثراً بعد عين ، حتى أصبح وطننا العربي بحق يعرف لدى كافة مؤرخي العالم وباحثيه باسم« مقبرة الغزاة» .

.. لنمعن النظر في كلمات بن غوريون رئيس أول حكومة للعدو عندما نزل أرض فلسطين لأول مرة عام ١٩٤٥ :

« نحن هنا في فلسطين مثل فصائل الإنكليز والإسبان الذين قضوا بالحديد والنار على الهنود الحمر في أمريكا » .

وفي كلمات مناحيم بيغن في خطابه الجوابي في الكنيست الإسرائيلي في ١٩٧٧/١١/٢٠ في الرد على الخائن أنور السادات :

« نحن لم نأخذ أرضاً عربية ، بل عدنا إلى أرضنا ، والصلة بيننا وبين هذه الأرض هي صلة أبدية ، وهي ثابتة في جذور التاريخ الإنساني».

وفي كلمات إسحق شامير في ١٦ حزيران ١٩٨٢م على شاشة التلفزيون الفرنسي إثر الإجتياح الصهيوني للبنان :

« نحن لم نضم أراضي عربية محتلة .. كيف نضم ماهو ثابت تاريخياً لنا ، ولأجدادنا .. ولاأرى داعياً لتحديد حدود إسرائيل .. إنها محددة في التوراة » .

.. وفي وقت تشابكت فيه الأوراق ، واختلطت الأحداث وعظمت الهجمة الشرسة على أمتنا العربية من كل صوب ..

وفي وقت تتغير فيه الوقائع ، وتستجد المستجدات على الساحة الدولية وفي وطننا العربي قبل أن يجف مداد القلم الذي تكتب فيه . وفي وقت تحوم فيه البوم وهي تنعق شؤماً ويأساً ، وتصول فيه الذئاب وقد كثرت

من حولنا ، وتتعاظم فيه قوى الشر والعدوان وقد بلغت مبلغاً لم تبلغه من قبل لبسط الفاشية الصهونية على أمتنا العربية ، بفرض ابتلاعها وإيداعها تحت كابوس الإحتلالات السافرة ، في خطة همجية كتلك التي صاغها أسلافٌ لهم من قبل .. وفي الوقت الذي ينتصب فيه شعبنا العربي عملاقاً في أرضنا المحتلة في فلسطين ، وجنوبي لبنان وذرى الجولان ، تماماً كما انتصب أسلافٌ لنا من قبل في مواجهة جحافل الصليبيين والمغول والتتار ، والفرس والروم .. تماماً كما انتصب الإنسان العربي عملاقاً في القادسية واليرموك وحطين وعين جالوت .

.. وفي الوقت الذي جعل فيه أطفالنا في فلسطين من الحجارة رمزاً حضارياً خالداً للكفاح الإنساني ، وتسابقوا إلى الشهادة على عربات الإحتلال الصهيوني ومختبراته ، كما تتسابق الفراشات والعصافير إلى أزهار المروج .. وفي الوقت الذي يسيطر فيه اليأس على البعض ، ويُطبق الظلام الدامس على البعض الآخر ، وسط صيحات الحرب النفسية للفاشية الصهيونية التي مافتئت تزرع أسطورة « إسرائيل التي لا تقهر » تماماً كما كان يشيع ذلك أباطرة الصليبيين ، وملوك المغول والتتار في كل حملة ، وهجمةاستهدفوا فيها استلاب وجودنا ، واجتياح وطننا العربي ..

وفي الوقت الذي ترتفع فيه من سوريا ، من دمشق .. من حاضرة صلاح الدين صرخة التحرير والثأر للكرامة العربية ، وتنتصب فيه الإرادة العربية عملاقةً، كما انتصبت فيها إلى حطين وعين جالوت ...

.. في هذا الوقت ، ووسط هذا الزحام من الأحداث اللاهبة ، حري بنا

العودة إلى التاريخ العربي ؛ إلى ماضي أمتنا ؛ إلى تجارب وجودها الأزلي فسنجد في ثنايا تاريخنا الذي مازال مشرقاً رغم كل حملات التشكيك والتضليل ، سنجد فيه مايبعث الأمل ، ويجدد الإرادة ، ويصلّب العزيمة في مجابهة مغولٍ جدد ، وتتارٍ جدد ، وصليبيين جدد ! لاسيما وأن أمتنا العربية وقد تأصلت عراقةً على مر الزمن ، وجابهت مثل ذلك ، وأعتى من ذلك .. إن إنساننا العربي مازالت تتدفق فيه دماء آبائه وأجداده الذين صنعوا ملاحم ذي قار ، والقادسية واليرموك وحطين ، وعين جالوت ، وغيرها من ملاحم المجد والفخار التي ليست آخرها أمجاد حرب تشرين العظيمة عام ١٩٧٣ م .

في الوقت الذي تنظر فيه الأمم والشعوب إلى تراثها الوطني ، وتاريخا القومي نظرتها إلى أمنها القومي ، ومستقبلها الاستراتيجي .. في الوقت الذي يبني فيه أعداؤنا تراثاً زائفاً لهم ، وتاريخاً خرافياً من الأباطيل التي تثير سخرية كل ذي عقل وبصيرة ..

حري بنا أن نعود إلى تراثنا القومي الكفاحي ، إلى جذور أمتنا الخالدة التي تملك في ذاكرتها الوقّادة مالا تملكه غيرها من الأمم .. لابغرض التشبث بالماضي ، والانفصال عن الحاضر ؟ بل بغرض استلهام الصبر والدروس لمعالجة الحاضر والانطلاق لصنع المستقبل العربي المشرق ، وصنع حكم التاريخ الذي لايحيد أبداً .

وإنني إذ اخترت الكتابة في موضوع شائك ومعقد ، فما ذلك سوى لإيماني المطلق بعدالة قضيتنا القومية ، وثقتي الراسخة بالنصر الأكيد في

المعركة المصيرية الفاصلة التي نكتب سطورها بأيدينا ، بدماء قوافل الشهداء من أبنائنا؛ ببنادقنا ، وأجسادنا وحجارة أطفالنا ؛ وبكل كلمات الأيام التالية، وإن لم يكن في جيلنا نحن ، فعلى يد أجيالنا القادمة بكل تأكيد .

وإنني كعربي ملتزم تجاه أمته ، غيورٌ على طهر ترابها وحفظ تراثها من التشويه والتشكيك ، أؤمن بالنضال وسيلةً وحيدةً لاستعادة الحقوق ، وتحرير الأرض ، وقيادة الجماهير في معركة خلاصها ..

وإن النضال والكفاح يكون بالقلم ، كما بالبندقية .. بل إن الكلمة الصادقة الهادفة عندما تكشِف الحقيقة ، وتجلي الشك باليقين وتخلق الرؤيا السليمة الواضحة أمام الجماهير ،لاتقل وقعاً عن الرصاصة التي تخترق جسم العدو .

وإنني إذ أقدّم دراستي هذه بحسٍ من تجَرّع أحداث أمته في رحلة مصيرية وحاسمة من مراحل وجودها ، وشعور مَن رضع من تجارب التاريخ ودروس الأمم من غيرنا ، فإنني أعترف سلفاً بأنني لم أخلق شيئاً جديداً سوى أنني قد جمعت مادرست خلال ردحٍ من الزمن ، وحللت ماقرأت بصدقٍ ووفاء ، مستلهماً الحقيقة الخالصة سواء لنا أم علينا ، وكل ما استعنت به من شواهد ووقائع هو مسندٌ ومُوَثّق في أكثر من مرجع عربي وأجنبي مشار إليه مباشرةً في متن هذه الدراسة .

أرجو أن أكون قد وُفقت فيما سعيت وقصدت،مع اعترافي سلفاً بوجود النقص في العمل،لأنني أشعر أنه ليس من السهولة على مثلي

الخوض في هذا البحر المتلاطم من الأحداث والوقائع ، كما من الصعوبة بمكان تناوله كله في كتاب واحد .

وما الكمال إلا لله وحده ، والله من وراء القصد .

الهوية العربية في مواجهة أخابث اليهودية

١- لغتنا العربية هي عنوان هويتنا
٢- آثارنا شواهد أبدية على أصالة أمتنا العربية
٣- العرب والعروبة أصلٌ ثابت في جذور التاريخ الإنساني
٤- مملكتهم المزعومة افتراء كاذب وبدعة لامثيل لها .

في ٣ شباط ١٩١٩م تعاقب خمسة من زعماء الصهيونية العالمية بعرض مذكراتهم ضمن إطار الوفد الصهيوني إلى مؤتمر الصلح في باريس عقب الحرب العالمية الأولى . وكان أول من ابتدأ الكلام الصهيوني مناحيم مندل أوسيشكين من يهود مينسك في روسيا القيصرية سابقاً ، حيث ابتدأ الكلام بالعبرية في وقت لم تكون فيه العبرية معروفة لأحدٍ من أعضاء وفود المؤتمر ، ولاحتى لباقي أعضاء الوفد الصهيوني أو لأحدٍ من يهود العالم ، سوى لحفنةٍ قليلة من الحاخامات الأخابث في العالم . وكانت العبرية يومها تشكل رطانةً غريبة عن الآذان ومازالت كذلك ؛ وليس لها صحف تنطق بها في أي مكان من العالم .

أما الغرض من الحديث بها أمام المؤتمرين في فرساي في باريس مع عدم وجودمن يفهم بها كلمة واحدة ، فلا أراني بحاجة إلى التعليق عليه .

وَأَعْقبه بعد ذلك تاحوم سوكولوف بالإنجليزية،وهو يهودي بولوني المنشأ من وارسو التي كانت خاضعة في فترة ماقبل الحرب الأولى إلى روسيا القيصرية حيث أسهب سوكولوف الحديث عن الصلة التاريخية المزعومة بين اليهود وفلسطين ؛ وأعقبه بعدها الحديث بالفرنسية اليهوديان الفرنسيان أندريه سبير ، وسليفان ليفي،حيث قاما بعرض حدود الدولة اليهودية التي طلبوا من المؤتمر إعلانه قيامها،بحيث شملت حسب ماجاء في مذكرتهم كامل فلسطين وأقساماً من سورية ولبنان والأردن ومصر ، وعلى محاذاة سكة حديد الحجاز وحتى خليج العقبة على البحر الأحمر ، والعريش على ساحل المتوسط .

لقد قُبِل الوفد الصهيوني في مؤتمر الصلح ، في الوقت الذي رُفِض فيه قبول الوفد العربي كوفدٍ مستقل إلى المؤتمر ، ولم يُسّمَح للأمير فيصل بالمثول أمام المؤتمر في ٦ شباط ١٩١٩ إلا بصفته نائباً عن أبيه أمير الحجاز فقط . ومما يلفت النظر في الوفد الصهيوني قيام البروفسور حاييم وايزمن وهو يهودي روسي من أوديسا،انجليزي الجنسية ، وكان آخر خطباء الوفد اليهودي،بإعادة إجمال كل ما عرضه رفاقه الأعضاء الذين سبقوه الكلام ، مع التأكيد على حق اليهود التاريخي في فلسطين بالإستناد إلى دعوى وجودهم فيها منذ ألفي عام قبل أن يخرجوا منها ، وحقهم الثابت في العودة إليها . وبعد أن فرغ وايزمن من الكلام خاطبه أحد أعضاء الوفد الأمريكي وهو لنسننغ بسؤاله « عما يقصد بالوطن القومي لليهود في فلسطين ؟ » فأجابه وايزمن : « مع اطراد عودة اليهود إلى وطنهم،تصبح فلسطين

يهودية ، كما هي بريطانيا إنجليزية . هل هذا هو واضح ! فأعقب لنسننغ بالتأكيد نعم » .

هذه هي دعواهم الخرافية في حقهم المزعوم في العودة إلى فلسطين بالإستناد إلى وجودهم فيها منذ ألفي عام تارةً، وبالإستناد إلى أنهم ورثة ميثاق الرب يهوه في توراتهم تارة أخرى .

هذه العقيدة المشبعة بالعدوانية والعنصرية القائمة على الخرافات مع مافي كل ذلك من استخفاف بعقول المؤتمرين الوفود الكبار في عنصر فرساي في باريس،لم يخجل أحد من صهاينة الوفد مثل البروفسور الكيميائي وايزمن من عرضها ؛ كما لم يُبدِ أحدٌ من كبار الوفود في المؤتمر غرابةً أو دهشةً من الإصغاء إليها ، بل طلب لنسننغ المزيد من الإيضاح ، فجاءه الكيميائي وايزمن بابتكار كيميائي لحقهمالخرافي في فلسطين،فأقنعه تماماً !

وكان ذلك هو الإكسير الصهيوني الذي طالما فَتّشت عنه حاخامات اليهودية ورؤوسها الشريرة في العالم ، فجاء به الوفد الصهيوني على مرأى ومسمع من العالم المُتمَدّنفي مؤتمر السلام لينال به إعجابه ، وينسف بذلك السلام العالمي لأمدٍ طويل وحتى اليوم .

ومع تقدم العلم والتكنولوجيا ، ومع غزو الإنسان للفضاء الكوني وصنع المعجزات العلمية المعقدة ! ومع كل ذلك،فإن آلة السحر والشعوذة لم تتوقف للحظة واحدة وذلك في أكبر عملية خداع واستخفاف بالعقل الإنساني والعالم المتمدن بأسره ، عملاً بقول حاخاماتهم :

«أكذبْ . اكذبْ فيصدقك الناس . حتى تكون الكذبة صحيحة

يجب أن تكون كبيرةً جداً » .

بل مما يثير الغرابة أن أساتذة السياسة الدولية في أوربا وأمريكا، مافتئوا يطالبوننا بالأخذ بمقولاتهم الخرافية وكأنها اكتسبت كل عناصر الشرعية والمنطق وتحولت من خرافات غريبة إلى ثوابت علمية ، وهم يخاطبوننا بقولهم : « لماذا لاتعترفون بإسرائيل ! أليس اليهود موجودين قبلكم في فلسطين ، فشردهم منها البابليون ثم الإغريق فالرومان ؟» . إلى مثل هذه المزاعم التي فَبْرَكتها الآلة الصهوينية الدعائية بخبث ودهاء،للتأثير في العقل الإنساني عموماً والإنسان العربي خصوصاً .. كل ذلك مع إنكار كامل لحق العرب بالبقاء في أرضهم،مع أنهم وُجدوا فيها منذ الأزل ومازالوا يتشبثون بها ، وقد التصقوا بترابها كما بأمجادها رغم كل الظروف وألوان القهر والإبادة . وهاهو اليوم شامير رئيس حكومة الكيان الصهيوني،مثله مثل كافة قادة الصهيوية قديمهم وحديثهم ، على مرأى ومسمع من العالم المتمدن،وسط مباركة الإرادة الأمريكية ودعم الصليبية الصهيونية في العالم، مافتئ يعلنها وماجاء بعدها وقاحة ، مابعدها وقاحة،في استخفاف بالعرب والتاريخ والدين والعالم،مابعده استخفاف ، بقوله وقاحةً وجهاراً :

« إننا جادّون في صنع إسرائيل عظمى . إن العودة الكبرى تتطلب بناء إسرائيل كبرى . سنسحق عظام الفلسطينيين .. » .

لغتنا العربية هي عنوان هويتنا :

دعني أرافقك في جولة سريعة بين أكَمات التاريخ الإنساني ، علّني آتيك منه بقبسٍ فيطمئن به قلبك وقلبي،ويا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم .

إننا نعرف جيداً ، ويعرف العالم بأسره ، ولاغبار في ذلك أبداً ، أن دمشق العربية هي أقدم مدينةٍ في التاريخ ، وهي عنوان لأول مدينة،وعراقة، عرفها التاريخ الإنساني قديمه وحديثه .

وإن دمشق أخذت اسمها كذلك من الأزل . ومازال اسمها كذلك أيضاً في العربية وفي كافة لغات العالم وحتى يومنا هذا .

واسم دمشق هو اسمٌ عربي ولفظ عربي له دلالته اللغوية بالعربية وحدها،دون غيرها من لغات العالم . نعم بالعربية الأم ، كما في كافة لهجات لغتنا العربية من سريانية وآرامية وكلدانية وفينيقية ومصرية ونبطية ، كما في لهجة لغتنا القرشية التي حفظها القرآن الكريم حتى اليوم . إن اسم دمشق هو لفظ مركب من كلمتين اثنتين هما : الاسم « دم » بمدلوله اللغوي الذي لم يتغير في كافة لهجات العربية،والاسم « شق » بمدلولها اللغوي القديم أي الأخ والشقيق اليوم حين كان الاسم «شق » يعني الأخ الشقيق وذلك كناية عن خروج الأخ من نفس الشق للمرأة الأم .

ولفظ دمشق في دلالتها اللغوية القديمة والمعاصرة بصفتها « مكان دم الشقيق هابيل الذي قتله أخوه قابيل » لنزوةٍ في نفسه،كما تناقلته ألسنة العرب ودونوه في سجلاتهم ، ومنهم المؤرخ ياقوت الحموي في كتابه

معجم البلدان الذي جاء فيه :

« .. فحسد قابيل أخاه هابيل وأراد قتله ، فأخذ حجراً وجعل يضرب به رأسه فقتله على جبل قاسيون ، ويتابع ياقوت الحموي :

وأنا رأيت هناك حجراً عليه شيء كالدم يزعم أهل الشام أنه الحجر الذي قتل به قابيل هابيل ، وأن ذلك الأحمرار الذي عليه هو أثر دم هابيل في مغارة تُعرف بمغارة الدم بجبل قاسيون » المجلد الثاني ص٤٦٤.

ويقول الثقاة من المفسرين أن قوله تعالى في القرآن الكريم :

«وآويناهما إلى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعين » هو في دمشق.ذات قرار أي ذات رخاء من العيش ، وذات معين.أي كثيرة المياه والعيون،وهذا ثابت فيها حتى يومنا هذا . (انظر معجم البلدان ياقوت الحموي ـ المجلد الثاني ص٤٦٣).

ويصف لنا القرآن الكريم قتل قابيل أخيه هابيل في سورة المائدة :

«فطوَّعَتْ لهُ نفْسُهُ قتْلَ أخيهِ فقتَلهُ فأصْبحَ مِنَ الخاسِرين .فبعَثَ اللهَ غُراباً يبْحَثُ في الأرضِ ليُريَهُ كيفَ يُواري سَوءَةَ أخيهِ قالَ ياويلَتي أعَجَزتُ أنْ أكونَ مِثْلَ هذا الغُرابِ فأواري سَوءَةَ أخي، فأصْبحَ مِنَ النّادِمين» سورة المائدة ٣٠-٣١ .

وهذا يعني أن اسم دمشق هو اسم عربي اللفظ عربي الدلالة من الأزل، وأن العرب والعربية والعروبة وجدوا أيضاً من الأزل على هذه الأرض ومنذ أن وجد الإنسان العاقل الأول آدم النبي وزوجه حواء لأول مرّة في الكون ؛

وأن الإنسانية بأبيها آدم وأمها حواء انطلقت من أرضنا العربية إلى كل الأرض ، وليس في ذلك مايثير الدهشة .

يقول الدكتور فيليب حتي في مؤلفه " تاريخ العرب القديم صفحة ١٥" : (وفي أثناء شطر من العصر الجليدي كانت هذه الصحاري في جزيرة العرب مروجاً خضراء آهلة بالسكان ، ولا تزال قيعان،أوديتها الجافة العميقة اليوم شاهدة على فعل مياه الأمطار فيها حين كانت تسيل فيها السيول الزاخرة) .

ويقول الأستاذ " كون " الأستاذ في جامعة بنسلفانيا الأمريكية ، مؤكداً هذه الحقيقة بالنتائج التي توصل إليها من حفرياته في غاري ثنية البيضا وجرف العجل القريبة من تدمر مؤكداً أن سورية والصحراء العربية هي موطن الإنسان العاقل الأول ، وأنها كانت جنة من الخصب على الأرض قبل أن يصيبها التصحر،فيقول :

(وقد وجد الإنسان العاقل الأول في غابات هذه المنطقة - أي سورية- والمندثرة حالياً ، حيث كانت الحياة متعذرة في أماكن أخرى من العالم بسبب الجموديات والثلوج)

مقال د.أحمد داوود - الوحود العربي موغل في القدم) .

أي أن في العصر الجليدي الذي يؤكد وجوده في السابق العلماء، لم يكن ثمة مكان للحياة على الأرض سوى في وسط الكرة الأرضية حيث يوجد الوطن العربي الأكثر خصوبة واعتدالاً في العالم آنذاك ، ومازال في معظمه كذلك حتى اليوم ، ولم تكن الحياة ممكنة في أمكنة كثيرة من العالم

لاسيما في شمالي الأرض وجنوبها في القطبين بسبب تراكم الثلوج والجموديات . وهذا يعني أن أرضنا العربية هي الرحم الذي حوى الإنسانية الأولى وهي مهدها الأول ، وأن أمتنا العربية هي شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.منها انبثقت ، وعنها تفرعت شعوب وأمم العالم أجمع فانتشرت في الأرض تعمرها،فاصبح اسم الأرض بالمعمورة ، فحملت الدفء والمحبة والمعرفة في الكون ، كما حملت على كتفيها كلمة الله وأمانة الله في نشر السلام والحق والخير ، وبذلك جاء قوله تعالى في قرآنه الكريم **«وَجعلْناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارفوا ، إنّ أكْرَمَكم عندَ الله أتقاكم .. إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأَبَيْن أن يحملنها وأشفقن منها فحملها الإنسان ..**

كنتمْ خَيْرَ أُمَةٍ أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » صدق الله العظيم .

ولاغرابة بعد ذلك أن تكون أمتنا العربية هي أقدم أمم الأرض عراقةً وأكثرها غيرية على الإنسانية والتصاقاً بالبشرية وأبنائها،ويكون الأنبياء كلهم فينا ومن أرضنا،من آدم النبي وحتى محمد (ص)خاتمهم ، وهو عربي ثابت نسبه في عروبته ولكنه جاء لنا ولغيرنا للإنسانية كافة . وبرسالة ربه لبناء مجتمع إنساني لينتفي فيه الظلم ويخيم على ربوعه السلام ، لافرق فيه لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وبذلك صدح النبي محمد (ص)بقوله :

« كلكم لآدم وآدم من تراب .. الخلق كلهم عيال الله ، أقربهم إلى الله

أحبهم إلى خلقه » .

فيكون العربي بشخص النبي محمد(ص)هم أول من أرسى أقدم وأعرق أمية في التاريخ ، ودعوا إلى إقامة صرح مجتمع إنساني دون تمييز بين عرق أو جنس أو لون ، حتى كانت تحيتهم فيها سلام ، وفي كل يوم صباح مساء يحملنها العرب في كل مكان لبعضهم البعض كما للعالم أجمع قصيّهم ودنيّهم خير تحية في خير محبة لبني البشر بقولهم « **سلامُ الله عليكم .. وتحيتم فيها سلام،طبتم فادخلوها آمنين** » .

هذه هي أمتنا العربية شجرةٌ طيبةٌ وارفةُ الظلال يفيء في ظلها ويأكل من ثمرها أبناؤها وغيرهم وغيرهم من بني البشر .

ولنمض عزيزي القارئ إلى محطة أخرى في لغتنا العربية الأم ، التي هي أهم مظهر من مظاهر هويتنا القومية ، ومستودع تراثنا القومي .

يقول د.فيليب حتي ، ويشاركه في ذلك العديد من المؤرخين :

"إذا رجعنا إلى خريطه لغوية لآسية الغربية،وجدنا أن الشام وفلسطين والجزيرة العربية والعراق مأهولة الآن بجماعات وأقوام تتكلم العربية ، ثم إذا استعرضنا بعد ذلك تاريخنا القديم وجدنا أنه ابتداءً من منتصف الألف الرابع قبل الميلاد أخذ البابليون الذين عُرِفوا بالآكاديين نسبة إلى عاصمتهم آكاد ، وبعدهم الآشوريون والكلدانيون في احتلال وادي الرافدين،ثم بعد سنة ٤٥٠٠ ق . م سكن الأموريون والكنعانيون ومنهم الفينيقيون بلاد الشام ، هذا مع الإشارة إلى أن الفينيقيين هي التسمية الإغريقية للكنعانيين السواحل .. وفي تلك الغضون أي في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد

اندفعت إلى الشمال موجة أخرى سلكت طريقاً موازياً للآخر، طريق الساحل الغربي من الجزيرة العربية نحو الشمال حيث يتفرع عنه شبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل الخصيب ، فكان من نتيجة ذلك أن ظهر المصريون القدماء الذين وضعوا كثيراً من العناصر الأساسية في مدينتنا ، فكانوا أول من شيد الأبنية الحجرية وأنشأوا التقويم الشمسي .

.. وجاء القرن السابع للميلاد، فإذا نحن أمام موجة جديدة هي آخر الهجرات وقد جرت تحت راية الإسلام العظيم ، وهنا تحطمت السدود أمامها . وقد اتخذت هذه الهجرة الأخيرة التي تمت في وضح التاريخ حجةً يعتمد عليها القائلون بتوالي الهجرات وبأن جزيرة العرب هي الموطن الأصلي التي اندلعت منها كافة الهجرات ويتابع د . فيليب حتي فيقول : ولقد ظل الكثيرون من المؤرخين في العصور الوسطى والعصر الحديث إلى القرن التاسع عشر ، لايدركون أن هذه الأقوام التي انتشرت وتعاقبت في الوطن العربي من أعالي الفرات إلى أعالي النيل ومن الخليج إلى المحيط - تربطها أواصر قربى شديدة ، حتى إذا حُلّت رموز الخط الأسفيني (المسماري) في منتصف القرن التاسع عشر، ودُرِست اللغات الآشورية والبابلية والآرامية والمصرية والنبطية والفينيقية والسريانية والقرشية دراسةمقارنة، تبين أن بين هذه اللغات أوجه شبه وتقارب كبيرين ، وأن الصلة بينها جوهرية حقيقية .. والقرابة اللغوية ليست إذن سوى مظهر من مظاهر الوحدة القومية العربية الراهنة .

لايسعنا والحالة هذه إلا أن نستنتج أن أسلافنا من بابليين وآشوريين

وكلدانيين وآموريين وفينقيين ومصريين .. كانوا في زمن ماقبل التاريخ يعيشون شعباً واحداً في مكان واحد هو الجزيرة العربية ومنها انطلقوا (انظر د.فيليب حتي تاريخ العرب القديم ص٩ وص١٠) .

وبهذا الشأن أيضاً،في وحدة الأصول القومية العربية،كتب د. نبيه عاقل في مولفه (تاريخ العرب القديم). ص٧٧:

«إن مظاهر الحضارة المعينية في اليمن تشبه حضارة البابليين ، فالإلهان شماش وعشتروت البابليين ، يشبهان الإلهين شمس وعثر لدى المعينيين في اليمن . كما أن النقوش والأختام متشابهة تماماً في كل من بابل والشام واليمن ووادي النيل . وهذا مايؤكده نقش عُثِرَ عليه في مصر يعود إلى حوالي ١٢٠٠ ق.م .

وهذا التشابه الحضاري بين بابل والشام واليمن ووادي النيل منذ أزمنة سحيقة في القدم هو دليل ساطع على وجود صلات وثيقة بين تلك الممالك والدول وعلى وحدة الأصول لتلك الأقوام التي عاشت منذ آلاف السنينوأدت إلى هذا التشابه الحضاري واللغوي ، وأنهم في بابل في العراق وفي صنعاء اليمن ، كما في معان وحوزا (يسمونها اليوم في اليمن بـ مخا) ومصر قد جاؤوا من أصل واحد ومن مكان واحد » .

ليس هذا اختراعاً أو من وحي الخيال بل إنها الحقيقة التي لايستطيع أحد اليوم أن ينكرها ، إلا من ينكر الشمس في رابعة النهار .

إن هويتنا العربية ثابتة الجذور منذ أزمنة سحيقة في القدم ومنذ فجر

التاريخ الإنساني ، وكما هي اليوم .. في بابل وفي دمشق والبتراء ومعان وصنعاء وقرطاجة ووادي النيل .. في أهرامات مصر كما في سد مأرب العظيم،وفي كل شبرٍ من وطننا العربي الكبير حيث تتناثر هنا وهناك القلاع والتلال والأطلال كشواهد أبدية لأمجادٍ أبدية . إن الوجود العربي في أرضنا العربية هو وجود حضاري إنساني وهو وجود الإنسانية في مهدها الأول ، وهو وجود سابق لوجود أي شعبٍ آخر . وقد أشاد شعبنا على هذه الأرض أولى حضارات العالم ومنها شعت إلى باقي أصقاع العالم :

وماذلك لأننا (شعبٌ مختار) كما ينسب لنفسه ذلك من هم من إخوان القردة أبناء اليهودية ؛ بل لأننا شعبٌ معطاء من الأزل ، حمل على كتفيه أمانة الله ورسالة السماء في إعمار الأرض فسماها بالمعمورة ، ونشر المحبة والتعارف فيها ، وإفشاء السلام في ربوعها،فكانت تحية آدم وبنيه في أرضنا ومازالت فينا،وبيننا،لبعضنا كما لغيرنا،بـ سلام الله عليكم طبتم فادخلوها آمنين !

إن ماسموه باللغات القديمة أحياناً والسامية أحياناً، أحياناً أخرى،من سومرية ، وآكادية وسريانية وأمورية وآرامية وكنعانية وفينيقية وفرعونية وإيبلائية وآشورية ونبطية وسبئية وقرشية .. إنما هي لهجات وليست بلغات تفرعت عن اللغة العربية القديمة التي استقرت اليوم في لهجتها الأخيرة لهجة قريش التي حفظها القرآن الكريم في شكلها الأخير، وهذه حقيقة ثابتة توصل إليها العلماء اللغويون بدراسة مقارنة دقيقة ، كما أثبتوا أن لغتنا العربية الأم هي الأصل والأساس لكافة مازعموا به من لغات

سامية وذلك من خلال وجود الأصل العربي واللفظ العربي والحرف العربي في كافة لغات العالم القديم . إن وجود اللهجات المتعددة المتفرعة عن لغتنا العربية الأم هو أمر طبيعي جداً ولكل لغةٍ في العالم . وهي نتاج الهجرات والجولات للفروع السكانية العربية ، كما هي نتاج تأثيرات البيئة العربية التي امتدت على سرب عريض من الأرض من أعالي الفرات إلى أعالي النيل،ومن الخليج إلى المحيط ومنذ الألف العاشر قبل الميلاد على الأقل .

هذا ما أحدثه عامل الزمن الذي امتد من التاريخ السحيق في القدم من تأثيرات في اللهجات وحتى اليوم . إن تأثيرات البيئة في إطارها الزماني والمكاني أمرٌ طبيعي في ظهور اللهجات العربية وتناغمها في اللغة العربية الأم . وهذا شيء طبيعي جداً ونلمسه في كل لغة من لغات العالم ، كما نلمسه اليوم في الواقع المعاشي واللغوي لكل بلدٍ من البلدان ولكل منطقةٍ من المناطق ، مما نجد تعبيراً له في اللهجات المختلفة من قطرٍ عربي إلى آخر ، ومن مدينة إلى أخرى داخل القطر ذاته .

لنتجول معاً في كرم لغتنا العربية العريقة ، فنرى كيف تطورت في لهجاتها عبر التاريخ،فنقرأ مثلاً :

كلمة «جمل» كانت تلفظ بـ جملو في السريانية الشرقية .وبـ «جملا » في السريانية الغربية (الأمورية) وبـ «غملا» في الفينيقية (الأوغاريتية) .

وأن كلمة « عشب » كذلك،كانوا يلفظونها « عشبو» في السريانية الشرقية و « عشبا » في السريانية الغربية و «غسبا» في الأوغاريتية .

حيث كان الأموريون يلطفون حرف « الجيم » إلى « غ » وهذه هي اللهجة التي ماتزال تتحدث بها قرية معلولا السورية حتى اليوم .

وحينما كان يريد سكان آكاد زمن سرجون ،أو سكان بابل زمن حمورابي أن يقولوا بلهجتهم الشرقية « الجمل يرعى العشب » كانوا يقولونها هكذا :«جملو روعي عشبو »،أما الفينيقيون فكانوا يلفظونها بـ : « غملا روعي عسبا » .

وسكان بابل كانوا يسمون الزوجة بـ "شريكتو " ومنها جاء اللفظ اليوم بـ « شريكته » ؛ وكانوا يلفظون «مشكينو » وهو مايراد بـ «مسكين » حيث كان « المساكين » في بابل يشكلون طبقة ثالثة بين العبيد والسادة ، وهي طبقة الأجراء والبدلاء . وكان سكان بابل زمن حمورابي يلفظون أيام الأسبوع وأسماء الأشهر منذ أربعة آلاف عام بنفس ألفاظها اليوم في العربية مع فروقات طفيفة جداً لاتكاد تذكر . « انظر الحقوق البابلية مُقَرر كلية الحقوق جامعة دمشق لمؤلفه د. شفيق جراح طبعة ١٩٨٦» .

وأن البابليين زمن حمورابي هم الذين أطلقوا على بلادهم لفظ :

« ميسو فاطاميا » وأرادوا به بـ « بلاد الخصب » ، وذلك لأن كلمة «ميسو» كانت تعني لديهم بـ « مابين » وأن كلمة «فطاميا » كانت تعني الخصب،والخصوبة والإخصاب ومنها جاءت الأسماء العربية التي مازالت شائعة الاستعمال حتى يومنا هذا وهي « فاطم ،وفطيم،وفاطمة ، وفطيمة .. » وبالتالي فإ ن « ميسو فطاميا » التي كان يراد بها بـ « بلاد مابين النهرين »

كانت أيضاً هي « بلاد الخصب » لأن الخصوبة يُفترض وجودها مابين الأنهر؛ وأن هذه التسمية هي تسمية عربية الأصل ، بابلية المنشأ ، وليس إطلاقاً تسمية إغريقية لبلاد مابين الرافدين أو العراق ، كما يظن ذلك العديد من الباحثين حتى يومنا هذا .

مثال آخر . كلمة « موشيه » هي اللفظ القديم أو اللهجة السريانية الشرقية للاسم الذي يلفظ اليوم بـ « موسى » ، وأن هذا اللفظ القديم أي موشيه هو لفظ مركب من كلمتين هما :

الأولى هي « مو » وتعني بالسريانية « الماء »،وماتزال هذه الكلمة أي « مو » تلفظ بنفس لهجتها السريانية القديمة «موي» في قرانا الريفية في الساحل السوري كما في أماكن أخرى من الوطن العربي في الخليج والمحيط وحتى يومنا هذا ، ويراد بها نفس مدلولها القديم أي « الماء » .

والثانية « شيه » أي « الشجر » وبالتالي تصبح كلمة « موشيه » تعني لغةً بـ « ماء أو جداول مابين الشجر »،وأن هذه الكلمة هي اللفظ الذي أُطلِق على موسى وذلك كنايةً لالتقاطه والعثور عليه بين مياه الجداول وهو ماتؤيده الرواية الدينية ويذكره القرآن الكريم،حيث جاء بصدد ذلك قوله تعالى في سورة القصص :

« وَأَوْحَينا إلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعيهِ،فَإذا خِفْتِ عَلَيهِ فَألْقيهِ في اليَمِّ وَلاتَخافي وَلاتَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ ..» «فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيكونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ، إنَّ فِرْعَونَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئين » (القصص ٦ - ٧) .

إن استخدام علم اللغات استخداماً علمياً موضوعياً يبين لنا وجود الوحدة اللغوية العربية لجميع أقوام الوطن العربي القديم ، وهو مادل عليه أيضاً علم الكتابات القديمة،حيث أكّد وحدة الكتابة عندهم والتي تجسدت بوجود كتابة واحدة تطورت من التصويرية إلى المسمارية القطعية فالمسمارية الأبجدية ثم إلى الأبجدية الحرفية التي عمّت العالم القديم بأسره منذ ذلك الحين وحتى اليوم . وكان هؤلاء الكنعانيون السواحل الذين سماهم الأغارقة بـ « الفينيقيين » أول من نشر في العالم نظاماً خاصاً للكتابة بالحروف الهجائية المجردة وعددها آنذاك إثنان وعشرون حرفاً ، وكانت هذه الحروف أساساً لكل الحروف الهجائية التي يكتب بها أبناء أوربا وآسيا وأمريكا وإفريقيا ، بحيث صح القول أن هذا كان أعظم اختراع عرفته البشرية قاطبة حتى يومنا هذا ، وأن هذه الأبجدية التي سماها أجدادنا الكنعانيون حوالي الـ ١٥٠٠ق.م بـ الألف بائية كانت السفينة الأولى التي حملت الحضارة الأولى من مهدها في أرضنا الثرّاء إلى أصقاع العالم ؛ أو قلْ، كانت الرحم الذي حوى الحضارة الإنسانية جنيناً ، فارتقت بها إلى مانراه اليوم من آفاق علمية متطورة تكادأن تكون أقرب إلى الخيال في عالم الأمس.

ولما كانت أمتنا العربية هي مهد الإنسانية ولبنتها الأولى ومنها انتشرت الأمم في الأرض شعوباً وقبائل لتعارفوا ، فإنه كان من الطبيعي جداً أن يكون للغتنا العربية الأم هذا التأثير الواضح الجلي في كافة لغات العالم والذي كان نتيجة حتمية للمد الحضاري الذي بدأه أجدادنا العظام في بابل وآكاد ودمشق والبتراء وسوسة ووادي النيل وفي ممالك الفينيقيين على

طول ساحل حوض البحر المتوسط،من أوغاريت فأرواد وطرابلس وصيدا وصور وعكا وقرطاجة ؛ وفي كل تل من هضابنا وكل شبرٍ من شواطئنا البديعة ، حيث كل حجرٍ فيها ، وكل حبة رملٍ فيها تتكلم عن التاريخ السحيق في القدم ، العريق في الحضارة عراقة الإنسانية ذاتها . وعلى سبيل المثال لاالحصر-لأن التفصيل هنا ليس مجال بحثنا بل هو من اختصاص اللغويين الذين منهم اقتبسنا بعضاً من أبحاثهم الغنية - نورد مايلي:

إن كلمة « لغة » في العربية نراها تُلفَظ في كافة لغات العالم بنفس اللفظ أو بشكل متقارب تماماً منه ، ففي الأنجليزية تلفظ بـ « لانغوج » والفرنسية بـ «لانغويجية». وهكذا مع وضوح الأصل العربي في كافة اللغات ؛ وأقول الأصل العربي لكلمة « لغة » لأن هذه الكلمة في العربية فقط قابل فعلها للتصريف حيث نجد الفعل « يلغو » و لغوت وهكذا . (د. عمر موسى الباشا رئيس قسم فقه الأدب العربي في جامعة دمشق -

مثال آخر،لفظ « الألف - باء » للدلالة على الأبجدية (الألف بائية) نجده كذلك بنفس اللفظ في كافة لغات العالم مع فارق طفيف في اللهجات، حيث نجد أن هذه الكلمة وبلفظها العربي القديم الموغل في القدم تلفظ بـ« آلفآ- بت» في لغات العالم قاطبةً والمراد بها نفس المدلول لدينا . كذلك فإن كلمة « خبْ » في اللهجة السريانية وتعني « خبز » لدينا تكاد تكون نفسها في اللغة الروسية حيث تلفظ بـ « خلبْ » وبنفس المعنى .

وكذلك كلمة « فلقان » أخذت طريقها من العربية إلى كافة اللغات

بلفظ « ڤولكان»، ومن ثم عادت إلينا من اللهجة الأوربية بـ «بركان». هذا ومن الملفت للنظر، ومما يسترعي الإنتباه لدى كافة اللغويين ، أنه ليس من قبيل المصادفة،أن نجد أن الألفاظ التالية وهي « سبعة للدلالة على الرقم ٧ والسبت اليوم السابع من الأسبوع » تلفظ في كافة لغات العالم بشكل متقارب وفي جميعها تبدأ بنفس الحرف هو « س » مع اختلاف طفيف في اللهجات من لغة إلى أخرى،حيث نجد مثلاً أن الرقم (٧) يلفظ لدينا اليوم بـ « سبعة » وفي الإنجليزية بـ « سيڤين » وبالروسية بـ « سمْ » وهكذا،وأن اليوم السابع من الأسبوع لدينا بـ « السبت » وفي الإنجليزية بـ « ساتردي » والروسية بـ « سوبوتا » وهكذا .

وهناك العديد العديد من الكلمات التي لاأستطيع حصرها في هذه العجالة والتي شَقّت طريقها إلى كافة لغات العالم من لغتنا العربية الأم ، فانتقلت بفعل التأثير الحضاري لأجدادنا بدءاً من حضارة بابل وآكاد وإلى حضارة العرب بعد الإسلام في بغداد ودمشق والقيروان وقرطبة وغرناطة .. ومنها على سبيل المثال كلمات « عربة ذات العجلات ، موسيقى ، تَعرِفة ، سكر ، أميرال ، حيث نجد أن هذه الكلمة الأخيرة والمراد بها رتبة عسكرية عليا في كافة أساطيل البحار في العالم قد أخذت طريقها إلى اللغات الأجنبية من اللفظ العربي الأول لها وهو أمير - الماء » وهو اللفظ الذي أطلقه معاوية بن أبي سفيان والي الشام على قائد أول أسطول عربي بعد الإسلام وهو عبد الله بن قيس الجاسي عام ٢٨هـ/٦٤٩م (انظر تاريخ صدر الإسلام د. عمر فروخ » .

وبعـد كل ذلك مماورد أعـلاه - وهذا غـيض من فـيض - من ثوابت تاريخية وشواهد لغوية تثبت وحدة لغتنا العربية الأم النابعة من وحدة أمتنا العربـية ، وعميق ، امتداد جذورها في أرضنا العربية ومن الأزل ، تسقط المقولة القائلة بـ اللغات السامية ، التي نادى بها المستشرقون الصهـاينة، وَغَذّوها بخبثٍ من خبث أبيهم إبليس،من أجل أن يجدوا لهم مكاناً فكرياً يبرروا به وجودهم الإستيطاني العنصري الذي سعوا إليه طويلاً قبل قيام اسرائيل الصهونية بكثّير ، من خلال الزعم القائل بأنهم « ساميون » ولهم لغة تدعى حسب زعمهم « العبرية » ، وهي أم اللغات السامية كما يزعمون !.

وبهذا الصدد من المفيد أن أنقل ماكتبه المؤرخ المعاصر الدكتور جورجي كنعان«إن اللغات السامية التي يَشْدق بها المؤرخون المستشرقون من باب الخطأ الشنيع،هي في الحقيقة ألسنٌ متفرعة عن دوحة عظيمة هي اللغة العربية الأم ، تفرعت منها كافة اللهجات الأخرى التي يسمونها باطلاً عن قصد أو غير قصد باللغات السامية . هذه اللهجات التي قامت وتوزعت على أساس مواطن المجموعات البشرية ، حيث ظهرت فيها تأثيرات البيئة الجغرافية والمناخية والسكانية في ألسن المهاجرين في مواطن إقامتهم ».

وبصدد مازعموا به وسموه باللغة العبريةفإنه محض افتراء لا أساس له.
« إن ماروّج له بالعبرية وأنها أم اللغات السامية على حد زعمهم،فإنه محض افتراء على التاريخ ، لأن العبرية القديمة هي لهجة عربية قديمة فسوخة

ومسروقة برمتها عن الكنعانية ، أما العبرية الحديثة فهي تركيبة لغوية مسروقة عن الآرامية ، قام بإنشاء صياغتها اللغوي اليهودي المتعصب اليعازر بن يهوه مابين ١٩١٠ - ١٩٢٢ م بإيحاء من الصهونية العالمية لتكون لغة كيانهم المرتقب (انظر د. أحمد داوود جريدة تشرين ١٩٨٩/١/١١) .

ويتابع د. أحمد داوود في مكان آخر : (جريدة الثورة ص٩ تاريخ ٥/٤/ ١٩٩٠) « إن السامية بدعة يهودية ، حيث لم يُعثَر على هذه التسمية أي -السامية- في أي من المكتشفات الآثارية التي تعج بها المنطقة العربية » .

كما أنه دجلٌ فاضح ، ووقاحةٌ لامثيل لها نسب يهود العالم اليوم إلى ماأوجدوه من صنع أيديهم ببدعة الشعوب السامية ؛ هذه البدعة التي حاك خيوطها الصهاينة لنفس الغرض الذي ابتدعوا به لغتهم المزعومة « العبرية » وذلك في أن يكون لهم غطاءً حقوقياً من أجل تحرير عملية غزو استيطاني صهيوني صليبي استعماري توسّعي خططوا له طويلاً قبل قيام اسرائيل بكثير .

إن قصة الطوفان ؛ طوفان نوح تحولت بفعل المكتشفات الأثرية وأهمها ماورد في النصوص والرسوم البابلية ، وفي مكتشفات إيبلا وما ورد في كتاباتها الأثرية،هذا بالإضافة إلى البحوث العلمية المعاصرة التي أجراها العديد من رجال الآثار ، ومنها اكتشاف الهيكل الخشبي لسفينة نوح الحقيقية على إحدى القمم لجبل آرارات ، بعد ذوبان الثلوج التي حفظت السفينة لآلاف السنين،وذلك من قبل الباحثين الأمريكيين : بوب غارب ،

وتشوك أرون من فلوريدا بعد جولة استكشافية قاما بها من الجو (انظر البعث ص١٢ ١٩٨٩/٩/٢٥) كل ذلك جعل قصة الطوفان حَدَثاً تاريخياً ثابتاً،وليس مجرد أسطورة .

وإن علماء الآثار حددوا الألف الثالثة قبل الميلاد تحديداً عرفياً كحد فاصل بين أحداث ماقبل الطوفان وبين أحداث مابعده (انظر د. أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ ص٤٠٨ - دمشق دار العربي) .

ومع كل ذلك فإن نسب السلالات البشرية إلى سام وحام ويافث أبناء نوح تبقى مجرد افترض يعوزه الإثبات العلمي .

وإذا كان من الثابت لدى كافة علماء الآثار والباحثين في العالم -وليس من قبيل الإفتراض - وجود أجدادنا العرب القدماء في مصر وادي النيل وفي بابل وسورية واليمن قبل قصة الطوفان بكثير ؛ وإلى الألف العاشر قبل الميلاد على الأقل - فإنه يصبح من قبيل السخرية بمكان أن ينسب الأجداد العرب إلى الأحفاد الساميين أولاد نوح ، حيث لايصح نسب الأصل إلى الفرع بل العكس هو الصحيح . فالساميون . إن صح وجودهم - هم فرعٌ من فروع العروبة وليسوا أصلاً لها إطلاقاً . مع الإشارة إلى عدم ورود أي ذكر لأسماء سام وحام ويافث في القرآن الكريم .

هذا وقد أورد اللغوي العربي أبو حنيفة الدينوري ذكر قصة الطوفان فقال : « إن كلام الجميع يوم الطوفان كان السريانية وهي لغة نوح،وإن أبناء سام كانوا خمسة وهم إرم ، و أرفخشد وعالم وأليفر والآسور ؛ وإن إرم كان أكبرهم سناً وكان يتكلم باللسان العربي وإليه تنسب الآرامية ؛ وإن موطن

إرم بعد الطوفان كان دمشق ولذلك عرفت باسمه أيضاً أي بـ « إرم » .

وهكذا يبدو جلياً أن العروبة سابقة للسامية وهي أصلٌ لها وليست فرعاً عنها ؛ وهذا ليس من قبيل التعصب للسامية أو ضدها ، ولكنه هو الواقع والحقيقة في فضح التزوير التاريخي الذي لاسابق له .

وإن هويتنا العربية ثابتة في جذور لغتنا العربية الأم ومن الأزل ، كما أن لغتنا العربية ثابتة في جذور التاريخ الإنساني . وليس من قبيل المصادفة أن تكون كلمة « أمة »» للدلالة على وجودنا القومي في لغتنا العربية دون غيرها من سائر اللغات في العالم ، قد ارتبطت بشكل مباشر بالكلمة « أمْ » بمدلولها اللغوي ؛ لأن « الأمة » العربية هي أم الأمم قاطبة ، وهي الشجرة الأصل للإنسانية ، ولذلك فهي الأكثر غيريةً على الإنسانية والتصاقاً بها - في الوقت الذي لانجد فيه هذا الارتباط اللغوي في سائر اللغات الأخرى بين مايفيد كلمة « أمة » حيث تلفظ في اللاتينية بـ «نيشتين أو بـ ناتسيا » وبين كلمة « أم » .

إذا كنا نبحث عن جذور هويتنا العربية في لغتنا العربية فماذلك من قبيل التعصب القومي،بل من أجل فضح التزوير التاريخي الذي لحق بوجودنا القومي على يد أخابث اليهودية والصهوينة،من أجل تحرير الغزو الإستيطاني الصهوني لوطننا العربي ، وخلق المرتكزات الحقوقية والثقافية لوجودهم الزائف المزعوم على أرضنا العربية .

إن لغتنا العربية هي مستودع تراثنا القومي وهي أبلغ مظهر لعبقرية أمتنا،وهي عنوان هويتنا القومية وأهم صلات الماضي بالحاضر والمستقبل . .

وفي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى تكريم لغتنا العربية في أكثر من موضع « وهذا لسان عربي مبين »

« وهذا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لساناً عربياً ».

« لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ».

ومن المأثور قول الرسول العربي محمد (ص) :

« أُحِب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » .

وقال ابن خلدون في وصف لغتنا العربية :

(فكان الكلام العربي أوجز وأقل ألفاظاً وعبارةً من جميع الألسن).

وقال الرافعي: (إن العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها، فلا تهرم ولا تموت لأنها أُعِدَّت من الأزل فلكاً دائراً للنيّرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله وسنة رسوله . ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذة من السحر، لايملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع) .

ويصف الدكتور عبد الكريم اليافي أصالة لغتنا العربية،فيقول :

« أمّا مكانة اللغة العربية بين اللغات فينبغي أن نعرف أنه لاتوجد في القديم ولافي الحديث لغة تضاهيها في المزايا وتحاكيها في الخصائص والفضائل . وليس كلا منا هذا من وحي العاطفة ، وإن كنا نُجِل العاطفة، ولاهو من قبيل الفخار ولا الحماسة . إن العربية من أقدم اللغات الحية بل هي أقدمها على الإطلاق ، وقدمها هذا يحبوها تراثاً ثرياً ويهب لها مرونةً

واسعة ويُزودها بتجارب كثيرة . ولقد نشأت وعاشت واكتملت وعمرت واستمرت الأحقاب الطوال وهي لاتزال في ريعان القوة والنمو، وماذلك إلا لأنها تحوي فضائل ليست لِلغات أخرى ماتت وانقرضت كاليونانية واللاتينية وأمثالهما ».

إن لغتنا العربية هي أفضل اللغات فصاحة وأصالة وعبقرية ، وهي عنوان هويتنا القومية ومستودع تراثنا الحضاري ، وأجلى مظهر لتوجهنا الإنساني ، وأهم صلات الماضي الموغل في القدم بالحاضر والمستقبل .

آثارنا الحضارية شواهد أبدية على أصالة هويتنا العربية :

إن لغتنا العربية الثرة هي التي أوصلت لنا ولغيرنا هذا المعجم الضخم الذي لم يتم اكتشافه كله بعد،من التراث الحضاري والإنساني .وأوصلتنا إلى خضم محيط لم تُسبَر أعماقه بعد . وهاهي جامعات العالم ، ومراكز البحوث وعلماء الآثار يتسابقون في البحث والتنقيب في كل شبرٍ من وطننا العربي من المحيط إلى الخليج،ومن أعالي الفرات إلى أعالي النيل . هذه هي متاحف العالم تزخر بآثارنا وتتفاخر باحتضانها،وكل يوم تطلع علينا بعرض جديد من مكتشفاتنا ، ولا غلو في ذلك لأن أرضنا العربية هي مهد الحضارات ، وبيت الأنبياء ، وموطن الإلهام الإنساني . هذه هي الحقيقة الساطعة لاغبار عليها . ولندع آثارنا تتكلم وتتكلم،فتروي لنا ولغيرنا ولأجيال العالم قصة الحضارة ، قصة الإنسانية في مهد الحضارةوبيت الإنسانية العتيق في وطننا العربي الكبير .فإهرامات مصر ماتزال شامخة منذ آلاف السنين ، تستقطب أنظار العالم قصيه ودنيه إلى يومنا هذا كشواهد أبدية على عظمة الإنسان العربي في وطنه العربي . وأطلال آكاد وبابل وآشور ونينوى،حيث شعت أقدم مدينة في التاريخ ، ماتزال تستهوي الباحثين وعلماء الآثار من كل معاهد العالم وجامعاته . ومايزال العالم إلى يومنا هذا مديناً في مؤسساته الحقوقية إلى قانون حمورابي العظيم .

إن حمورابي الملك الشهير الذي حكم بابل حوالى ١٩٥٠ قبل الميلاد

ودام حكمه حوالي ٤٣ سنة،والذي عُرِف بملك مناطق العالم الأربع قدوضع نظاماً حقوقياً متكاملاً ، وبنى مؤسسات حقوقية لمملكة عريقة ماتزال سارية حتى يومنا هذا . فقانون حمورابي الشهر الذي صدر منذ أربعة آلاف عام عكس بكل تأكيد المستوى الحضاري الرفيع لشعب عربي مزدهر عريق في الحضارة بنى فأشاد فأبدع ، ودعني أُسهب هنا ...

إن اللوح المصنوع من مادة الديوريت والذي نُقِش عليه قانون حمورابي المكون من مئتي وست وثماني مادة قانونية مُبَوبة ضمن أبواب متناسقة منسجمة ، تماماًكماهي الأنظمة القانونية المعاصرة اليوم ، إن هذا اللوح مازال محفوظاً في متحف اللوفر في باريس ، كما أن جامعة بنيسلفانيا في فيلاديفيا تضم لوحاتٍ من قانون حمورابي ظهرت في الحفريات التي قامت بها الجامعة في نيبور في العراق ، وإن جزءاً آخر من القانون يوجد في المتحف البريطاني في لندن يعود إلى ملك آشور الذي عرف بـ آشور بانيبال في الفترة ٨٦٨ إلى٨٢٦ ق.م . وإن النسخة الأصلية المحفوظة في متحف اللوفر تم اكتشافها من قبل العالم الفرنسي دي مورغان عام ١٩٠٢ بالقرب من مدينة بغداد في معبد مدينة سيبار التي تدعى اليوم بـ أبو حبة .

وما هذا القانون إلا ثمرة لمآثر حقوقية سالفة كانت سائدة لدى هذا الشعب ، وهو يرينا مؤسسات حقوقية هي في منتهى التطور . فهو يقر مثلاً بحقوق المالك ، ويحمي هذه الحقوق وهو ينظم الأصول والإجراءات القضائية ، كما ينظم عقود البيع والوديعة والقرض وإجارة الأشياء وإجارة

الخدمات . وينظم كذلك عقود العمل في الإستصناع وعقود المشاريع والتدريب في المهن ، وينظم الرق والتبني والمؤسسات الأسروية والإرثية وطرق الإثبات القضائية،ويبحث في العقوبات بالنسبة للجنايات والجنح وفي المسؤوليات في الحوادث ، كما ينظم التقادم القضائي ويتناول السرقة العادية والسرقة الموصوفة باستعمال الكسر والخلع ، ونظام الإقطاعات أو الأراضي المخصصة للجند ورجال الدولة ، وعقد المزارعة والسقاية والقرض والرهن والأضرار التي يسببها أحدهم للزرع عن قصد أو إهمال،وتحويل الأراضي البور إلى مشجرة ، كما يتناول قانون حمورابي القرض بفائدة والشركة بالمحاصة ، وتَعسّف الدائن في سلطته تجاه مَدينه ، والوديعة والجروح ومسؤولية حارس الأشياء وحارس الحيوان عن الأضرار، ونظام الإرتفاقات واستثمار الأراضي بواسطة المزارعين أو الأجراء ، واستثمار السفن وإيجار الخدمات ووضع الأطباء والمهندسين وإلى غير ذلك من الأنظمة الحقوقية التي مازال معمولاً بها إلى يومنا هذا ، والتي رُتّبت ترتيباً يكاد يكون كاملاً ، وهي في جموعها لاتقل عن شريعة أية دولة أوربية حديثة بل هي أم الشرائع قاطبة . إن شريعة حمورابي كانت قدوة في السمو والترفع عن كل أنانية ، وهي تُلقي الضوء على جوهر البابلي ، وهوية الإنسان العربي القديم الذي كان ومازال ذا روحٍ صافية ونفسٍ سامية،أحسَّ فأرهف ، وفكَّر فسما ، وحقق أجمل معاني الخير في أجمل مثال قدمه عن الإله الذي آمن به. إله حمورابي ليس مثل يهوه رب الجنود اليهود وحدهم ؛ بل هو لكل بني البشر دون تمييز ، وهو يسكن في قرارة نفس الإنسان ويمسك بيد الضعيف

ويلهم الملوك والقادة في إقامة العدل على الأرض . لقد وصف حمورابي شريعته فقال :

«أنا حمورابي نادتني الآلهة لأمنع الأقوياء عن ظلم الضعفاء ، وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق . أنا حمورابي الذي جاد بالخير والخصب والذي أعان شعبه في وقت المحنة وأَمَّن الناس على أملاكهم . أنا الحاكم الحفيظ عليها . في قلبي حملت أهل سومر وآكاد،وبحكمتي قيدتهم حتى لايظلم الأقوياء الضعفاء،وحتى ينال العدالة الأرملة واليتيم .. فليأتِ كل إنسان مظلوم له قضية إليّ ويقف أمام صورتي وليقرأ النقش المحفور على قبري فينادي : حقاً إن حمورابي حاكم كالوالد الحق لشعبه جاء بالرخاء مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة العدل والضعفاء » (انظر المؤسسات الحقوقية في بابل . د. شفيق الجراح مقرر كلية لحقوق جامعة دمشق طبعة ١٩٨٥) .

وليس هذا وحسب . إن أجدادنا العرب البابليين هم أول من استحدث للعالم هندسة القناطر والأقبية والعربة ذات العجلات،ونظام للمكاييل والموازين والمقاييس،فجاء قانون حمورابي ليلبِّي متطلبات تلك الحياة المتطورة والعريقة في الحضارة ، ويعكس التنظيم الحقوقي الدقيق والرفيع لأول مجتمع أرسى دعائم الحضارة الإنسانية في المعمورة .

كما أن أجدادنا الفينيقيين والآراميين واليمنيين والمصريين القدماء لم يكونوا - كما بيَّنا وبرهنا - يشكل كل منهم عرقاً أو شعباً خاصاً مميزاً، بل كان كل منهم يشكل امتداداً طبيعياً بشرياً وحضارياً للآخر ، وتجسَّد ذلك

في وحدة الأصول اللغوية،والنظرة إلى الآلهة،والتمازج والتشابه الحضاري ، وانتقال السيادة والسيطرة على المنطقة من مركز للآخر، فتارةً كانت بابل تسيطر على وادي النيل ،وتارةً أخرى كنا نجد ملوك مصر وادي النيل يبسطون سلطانهم على شريط عريضٍ من الأرض العربية من أعالي النيل وإلى أعالي الفرات في بابل .

وشاركوا جميعاً في وضع هذا التراث الخالد والسجل البراق من ميراثنا الحضاري والثقافي القومي والإنساني في نفس الوقت .

لقد وضع أجدادنا في وادي النيل الكثير من العناصر الأساسية في المدنية الإنسانية ، فكانوا أول من شيّد الأبنية الحجرية ، وأنشأوا التقويم الشمسي ، وآمنوا بالله وتاقت نفوسهم حيرةً وتفكيراً في البحث عن الإله ، فآمنوا بالثواب والعقاب ، وقالوا بوجود دار للعقاب ودار للثواب،وأن النفس تحاكم بعد الموت ، وتوزن هي وأعمالها،فإما أن تُلقى في دار العقاب حيث النار والأبالسة،أو تعود طاهرة للحياة من جديد ؛ فكانوا بذلك أول من أوجد فكرة بعث الإنسان في حياة مابعد الموت - تكريماً للإنسان وتمييزاً له عن عالم الحيوان : ولذلك ابتكروا علم التحنيط الذي وصلوا به مستوىً رفيعاً لم يصله غيرهم حتى يومنا هذا - من أجل حفظ الأجساد بعد انفصالها عن الأرواح ، لاعتقادهم بفكرة عودة الروح إليها ، ولذا شيّدوا أهراماتهم العملاقة وجعلوها قبوراً تُحفظ فيها الأجساد،يتركون فيها مايحتاج إليه الدفين من مفاخر الطعام والشراب واللباس بعد عودة الحياة إليه . (انظر د. أحمد سوسة ص٤٠٢ العرب واليهود في التاريخ) .

وإذا كان أجدادنا العرب في بابل وفي وادي النيل قد أرسوا دعائم الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ الإنساني ؛ فإن أجدادنا الفينيقيين كانوا قد انتقلوا بالحضارة الإنسانية إلى أوجها الرفيع،إذ كانت أبجديتهم والتي ماتزال تُعرف باسمهم وباللفظ الذي وضعوه (ألف - باء أو ألفا - بت في اللاتينية) أعظم اختراع عرفته البشرية حتى يومنا هذا .

ومن الثابت في التاريخ أن لفظ «فونويكي أو الفينيقيون » هي التسمية الإغريقية لأجدادنا في الساحل السوري . وأن هذا اللفظ يعني بالعربية دلالةً بـ « بني الأحمر » وذلك نظراً لكون أجدادنا في الساحل السوري هم أول من عرف الصباغ الأحمر اللون واستخدموا الآجر القرميدي الأحمر وتاجروا بذلك مع بلاد الإغريق .

على أن الفينيقيين لم يبنوا امبراطورية لهم على غرار الإمبراطوريات أو الممالك التي عرفت في بابل ووادي النيل ؛ بل بنوا لهم مدناً بحرية متطورة تناثرت على شكل قلاع شامخة في حوض المتوسط هنا وهناك ، وأسسوا بذلك نظاماً خاصاً بهم ؛ نظام الدولة ـ المدينة .

وضمن هذا الإطار أسسوا مدناً -دولاً بحرية متطورة ماتزال قلاعها ماثلةً للعيان حتى يومنا هذا،رغم فعل أعاصير الطبيعة ومرورآلاف السنين.

وإن قلعة رأس شمرا " أوغاريت " التي تمتد بصخورها العملاقة وأقواسها المزخرفة وأبراجها الشاهقة وأنفاقها البديعة لتلامس بأقدامها صخور بحر المتوسط شمال اللاذقية بعشرة كيلومترات ؛ كذلك قلعة جزيرة أرواد التي مازالت موضع دراسة واهتمام الباحثىن في العالم ، مع الإشارة إلى أن

. . . كل صخرة من صخور هذه القلعة ، كما هو سور هذه الجزيرة العريقة في القدم والحضارة،والمبنية وسط البحر قبالة شاطئ طرطوس ، تزن بمايقدر بعشرين طناً ، تَمَّ جلبها من الساحل السوري ، ومنذ حوالي أربعة آلاف عام على الأقل .

هذا ومن الجدير ذكره أنه ماتزال ترقد حتى اليوم القساطل الفخارية في قاع البحر بين شاطئ طرطوس على الساحل السوري وجزيرة أرواد ، والتي كان الفينيقيون خلالها يقومون بجر المياه العذبة من نهر الغرفة في الطرف الجنوبي من طرطوس إلى جزيرة أرواد،ومنذ أربعة آلاف عام على الأقل ! فأية مدينة تلك التي أشادها أجدادنا الفينيقيون ؟ .

. . . في الوقت الذي تعجز عن مثله الدول المتحضرة اليوم .

وكما أرسى أجدادنا الكنعانيون السواحل دعائم العلم والمعرفة بوضعهم أول أبحدية في التاريخ ؛ كذلك كانوا أول من ركب البحار والمحيطات وأرسى فن الملاحة البحرية في العالم ، فنقلوا إلى حيث أبحروا اسمهم وحضارتهم وأبجديتهم وتراثهم الرفيع ، وتركوا بصماتهم ظاهرة جليةً في صرح المدينة الإنسانية وكانوا روادها الأوائل ؛ ولذلك كان الإغريق يطلقون عليهم اسم :

« (السادة المعلمون ؛ أبناء الآلهة) .

لقد أبحروا إلى المحيط الأطلسي من مضيق جبل طارق ، وحول إفريقيا من ميناء عصيون على البحر الأحمر ووصلوا إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبس بما يزيد عن ألفي عام على الأقل ، كما داروا حول

رأس الرجاء الصالح قبل البرتغاليين بأكثر من ذلك أيضاً،وهو ما أكده العديد من الباحثين و المؤرخين ورجال الآثار في العالم بالاعتماد على دلائل مادية محسوسة،وماعثروا عليه من أدوات ونقوش وقطع نقود ورسوم على الشواطئ الأمريكية وغيرها تحمل الطابع العربي الكنعاني القديم الذي حمله أجدادنا الفينيقيون إلى العالم البعيد منذ التاريخ الموغل في القدم .

لقد سيطر أجدادنا الفينيقيون،ومنذ الألف الثانية قبل الميلاد،سيطرة شبه كاملة على منافذ البحر المتوسط شرقه وغربه وشماله وجنوبه ، وبنوا نظام الدول - القلاع هنا وهناك . ولما كانت دولة رأس شمرا (أوغاريت) ودولة أرواد وصور ، وصيدا،تشكل البوابات الشرقية للمتوسط كانت أيضاً دولة قرطاجة الفينيقية التي أسَّسها تجار صور عام ٨٤٦ ق.م هي البوابة الغربية لحوض المتوسط (انظر تاريخ فلسطين القديم - عبد الحكيم ذا النون ص٤١) .

وعندما تأسست امبراطورية روما وازدهرت،أقامت علاقات تجارية وثقافية مع دولة قرطاجة وأفادت من ذلك كثيراً . ولكن الإمبراطورية الرومانية المتطلعة إلى السيطرة على المتوسط اصطدمت بشكل عنيف مع الوجود الفينيقي في قرطاجة فيما بعد . وقد استمرت الحروب بين روما وقرطاجة مئات السنين قبل أن تتمكن روما من السيطرة على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م بعد معارك ضارية قدم فيها القرطاجيون ملاحم بطولية رائعة مازالت موضع إكبار مؤرخي العالم وإعجابهم .

وكما يؤكد المؤرخون أن نساء قرطاجة قمن بقص شعورهن وجعلن

منها حبالاً ومَرَساً لسفن أسطول قرطاجة في حروبها مع الرومان ، الذين لم يتمكنوا من الانتصار على دولة قرطاجة إلا بعد معارك ضارية ، وبعد اتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية وامتلاكها لطاقات مادية وحربية هائلة زجتها في المعركة ؛ في الوقت الذي كانت فيه المدن - الدول القلاع الفينيقية مبعثرة ؛ متناهرة هنا ، وهناك،كل منها على حدة .

هذا وقد عثر على رسوم ونقوش للسفن الفينيقية القديمة والمعارك البحرية على كثير من الأواني الخزفية والجرار والمعابد في آثار رأس شمرا ، وقلعة أرواد ، وآثار المصريين القدماء ، كما على الساحل الأمريكي نفسه وشواطئ إفريقيا الجنوبية وحتى شواطئ الهند !

ولقد أرسل ملك مصر رمسيس الثاني (١٣٠٠ - ١٢٣٣ ق.م) أسطولاً مشتركاً من الفينيقيين والمصريين بقوام ٤٠٠ سفينة - وهذا مايؤكد أيضاً وحدة أصول أقوام الوطن العربي منذ القدم - من البحر الأحمر إلى الخليج العربي ، ثم تابع فوصل منطقة نهر الغانج بالهند حيث استمر الوجود المصري الفينيقي فيها طيلة وجود حكم الفراعنة لمصر ، الأمر الذي نلمسه في إحداث منصب خاص في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد في مصر وهو منصب (قائد البحر الأحمر والبحر الهندي) .

(انظر كتاب البحرية في مصر الإسلامية . دكتورة سعاد ماهر - القاهرة ص٤٥) .

ومن الجدير ذكره أن المصريين القدماء في وادي النيل كانوا أول من ابتكر شق القنوات الاصطناعية لأغراض ملاحية ، وقاموا لهذا الغرض

بوصل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط مع بعضهما وذلك بحفر قناة وادي الطميلات التي وصلت نهر النيل بالبحر الأحمر وذلك في عهد الملكة الفرعونية حتشبسوت ؛ هذه القناة التي أعاد الخليفة عمر بن الخطاب عام ٦٤١م شقها من أجل شحن المؤن والقمح من وادي النيل إلى ميناء الجار على ساحل البحر الأحمر ، الواقع قبالة المدينة المنورة في الجزيرة العربية . هذا مع العرض أن الخليفة عمر بن الخطاب رفض عرضاً لوالي مصر عمرو بن العاص في السماح له في حفر قناة من بحيرة التمساح إلى البحر المتوسط ، على غرار قناة السويس تماماً اليوم وذلك قبل فرديناند دولسبس بأكثر من ألف عام ؛ وكان لرفض الخليفة عمر لهذا المشروع مايبرره من أجل حماية مصر ، والجزيرة العربية معاً من هجمات أساطيل الروم في فترة قيام الدولة الإسلامية الغنية آنذاك .

وكما أبدع أجدادنا الفينيقيون والمصريون القدماء في فن الملاحة البحرية وجابوا البحار والمحيطات وصولاً إلى مشارق الأرض ومغاربها ، كذلك أيضاً أشقاؤهم في اليمن السعيد . السبئيون والحميريون كانوا ملاّحين مهرة يعتمدون في الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي على حركة الرياح الموسمية ، ويُسَيّرون سفنهم حسب أوقات حركتها التي تتبدل حسب المواسم تبدلاً تاماً حيث احتفظوا لأنفسهم بمواعيد هذه الرياح واعتبروا ذلك سراً بهم مما ساعدهم على ازدهار تجارتهم مع الهند لأمدٍ طويل .

هذا ومازال ذكر سدّ مأرب العظيم في اليمن يعتبر من أعاجيب العالم القديم وقد أخذ شكله النهائي في عهد ملك سبأ شمر يرعش حوالي ٣٠٠ ق.م .

وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة سبأ بقوله تعالى :

« لَقَدْ كانَ لِسَبأٍ في مَسْكَنِهِم آيةٌ جَنَّتانِ عَن يمينٍ وَشِمالٍ، كُلُوا مِنْ رِزقِ رَبِّكُمْ وَاشكرُوا لهُ بَلدةٌ طَيِّبةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ». صدق الله العظيم.

ويورد لنا ياقوت الحموي - في مجلده معجم البلدان - وصفاً حسياً بديعاً لقصر غمدان في صنعاء الذي كان مقر الملك الحميري اليشرحا،فيقول أنه (كان مكوناً من عشرين طبقة مسقوفة بعضها فوق بعض ، وبين كل منها عشرة أذرع ، والبناء مصنوع من الجرانيت والمرمر . وكان مجلس الملك صاحب القصر في الطبقة العليا التي كان سقفها من رخامة واحدة شفّافة يمر فوقها الطائر والملك على فراشه فيعرف أغُرابٌ هو أم حدأة أم غير ذلك من الطيور . وفي كل ركنٍ من أركان القصر كان يرقد أسدٌ مصنوع من النحاس، إذا هبت الريح ومرت في أجواف تلك الأسود أحدثت زئيراً كزئير الأسد في الغابة) .

وفي تل مرديخ في محافظة إدلب في سوريا ، حيث قامت بعثة أثرية إيطالية برئاسة عالم الآثار الإيطالي باولوماتييه،بالاشتراك مع علماء الآثار السوريين،بالتحريات العملية في هذا التل منذ العام ١٩٦٤م .وفي العام ١٩٦٨م تبين من خلال التنقيبات الجارية في هذا التل أنه مدينة إيبلا العظيمة الوارد ذكرها في وثائق مدينة أور جنوب العراق ، وأن أصل هذه التسمية في رأي اللغويين مستمد من كلمة "عبلة " وتعني لغة الصخرة البيضاء في أرض سوداء ، وهو ما ينطبق على الواقع التضاريسي لموقع

هذه المدينة التاريخية في تل مرديخ .

وفي شهر تشرين أول ١٩٧٥م فوجئ المنقّبون بالعثور على المكتبة الملكية التي تحوي على آلاف الرُقُم الفخارية المسمارية والتي بلغ عددها نحو ١٦٥٠٠ وثيقة رقمية،حيث يؤكد رئيس البعثة الإيطالية ماتييه أهميتها بقوله :

« إنها تضيف صفحة ناصعة للغاية إلى تاريخ سورية وحضارتها في فترة سحيقة في القدم حيث كانت مملكة إيبلا بين عام ٢٤٠٠ و ٢٢٥٠ ق.م مركزاً لقوة كبرى هيمنت فترة طويلة من الألف الثالث قبل الميلاد على آسيا الصغرى ، وإن دولة آكاد العظمى قد اضطرت يوماً إلى دفع الجزية إلى ملوك إيبلا » (انظر كتاب وثائق إيبلا - ص٢٩ - تأليف د. عفيف بهنسي دمشق ١٩٨٤) . وقد تبين من خلال دراسة هذا الميراث والكنز التاريخي الكبيرمن المحفوظات و الوثائق أنه كتب بلهجة سميت اصطلاحاً بـ الإيبلائية الشبيهة بالسومرية،والآكادية من لهجات اللغة العربية الأم التي خرجت من شبه جزيرة العرب والتي تفرعت منها سائر اللهجات الأخرى من سريانية وآرامية وسبئية وفرعونية وفينيقية وغيرها .

وقد احتوت هذه النصوص على قصة الخلق والتكوين والطوفان وظهور أسماء عالم مثل " إيبريوم (ابراهيم) - اشمع إيل (اسماعيل) ، ميكاإيل ، بشرا إيل (اسرائيل)" وغيرها،هذا بالإضافة إلى نصوص إدارية وأدبية وقضائية ودينية واقتصادية وتجارية وعسكرية على غرار ماورد في قانون حمورابي - والتي تدل على مستوى حضاري متقدم تميزت به هذه

الإمبراطورية العربية العريقة في الألف الثالث قبل الميلاد . كما تبين من النصوص والرسوم والنقوش أن ملوك إيبلا كانوا يمسحون بالزيت تماماً كما نسب اليهود ذلك في توراتهم إلى شاوول وداوود وسليمان . إن ورود ذلك في وثائق إيبلا بالإضافة إلى ورود أسماء الأشخاص مقرونة أغلبها باسم الإله « إيل » أي الله،تبركاً وتيمناً به .. كل ذلك منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، في الوقت الذي يجمع فيه المؤروخون والباحثون أن شخصية موسى تعود إلى الألف الأولى قبل الميلاد ، وأن توراتهم وُضِعت ونُسِجت في القرن السادس قبل الميلاد وفيما بعد .. الأمر الذي لايترك شكاً لكل ذي بصيرة أن ماورد في توارتهم من قصص الخلق والتكوين وطوفان نوح ، ومّما جعلهم به يتبجحون،في أن تورراتهم هي أم الديانات السماوية .. كل ذلك يجزم يقيناً أن هذه القصص الواردة في توراتهم أيضاً إنما هي تراث غربي مسروق برمته ، تشهد على ذلك آثار إيبلا وأوغاريت وبابل وآكاد وغيرها،وغيرها، مما يتكشف لنا ولغيرنا من المواقع الأثرية في كل يوم من أرضنا الحضارية المعطاء ! وبهذا الصدد،صرّح الدكتور بيغتر عالم الآشوريات في معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو :

« أعتقد أن عقد مقارنات بين التوراة وألواح إيبلا أمر من المحال . فالأشخاص الذين يتطلعون إلى ألواح إيبلا بحثاً عن برهان على مصداقية ماورد في التوراة سيصابون بخيبة أمل » (انظر كتاب وثائق إيبلا ص ٧٠).

كما يؤكد هذه الحقيقة الساطعة العديد من الباحثين وعلماء الآثار في العالم ، ومنهم عالم الآثار أو لبرايت في كتابه (الشعب اليهودي قديماً

وحديثاً) حيث ورد في جزئه الأول صفحة ٢٩ قول مؤلفه :

(لقد أصبح مؤكداً الآن أن القصص اليهودية المتعلقة بالخليقة وجنة عدن ، وطوفان نوح مأخوذة تماماً من السومريين والبابليين والآكاديين والعموريين) ! وهو نفسه أيضاً ما أكده عالم الآثار البريطاني إدوارد كييرا في مؤلفه (كتبوا على الطين،في الصفحة ١٥١) .

أما آثارنا العربية الحضارية في فلسطين ؛ في هذا الجزء الجنوبي من سوريا،فهي كثيرة وكثيرة جداً . ففي عام ١٩٤٤م نشرت صحيفة الوقائع الفلسطينية الناطقة باسم سلطات الإنتداب البريطاني آنذاك ، أنه يوجد في فلسطين أكثر من ٢٨٦٧ موقعاً أثرياً وتاريخياً مسجلاً ؛ وهذا دليل على كثرة المواقع الأثرية العربية فوق أرضنا العريقة في الحضارة المدنية .

وبعد قيام الكيان الإستيطاني العدواني " إسرائيل " دأب قادة الصهيونية العالمية ورجالات آثارها المزعومة ، عبثاً،في التنقيب عن بقايا مملكة يهوذا واسرائيل وهيكل سليمان من أجل الحصول على أي أثر مهما صغر لينسجوا حوله القصص الإسطورية في حقهم التاريخي أو الإلهي في إعادة بناء « مجد دولة اسرائيل من الفرات إلى النيل » .

ومع أن قادة الموسسة الإستيطانية " اسرائيل " وحاخاماتها من موشي دايان إلى مناحيم بيغن واسحق شامير وغولدامايير وشارون والحاخام كاهانا وغيرهم،قد وضعوا كافة إمكانيات المؤسسة الصهيونية في البحث والتنقيب وفي كل مكان من فلسطين المحتلة ، في أريحا ، والقدس،وتحت وحول المسجد الأقصى،وفي غزة وسيناء والجليل والنقب ! بل إن موشي دايان،لص

لصوص الآثار في العالم،كان يقوم بنفسه ومعه جنود جيش الإحتلال والعدوان بالبحث والتنقيب والحفريات ، حتى كاد في إحدى المرات أن يُدفَن تماماً إثر انهيار أحد الأنفاق عليه .. ومع كل ذلك حنيت مزاعم المؤسسة الصهيونية بخيبة الأمل ، ولم يعثروا على أي أثرٍ على وجودهم التوراتي الزائف في فلسطين ، ولا على أي شيء مما نسجوا حوله الخيال والأسطورة من هيكل سليمان داوود ! كل ذلك دفع بحاخامات اسرائيل أن يرسلوا صيحات الإستغاثة ويطلبوا من الحكومة التوقف عن البحث عن آثارهم المزعومة التي لا أساس لها وذلك بقولهم :

(إن مكان الحفريات هو قبور ملوك اليهود ، وهي مقدسة ولايجوز العبث بها) . وبهذا الصدد كتبت مجلة تايم الأمريكية تقول :

(بعدما يقرب من عشر سنوات من الحفريات الأثرية في مدينة غزة، لم يجد المنقّبنون الإسرائيليون سوى بقايا آثار المجتمع المصري الفرعوني سكان وادي النيل) .

(انظر كتاب آثار فلسطين ص١٦٦ تأليف حسين حمادة دمشق ١٩٨٣)

إن ماورد أعلاه هو غيض من فيض مما أظهرته بعض المكتشفات الأثرية فوق أرضنا العربية التي هي بحق مهد الحضارات،وليس ملتقاها كما روج له البعض عن قصد أو غير ذي قصد . هذا ناهيك عن العديد العديد من مدننا وتلالنا ومكتشفاتنا الأثرية التي لاتتسع لنا هذه العجالة للحديث عنها مفصلاً،ومنها مكتشفات أور في العراق وماري وأوغاريت ، وتدمر وبصرى وشهبا وجبلة ودمشق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بـ "إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد " ، وتل العمارنة في مصر وادي النيل، وغيرها وغيرها التي تفاجئنا كل يوم بكنوز أثرية ثرّة تبرهن على عراقة حضارتنا وأصالتها وغناها ورقيها من جهة ؛ وعلى مدى رسوخ هويتنا العربية وطابعها الإنساني الرفيع في أرضنا العربية من جهة أخرى .

كل ذلك مما يسلّط الأضواء الساطعة على مدى ماأُلصِق بتاريخنا من زيف وهشاشة وأوهام توراتية واستعمارية صهونية حاقدة ، أقحمها الحاقدون على اختلاف مشاربهم ومعهم حاخامات اليهودية في فترات متلاحقة من تاريخنا في محاولة إيجاد تاريخ أسطوري دخيل لمن سُمّوا باليهود الذين لم يشكلوا سوى فئة دينية مختلفة عقلياً ومنزوية على نفسها ، تميزت بالحقد والغدر والفوقية العنصرية ، مما عرضها للغزو والسبي والتشرد،فأوحى ذلك لقرائح كهنتهم المريضة أن يفرغوا أحقادهم الدفينة ويصوروا من نسج خيالهم تراث ماضٍ ضائع تليد ، تعويضاً عن مركب النقص وعقدة الذنب منهم، فدَوّنوا ما راق لهم من تراث حضارتنا ونسبوه لهم ، وبنوا من بنات أفكارهم

أمجاداً وممالك زائفة لاوجود لها إطلاقاً ، وصنعوا أبطالاً أسطوريين من قوادهم القتلة اللصوص في توراتهم المنسوبة إلى موسى زوراً عليه وافتراءً بغيضاً به،والتي تنضح بعقيدة القتل والغدر وشريعة الغاب وروائح دخان الحرائق والدم والدمار،بالإضافة إلى ماسرقوه من تراثنا العربي القديم من قصص الخلق والجنة والطوفان حيث وضعوه ونقلوه في وعاء توراتي عنصري آسن خبيث وفق اهوائهم ، زاعمين انهم اصحاب دين سماوي ، مقدس !! وأنه أم الديانات قاطبة!! ثم عمدوا بعد ذلك ومعهم المستشرقون المغرضون إلى تدوين تاريخنا وتلفيقه بما يخدم مخططاتهم الاستعمارية في الغزو والنهب والعدوان .

لكن نتائج المكتشفات الأثرية بآثارها المادية الملموسة ، وقلاعها الشامخة وأطلال تلالها الجاثمة عليها،نَسَفت كل أساطير وإدعاءات التوراتيين والإستعماريين كافة ، وأظهرت أنه لاأثر لممالكهم المزعومة ، وهياكلهم المنسوجة من خيوط العنكبوت ؛ وإن صحَّ وجود يهودي في غابر الأزمان فهو لم يتعدى اعتناق فئاتٍ قليلة من سكان منطقتنا العربية للعقيدة اليهودية المتحجرة ، والذين سُموا باليهود ، والذين لاصلة لهم إطلاقاً بيهود أوربا وأمريكا والكيان الإستيطاني الصهيوني اليوم،فأولئك اليهود القدماء من سكان منطقتنا - كما سنرى ذلك في فصل لاحق - قد انقرضوا وبادوا تماماً بسبب شذوذهم الأخلاقي والمعاشي وتخلفهم الحضاري ولم يبق منهم سوى الخرافات والروايات الخرقاء الملفقة .

العرب والعروبة أصل ثابت في جذور التاريخ الإنساني :

وإذا لم يسجل أجدادنا العظا م- البناة الأُول للحضارة الإنسانية - في بابل وآكاد ودمشق ووادي النيل ؛ في أوغاريت وصيدون وقرطاجة ، في البتراء ، وصنعاء ومأرب . إذا لم يسجل هؤلاء الأجداد لنا في مُدوناتهم انتماءهم العربي الصريح ، ولم يُطلقوا على ممالكهم ودولهم العظمى التي أشادوا فيها صرح حضارتهم منذ فجر التاريخ الإنساني نعت العروبة صراحةً فماذلك لعدم اكتراثهم بعروبتهم ، بل لأن ممالكهم ودولهم كانت هي الوحيدة القائمة،أو قُلْ،هي الغالبة في الكون آنذاك،سواء في وادي النيل وحتى الأطلسي أو في شبه جزيرة العرب وحتى الخليج وبحر العرب .

لقد كانت العروبة دماً يسري في عروقهم ، وواقعاً يحيونه في معاشهم ، وحياةً ثابتة في كيانهم ؛ مثلها مثل الهواء الذي يستنشقونه ، والماء الفرات الذي شربون منه . ولقد كانت العروبة واقعاً ملموساً تأصل في أسلافنا منذ القدم السحيق في لغتهم العربية الأم - وإذا اختلفت لهجاتها - وفي معاشهم المشترك وتراثهم الثقافي المتماثل ونظرتهم إلى الأرض والسماء، وإن تباعدت إقامتهم من الخليج شرقاً وإلى الأطلسي غرباً . لقد كانت حركتهم حرةً طليقةً في وطنهم الكبير دونما شعورٍ بالغربة أو بالحاجة إلى مترجم وسيط للتفاهم مع بعضهم ؛ ودونما أن يطلب منهم إبراز مايثبت هويتهم القومية العرب .. لم يكن تنافسهم وصراعهم ، مذ عرفهم التاريخ قائماً مع وجود أجنبي - كالذي يغشه اليوم مع كيان استيطاني صهيوني

دخيل . بل كان صراعاً وتنافساً حضارياً مع بعضهم البعض ، وفي أرضهم الواحدة وإن تباعدت أطرافها ، واتسعت رقعتها . لقد اكتسب تنافسهم طابعاً حضارياً ، واتّسم بنزعةٍ أسروية قبلية في مَنْ تكن السيادة على مَنّ ؟

فتارةً نجد ملوك وادي النيل يَبسِطون سيادة عروشم على آكاد وبابل وشبه جزيرة العرب بما فيها فلسطين كما حدث ذلك في فترة حكم رمسيس الثاني حتى عام ٦٠٨ قبل الميلاد،وتارة أخرى نجد ملوك آكاد وبابل يمدون سلطانهم إلى ودي النيل كما في فترة حكم الكلدانيين ومنذ عام ٦٠٥ ق.م حيث أضحت مصر تحت سلطة آكاد وبابل ولقرون عديدة بعدها .

وهذه الظاهرة نفسها - أي في عدمالتصريح على الدولة والسلطة بنص العروبة والعربية - بل بالاكتفاء بما يشير إلى الطابع الأسروي للسلطة الحاكمة ، نجدها قد انسحبت معهم منذ القدم السحيق وحتى امتداد الدولة العربية في صدر الإسلام ومابعده . لم يُطلِقوا على أنفسهم وهم في أوج قوتهم وازدهار حضارتهم في بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وغرناطة وقرطبة بأنهم عرباً ؛ بل إن مؤرخي العالم من حولهم هم الذين أطلقوا عليهم لفظ (العرب ؛والحضارة العربية ؛ وأبناء العربية) ، وهم الذين قالوا فيهم: (ماعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) .

ولما حمل العرب راية الإسلام العظيم إلى العالم رسالةً إنسانية حضارية ، كان الطابع القومي لديهم يذوب تماماً في النزعة الإنسانية والتوجه الأُممي . لقد دعا العرب المسلمون في صدر الإسلام إلى بناء صرح دولة عالمية تعم الكون كله تحت ظل الرسالة الإنسانية التي انطلقوا بها ،

وإقامة مجتمعٍ إنساني جديد ينتفي فيه الظلم بكافة أشكاله ، ويخيّم عليه السلام بدون قهر ؛ ولذلك أطلقوا على دولتهم المنشودة اسم « دار السلام » وذلك في مواجهة " دار الحرب " لدى مخالفيهم في الشرق والغرب . وليس من قبيل المصادفة أن تتطابق لديهم كلمة (عربي ، وعرب) مع كلمة (مسلم وإسلام) . فنجد مثلاً أحد ولاة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يسأله وقف قبول الناس في مصر في الدين الجديد خوفاً من تناقص مال الخزينة بقوله في رسالةٍ إليه :

(ممن نأخذ الخراج والجزية وقد أصبح كل الناس عرباً-أي مسلمين؟)

فيرد عليه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز مقرعاً وغاضباً :

« ويحك إن الله بعث محمداً نبيه هادياً ، ولم يبعثه جابياً ! » .

(انظر تاريخ صدر الإسلام.دكتور عمر فروخ-بيروت -١٩٨٣-ص١٧١).

مازلنا نحن اليوم في مدارسنا وجامعاتنا وكتبنا الوطنية أمام ناشئتنا نطلق على تاريخنا العربي الألفاظ الأسروية والقبلية نفسها التي كانت سائدةً لردحٍ طويل من الزمن ، فنقول بـ الخلافة الأموية ، والعباسية ، والفاطمية والعصر الأيوبي ، والمملوكي ؛ والدولة الكلدانية ، والآشورية والفرعونية ، والفينيقية وإلى آخر هذه التسميات ..

دون أن نبرز أو حتى نشير إلى " لفظ العروبة فيهم أو ثبوت الهوية العربية في دولهم وعصورهم " ، بينما نجد مؤرخي الغرب ومستشرقيه . . . . . يُطلقون على مراحل تاريخنا مسمّيات مثل " الخلافة العربية ؛ والحضارة العربية ؛ والعرب المسلمون " وذلك في مؤلفاتهم التاريخية

وجامعاتهم ، في الوقت الذي نحن فيه اليوم بأمسّ الحاجة إلى أبراز هويتنا العربية وتثبيت وجودنا القومي ، وشدّ حبل عروبتنا أمام واقع هذا الاجتياح السرطاني الصهيوني الذي انتقل مع مطلع التسعينات إلى مرحلته العليا في تهجير اليهود السوفيت وكافة يهود العالم من أوطانهم وغرسهم كأسراب الجراد الهائمة على وجهها في ربوع أرضنا العربية الخضراء ؛ هذا الإجتياح الذي فاق في همجيته وحقده والإعداد الطويل له،كافة ما تعرضت له أرضنا العربية من قبل على يد المغول والتتار والصليبيين ، والذي يستهدف أولاً وقبل كل شيء استلاب هويتنا العربية ، وتذويب وجودنا القومي وتفتيت إرادتنا العربية ، وطمس كل معالم وجودنا الحضاري والإنساني .

ومع أنه لم تكن حاجة لدى أجدادنا وأسلافنا لإبراز هويتهم العربية ، كتلك التي نواجهها نحن اليوم ؛ ومع ذلك،فإننا نجد لديهم كلمة " عرب ، ولفظ العروبة " يتكرر لديهم هنا وهناك بشكل أو بآخر فيما تركوه لنا ، وللأجيال المتعاقبة من بعدهم من مدوّنات ، ونقوش أثرية خالدة على مر الزمن . وهذا إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على مدى أصالة العروبة والإنسانية معاً في ذاتهم العربية التي ذابت تماماً في ذاتهم الحضارية والإنسانية . فنجد أول ذكر للفظ " عرب " صراحةً،ورد في ذكر اسم " يعرب بن قحطان " أبو اليمن وذلك منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، الذي يقول عنه النسابون العرب بأنه جد العرب العاربة أو جد عرب الجنوب.

(انظر تاريخ العرب القديم - دكتور نبيه عاقل ص٤٦ - دمشق)

ونسب قحطان كما ذكر النسّابون،متصل بسام بن نوح عليه السلام ، وإنه،أي قحطان،اتخذ مدينة صنعاء في اليمن حاضرةً له ، ولبس تاج الملك منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، ومن أحفاده عبد شمس الملقب بسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإن سبأ هو أب حمير وكهلان الفرعان الرئيسيان لعرب الجنوب (انظر د. نبيه عاقل ص٧٥) .

وفي الوقت الذي يؤكد فيه النسّابون العرب على صلة نسب يعرب بن قحطان جد عرب الجنوب (أو العرب العاربة) ، وصلة نسب ابراهيم الخليل جد عرب الشمال (أو العرب المستعربة) بـ سام بن نوح ؛ فإنني لا أجد في ذلك قيمة تاريخية أو دلالة عرقية لأصولنا العربية،لأن العرب والعروبة ، كما أوردت أصلٌ ثابتٌ وراسخ وسابقٌ لسام وأبيه نوح،أي أن العروبة سابقةٌ للسامية وهي أصلٌ لها وليست فرعاً منها؛هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فإن سام وحام ويافث أولاد نوح لم يكن يشكل كل منهم عرقاً مميزاً أو أصلاً لسلالة خاصة متميزة بين بني البشر كما يزعم التوراتيون ، والعنصريون الصهاينة ، طالما أنهم إخوة من أبٍ واحد هو نوح عليه السلام .

وليس من قبيل المصادفة لدينا كما لدى غيرنا من الشعوب إطلاقاً لفظ (إنهم إخوة ؛ أو قل كأنهم إخوة) وذلك للدلالة على التشابه والتماثل بين شخصٍ وآخر ؛ فكيف لنا أن نتصور أن أبناء نوح وهم سام وحام ويافث-إن صحت تسميتهم-أن يشكل كل منهم أصلاً لسلالةٍ متميزة عرقية خاصة تختلف عن سلالة أخيه وهم أخوة متماثلون متشابهون،ويجب أن يكونوا كذلك في علم الأجناس وعلم المنطق .

إن اختلاف البشر في أصقاع العالم بين مشرقه ومغربه ؛ وشماله وجنوبه ، في سِحنتهم وألوان بشرتهم وملامحهم ،لا أعتقد أن ذلك ناجمٌ عن انتمائهم لسلالات عرقية متميزة في سام أو حام أو يافث ؛ بل مرد ذلك إلى عامل البيئة والتأثير المناخي والجغرافي والشروط الحياتية المؤثرة على الإنسان وكافة مظاهر الحياة الأخرى والتي تختلف من مكان إلى آخر ، ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب في كرتنا الأرضية،والذي قد لا تظهر آثاره على الإنسان في حال تنقله من بيئة مناخية إلى أخرى مباشرة وبسرعةبل تترك آثارها على سحنة الإنسان وملامحه خلال أجيال وعلى امتداد الحياة نفسها ؛ وليس إطلاقاً بسبب وجود السلالة أو السلالات العرقية المتميرة ؛ حيث لاوجود في اعتقادي لسلالة عرقية صافية اليوم ، لاسيما في عصر الاتصال الحضاري السريع ، والتمازج السكاني وسرعة المواصلات والإتصال لسكان عالمنا المعاصر .

أما إبراز صلة نسب يعرب بن قحطان ، وابراهيم الخليل بـ سام بن نوح فما ذلك من قبيل التعصب للسامية أو ضدها ؛ بل من أجل فضح التزوير التاريخي الذي لاسابق له ولامثيل له الذي لحق بتاريخنا على يد حاخامات اليهودية والإستعماريين الذن عملوا جاهدين على قطع صلتنا الحضارية والإنسانية والتاريخية بأرضنا وبتاريخنا السحيق ، في الوقت الذي حاولوا فيه بخبثٍ لا مثيل له صنع تاريخ سامي مزيف لوجودهم الإستيطاني الصهيوني فوق أرضنا،وهم لاتاريخ لهم ولا أصل لهم في هذه الأرض كما سنبين ذلك في فصل لاحق .

ففي لسان العرب لابن منصور في باب كوش ، نجد أن علياً بن أبي طالب ابن عم الرسول محمد(ص)، سُئِل : مَنْ أنتم نسباً ؟ فأجاب :

(نحن قومٌ من نبيط في كوش) .وهذا تأكيد على نسب الرسول محمد (ص) وعلي(ر)إلى ابراهيم الخليل إلى نبيط بن ماش بن آرام بن سام بن نوح.وفي الثابت من الحديث المأثور قوله محمد(ص)أنه قال :

« بأن الله اصطفاني من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفي من ولد اسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم،واصطفاني من بني هاشم » (انظر كتاب محمد رسول الله - دكتور محمد رضا مكتبة الجامعة المصرية القاهرة ١٩٣٥م - ص٢) .

إن النبي العربي محمد (ص) يتصل نسبه بإبراهيم الخليل وبسام بن نوح عليه السلام على النحو التالي : « إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن اسماعيل بن ابراهيم بن آزر بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالج بن ارفكشاد بن سام بن نوح ».

(انظر تاريخ العرب القديم د. نبيه عاقل ص٢١٨ ، ص ٢٢٣) .

هذا مع العلم أن النسّابين العرب لدينا قاموا بالتمييز بين عرب الجنوب الذين يسمونهم بـ العرب العاربة والعرب العرباء (أي شديدي العروبة أو الأكثر عروبة) ومنهم قبائل طيء ومدحج وهمدان وقضاعة وبهراء

وجهينة وتنوخ والأزد ولخم وغسان وكندة،وكلهم فروع من كهلان وحمير، الإبنان لـ سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ؛ مع الإشارة إلى أن قبيلتي الأوس والخزرج اللتين عاصرهما الرسول محمد (ص) في يثرب (المدينة المنورة)، وعُرف أبناؤهما بـ الأنصار ، هما من فروع قبيلة الأزد من عرب سبأ في اليمن ، وأن قبائل لخم وغسان وكندة قد استقرت في الحجاز كما في وسط جزيرة العرب وشمالها،وذلك قبل الإسلام .

أما من عرب الشمال أو العرب المستعربة فأن النسابين يبرزون قبيلتي مضر وربيعة من فروع نزار بن معد بن عدنان بن اسماعيل ابن ابراهيم الخليل جد عرب الشمال .

وأن الرسول محمد (ص) ينتسب إلى النضر (الذي عرف باسم قريش نظراً ليسره في قومه وسعة عيشه) ، إلى بني كنانة إلى بني خزيمة إلى مضر إلى نزار بن معد بن عدنان بن اسماعيل بن ابراهيم .. بن سام بن نوح عليه السلام .

ومن الثابت أن عرب الشمال قد هبطوا جنوباً وغرباً ، كما أن عرب الجنوب قد صعدوا شمالاً وشرقاً بحيث تمازج عرب الشمال مع عرب الجنوب منذ فجر التاريخ في كل مضرب من مضارب العرب وفي كل حي من أحيائهم ، دون تمييز بين من هو من عرب الشمال أو عرب الجنوب في عروبتهم ؛ فكانوا يقولون : (هذا حيٌ من أحياء العرب) قبل الإسلام بكثير .

ومع أن النسابين ظلوا يطلقون - وهذا نجده في عمان-الأردن ليومنا

هذا - على عرب الشمال اسم « العرب النِزاريين » ، وعلى عرب الجنوب اسم « اليمنيين » ، فإننا نجد التمازج والتلاصق في كل مدينة أو كل قرية وكل حي من أحياء العرب بين عرب الشمال النزاريين وعرب الجنوب اليمنيين مما يستحيل فيه اليوم على النسابين وعلى بعضنا البعض معرفة من هو منا من عرب الشمال ومن هو من عرب الجنوب ؛ الأمر الذي يدل أصالةً على أصالة العروبة وامتداد جذورها العميقة من أقصى الشمال إلى مهبط الجنوب بحيث يصبح معه من المتعذر على أحدٍ من النسابين واللغويين،من الطبري ، إلى الصيداوي،تحديد معين العروبة وموطنها الأصلي ، وموضع انبعاثها الأول أهو في الشمال أم في الجنوب ؟ وفي اعتقادي أن العروبة قد نبتت وشبت وبسق عودها وصلب في الشمال كما في الجنوب معاً ، وفي المشرق كما في المغرب تماماً ؟ فهي حيةٌ في كل حبة رملٍ من صحارينا ، ماثلة في كل عودٍ أخضرٍ من روابينا ، شاخصةٌ تنبض بالحياة في كل شبرٍ من شواطئنا من الأطلسي وحتى بحر العرب والمتوسط والخليج العربي .

عزيزي القارئ .. بالإضافة إلى ماأوردت أعلاه ، فإن كافة المؤرخين العرب ، والنسابين لدينا يجزمون حقيقة وجود ما أطلقوا عليه بـ "العرب البائدة " . والعرب البائدة هم القبائل العربية التي بادت وانقرضت بحيث لا يستطيع أحدٌ منا اليوم الادّعاء - في مفهوم المؤرخين والنسابين العرب - بالانتساب إليها ، وأنها عاشت في شبه جزيرة العرب في التاريخ الموغل في القدم ، دون ذكر تحديد له ، ولكنه في اعتقادي قبل الألف الثانية قبل الميلاد بكل تأكيد ؛ لأنهم اندثروا بفعل الكوارث الطبيعية قبل ظهور

مانسميه بالعرب العاربة والعرب المستعربة في الألف الثانية قبل الميلاد .

ومن العرب البائدة قبائل عاد وثمود وإرم وجرهم وطسم وجديس، ولاخلاف مطلقاً على حقيقة وجودها التاريخي ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في مواضع عديدة بفرض الموعظة،واستخلاص العبر ، من تجارب التاريخ وسيرة من سبق وجودنا من الأجداد على هذه الأرض ذات التاريخ العريق .وفي ذلك جاء قوله تعالى في القرآن الكريم :

« فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزّق ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبّار شكور »

وقوله تعالى في سورة غافر ٨٢ :

« أفَلَمْ يَسيروا في الأرض فَينْظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ،كَانوا أكثَرَ مِنْهُم وَأَشَدَّ قُوةً وَآثاراً في الأرض، فَمَا أغنى عَنْهم ماكَانوا يَكْسِبون »

وقوله تعالى في سورة القصص ٥٨ :

« وَكَمْ أَهْلَكنا مِنْ قَريةٍ بَطِرَتْ مَعيشتَها فَتِلكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلا قَليلاً وكُنَّا نحنُ الوارِثِين ».

وفي ذكر قارون :

إن قارون كان من قوم موسى ..« فَخَسَفْنَا بهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ » (قصص٨١) .

وقوله في سورة الحاقة في قوم عاد وثمود :

« فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَة ؟ »(الحاقة ٨) ؛ وفي سورة

العنكبوت ٣٨ جاء :

« وَعَاداً وثَمُوداً وَقدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَيّطانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَكَانُوا مُسْتَبصِرين »

(صدق الله العظيم) .

وان النسابين ومنهم ابن جزم المتوفى ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م ذهبوا إلى القول أنه لايوجد على وجه الأرض شخص يمكنه أن يثبت أنه من نسل هذه القبائل العرب البائدة . وإن التأكيد والجزم على حقيقة وجود العرب البائدة في التاريخ السحيق في القدم التي عاشت ، وعَلَتْ في الأرض بدلالة القرآن الكريم وما تركته لنا من آثار أشار إلى مواضعها العديد من المؤرخين ، ثم بادت وانقرضت .. إن ذلك يكشف لنا بجلاء حقيقة التصاق العرب والعروبة بأرضنا العربية ، التصاقاً أزلياً منذ التاريخ السحيق الموغل في القدم وبما لايقل عن عشرة آلاف عام قبل الميلاد على وجه التقدير .

مع أن كلمة " عرب وعربي " نجدها تتردد في أماكن كثيرة في النقوش والآثار الآشورية و البابلية والنبطية واليمنية والفينيقية والمصرية وفي شبه جزيرة العرب،والتي يستدل منها على حقيقة وحدة الأصول لدى أولئك الأجداد العظام،وعلى حقيقة التماثل والتشابه والصلات الحضارية والاجتماعية الوثيقة بين عرب وادي النيل من المصريين الهكسوس والعماليق وبين عرب الشمال في بابل وآكاد وعرب الجنوب في اليمن وعلى سواحل البحر الأحمر .

فنجد مثلاً كلمة " عرب " وردت بصريح العبارة على تمثال نارام سين

الذي يعود إلى فترة ٢٣٠٠ قبل الميلاد وهو خليفة سرجون مؤسس الدولة الآكادية (انظر د. نبية عاقل ص٤٨) .

وفي النقوش الآشورية ورد اسم زبيبة ملكة جميع العرب ، كما ورد ذكر اسم « الملكة سمسي ملكة العرب » في الفترة مابين ٧٣٨ إلى ٧٠٥ قبل الميلاد . كما أن المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد والذي يُطلِق عليه المؤرخون لفظ « أب التاريخ » لصحة ماورد في مدوناته التاريخية العريقة ؛ قد استخدم لفظ « ملك العرب والآشوريين » في الدلالة على الملك الآشوري سنحريب ، كذلك أيضاً استخدم المؤرخ الإغريقي هيرودوت لفظ « اليمن السعيد وبلاد العرب السعيدة » .
(انظر تاريخ العرب القديم د. نبيه عاقل ص٥١) .

ومنذ ذلك الحين يتتالى ذكر « العرب » في النقوش الآشورية والبابلية واليمنية والمصرية ، وفي النصوص الفارسية المكتوبة بالخط المسماري ، كما في الكتابات الكلاسيكية عند المؤرخ أسكيلوس،وعند الكتاب اللاتين والإغريق كهيرودوت وغيره .

ونجد على نقش « النمَّارة » في الجزيرة العربية الذي يعود تاريخه إلى ٣٢٨م اسم « امرؤ القيس ملك جميع العرب » ، وهو امرؤ القيس بن عمرو الذي ثبت سلطانه على قبائل أسد ونزار وسمى نفسه ملك جميع العرب بعد أن انتصر على ملك نجران « شمر يرعش » وتحالف من أجل تثبيت سلطانه مع الرومان .

وتجدر الإشارة هنا أن السيادة في المنطقة كانت محض عربية منذ

آلاف السنين قبل الميلاد ، وحتى نهاية القرن السادس الميلادي ، حيث كانت السلطة تنتقل تباعاً بين بلاد بابل وآكاد إلى وادي النيل وهكذا دواليك .

وحوالي عام ٥٣٨ ق.م تعرضت المنطقة لغزو الفرس الأخمينيين حيث تمكن الملك الفارسي كورش (الذي يطلق عليه في كتب تاريخية أحياناً لفظ كوسيوس) من هزيمة الملك البابلي نابونيند . وهنا تبدأ السيطرة الأجنبية على المنطقة العربية ؛ هذه السيطرة وإن استمرت لقرون عديدة تلت ، ولكنها كانت سيطرة هشة متقطعة لم تعرف الاستقرار إلا في كل مرّة كان فيها الغزاة يتحالفون مع أبناء أرضنا العربية، في مواجهة غزاةٍ جدد آخرين.

أما الهوية العربية فبقيت هي الغالبة والسائدة في أرضنا ، مع ماتعرضت له من غزوات متلاحقة من قبل الفرس والإغريق والروم .

في عام ٥٢٥ ق.م تمكن الفرس على يد قمبيز خليفة كورش من حدّ غزوهم في السيطرة على مصر . وتابع الفرس في عهد الملك داريوس الكبير زحفهم باتجاه بلاد الإغريق حتى وصلوا نهر الدانوب في أوربا عام ٤٨٥ ق.م مما أشعل الحرب بين الإغريق والفرس لسنواتٍ طوال حيث تمكن الإغريق بقيادة ملكهم فيليب من طرد الغزاة الفرس من بلادهم ، ثم مطاردة ملوكهم خارج اليونان . وإثر مقتل الملك فيليب في إحدى المعارك عام ٣٣٦ ق.م خلفه ابنه الإسكندر المكدوني - تلميذ العالم الإغريقي المشهور أرسطو - الذي تمكن من طرد الفرس من الأرض العربية تماماً عام ٣٣٢ ق.م ودخول بابل حيث توفي فيها وعمره آنذاك ٢٧ عاماً .

ومن المعروف أن المنطقة العربية خضعت لحكم الإغريق البطالسة في

مصر ، والسلوقيين في سوريا حتى مجيء غزوةٍ أجنبية جديدة قادها الرومان بعد معارك ضارية طويلة مع قرطاجة التي كانت بمثابة بوابة الوطن العربي من الغرب . وبانتصار الروم على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م تابعوا زحفهم شرقاً فدخلوا مصر في عهد الإمبراطور يوليوس قيصر ، كما دخل القائد الروماني بومبي دمشق عام ٦٤ ق.م .

وفي الوقت الذي خرج فيه الإغريق تماماً من المنطقة بقي الوطن العربي في مشرقه يتعرض لهجمات الفرس والروم على التوالي دون أن يعرف أحدٌ منهم الهدوء أو السيطرة المطلقة على أرضنا ؛ وكانت الهوية العربية في كل مرّة تتأجّج مفصحةً عن ذاتها ، حتى تجسّدت وانطلقت من مواقع الدفاع إلى مواقع الهجوم مع مطلع القرن السابع الميلادي تطارد ملوك الفرس والروم معاً في عقر دارهم ، بعد أن قام العرب بحمل رسالة الإسلام وإعادة بناء ذاتهم الوطنية وتوحيد صفوفهم ، وتنظيم قيادتهم ثم تحرير أرضهم وبناء صرح مجتمع عربي جديد ،وإن طغت عليه النزعة الإنسانية الأممية .

وهنا - خلال روحٍ طويل من السيطرة الأجنبية على وطننا العربي من قبل الفرس والإغريق والرومان والتي امتدت منذ سقوط بابل عام ٥٣٨ ق.م وحتى اندفاع الجيوش العربية من الجزيرة العربية تطارد الفرس والروم معاً في مطلع القرن السابع الميلادي حيث تم تحرير سوريا بعد ملحمة اليرموك عام ١٣هـ/ ٦٣٤م ، والعراق بعد موقعة القادسية عام ١٦هـ / ٦٣٤م وكذلك فلسطين في العام نفسه - أي خلال فترة طويلة من السيطرة الإستعمارية زادت على ألف عام فإنني أجد لزاماً علي إبراز الحقائق

والثوابت التالية :

إن الغزاة جميعهم في أوج قوتهم لم يتمكن أحدٌ منهم من إحكام سيطرته المطلقة على المنطقة وإخضاعها تماماً لسلطانه ؛ ولم يعرف أحد منهم الهدوء والاستقرار في المنطقة إلاّ في كل مرةّ كان فيها يُلجأ إلى التحالف مع أبناء الأرض العربية ؛ تحالف شركاء في مواجهة خصم مشترك ؛ وهذا نجده في أكثر من موضع وأكثر من مثال في تلك الحقبة من الزمن والتي زادت على ألف عام كانت فيها الهوية العربية ترفض الذوبان ، وتثور من فَينة لأخرى ثورة بركان هائج دون أن يعرف الهدوء تماماً .

فمملكة الأنباط - وهم عربٌ نزلوا منطقة وادي موسى شرقي الأردن - منذ القرن الرابع قبل الميلاد حيث امتدت من سهل البقاع شمالاً لتشمل قسماً من سوريا بما فيها دمشق بدءاً من عام ٨٥ ق.م ، وحتى مدائن صالح في الحجاز جنوباً .

وماتزال آثار موقع البتراء في الأردن عاصمتهم،قائمة تشهد على عظمة حضارتهم . ومن الثابت في التاريخ أن مملكة الأنباط استعصت تماماً على الفرس ، كما لم يتمكن الإسكندر المكدوني ذاته وسلوقس من بعده ولا البطالسة في مصر من إخضاعهم . وبقيت الهوية العربية شامخةً في البتراء ودمشق والبقاع ومدائن صالح في الحجاز تتحدّى كافة الغزاة ! ومن الثابت أيضاً أن أجدادنا العرب الأنباط قد تحالفوا مع الإغريق بقيادة الإسكندر تحالف شركاء في مواجهة الفرس العدو المشترك لهم ومطاردة ملوكهم خارج الأرض العربية . وفي عام ٢١٧ ق.م اشتركوا جنباً إلى جنب مع الإغريق

بقيادة أنطيوخوس الثالث في معركة لافيا ضد الفرس .

ولما نقض السلوقيون في سورية تحالفهم مع العرب الأنباط ، انتقلوا إلى الهجوم حيث اشتبك العرب بقيادة الحارث الثالث مع السلوقيين بقيادة أنطيوخوس ديونيسوس عام ٨٦ ق.م قرب ساحل حيفا ، سقط فيها القائد السلوقي أنطيوخوس صريعاً ، وتم على أثرها ...إخضاع فلسطين بكاملها إلى سلطتهم إثر موقعة أديدا على مقربة من اللّد حيث انتصر فيها الحارث الثالث على زعيم المكابيين اليهود جنيوس في العام ذاته،ثم اعتلى الحارث الثالث العرش في دمشق عام ٨٥ ق.م وأخضعها لسلطانه بعد تحريرها من الإغريق السلوقيين و صك فيها النقود باسمه .

كما أن القائد الروماني بومبي لم يتمكن من دخول دمشق إلاّ مصالحة مع الملك النبطي الحارث الثالث وذلك عام ٦٤ ق.م حيث أبقاه ملكاً على بلاده كحليف مشترك في مواجهة الخصوم الإغريق .

واستمرت رابطة التحالف والولاء بين الروم والعرب الأنباط بعد الحارث الثالث في عهد ابنه عبادة الثاني في فترة حكمه من٦٢ إلى٤٧ ق.م .

ومن الجدير ذكره أن ملك الأنباط العرب مالك الثاني قاد بنفسه حملة من ٥٠٠٠ من المشاة العرب وألف فارس إلى جانب الإمبراطور الروماني نقيوس في حملته على بيت المقدس عام ٧٠ م حيث أجهزوا تماماً على التمرد اليهودي فيها .

إن الهوية العربية لدى الأنباط بقيت هي السائدة في سورية في دمشق كما في البتراء والروم في أوج قوتهم ، مما أزعج الروم وأربكهم،

فغدروا بمن تحالف معهم في مواجهة خصمهم المشترك .وهكذا قاد الإمبراطور الروماني تراجان بنفسه جحافل الجيوش الرومانية من أجل إخضاع المنطقة إلى سلطتهم المطلقة حيث تمكن بعد معارك ضارية من دخول دمشق عام ١٠٦ م وقضى على السلطة العربية فيها أيام حكم ملك الأنباط مالك الثاني .

وبإخضاع تراجان مملكة الأنباط إلى عرش روما ، قام بإلحاقها ببلاد امبراطوريته تحت اسمٍ ثابت لدى كافة المؤرخين وهو :

« المقاطعة العربية » . وإن هذه التسمية الرومانية الثابتة في تاريخ روما ، أي « المقاطعة العربية » هي بحدٍّ ذاتها وثيقة تاريخية ثابتة في جذور التاريخ الإنساني ، وهي تثبت أصال الهوية العربية في أرضنا العربية ورسوخها فيها منذ فجر التاريخ الإنساني .

وبالقضاء على سلطة الأنباط العرب ، هدأ بركان الهوية العربية لفترة مؤقتة ولكن من دون إخماد .. هدأ ولكن ليثور مرَّة أخرى ومن نفس الأرض العربية في سوريا .. في تدمر العربية هذه المرَّة .

إن لفظ « تدمر » لغةً جاء من لغظها الآرامي الأصل وهو « تامار »،

ولفظ « تامار » الآرامي،أَوْ قلْ في اللهجة الآرامية من اللغة العربية الأم . هذه اللهجة التي بقيت هي الغالبة في شبه جزيرة العرب وفي سوريا خصوصاً منذ الألف الثانية قبل الميلاد وحتى التحرير العربي بعد الإسلام - تعني لغةً «التمر » في مفهومه الحالي المعاصر لدينا في الوطن العربي من الخليج إلى المحيط . وهكذا نجد أن « لفظ تامار لم يختلف كثيراً عن لفظه الحالي أي تمر » . وبالتالي فإن (تدمر) أو (تامار) في لفظها الآرامي

كانت تعني « مدينة التمر أو مدينة النخيل » ولذلك عرفت في اللغة الإغريقية كما في اللغة اللاتينية عموماً باسم : « با لميرا » أي مدينة النخيل . ولقد ظهرت تدمر أو قُلْ « تامار » منذ مجيء الإغريق بقيادة الإسكندر المكدوني عام ٣٣٢ ق.م إلى المنطقة العربية كعقدة هامة للمواصلات ، ومركز ضخم للتجارة العالمية،واستمرت كذلك حتى مجيء الرومان إلى سوريا .

وفي عام ٤١ ق.م اعترفت تدمر بسيادة روما دون أن تتخلى عن سيادتها حيث كانت تبعية صورية شكلية استمرت كذلك إلى مابعد ضم تراجان سوريا إلى بلاده تحت اسم « المقاطعة العربية » عام ١٠٦ م .

وقد ازدهرت تدمر في عهد الإمبراطور هدريان الذي خلف تراجان والذي منح أهلها حقوق أهل روما ، كما منحهم الحرية الكاملة في الإدارة السياسية ، بحيث أصبحت العلاقة وثيقةً تماماً بين « تدمر الهدريانية » وبين روما مركز الإمبراطورية . وفي عهد الإمبراطور سبتسيموس سفيروس وهو عربي المنشأ والإنتماء من ليبيا حكم روما منذ ١٩٣م وحتى ٢١١م ، أصبحت تدمر الوارث الحقيقي لمدينة البتراء .

وفي عام ٢٥٠م تمكن أذينة بن خيران بن وهب اللات من أن يصبح ملكاً على تدمر وأن يكتسب ودَّ روما . وأسرة أذينة معروفة في التاريخ الروماني والعربي ، حيث استطاع أفرادها الإستمرار في زعامة تدمر مع المحافظة على دعم روما وقياصرتها لهم .

وفي عام ٢٦٢م على أثر اعتلاء الإمبراطور غالينوس العرش بعد

موت أبيه الإمبراطور فاليريان أسيراً لدى الفرس ، ونظراً لما قدمّه أذينة الثاني من مقدرة فائقة في قيادة الحروب ضد الفرس،قام الإمبراطور غالينوس بمكافأته بلقب «قائد عام جيوش المشرق » .

وفي عام ٢٦٤ م كافأه مرة أخرى بلقب « امبراطور عموم المشرق » نظراً لدوره العظيم في استرجاع نفوذ روما ووقوفه في وجه هجمات الساسانيين . ولمّا عظم نفوذ الملك أذينة الثاني خاف الروم من نواياه الإستقلالية فدبروا قتله في مدينة حمص على يد ابن أخيه معني ابن سبتسيموس خيران بحجة أنه أحق بالسلطة منه .

وإثر مقتل أذينة الثاني انتقلت السلطة إلى زوجته الملكة زنوبيا التي عرفت باسم الزبّاء أيضاً ، نظراً لصغر سنّ ابنه وهب اللات ابن أذينة . وزنوبيا هي نائلة بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن هوبر العمليقي وهي عربية الأصل والانتماء حسب ماأورده المؤرخ الطبري .

وقد أظهرت الملكة زنوبيا مقدرةً فائقة في إدارة شؤون الملك فخاف منها الرومان وأعلنوا الحرب عليها . لقد انتصرت زنوبيا على جيش روما الذي أرسله الإمبراطور غاليانوس لمحاربتها وقتلت قائد الجيش هرقليانوس في ساحة المعركة ، ومدّت نفوذ تدمر باتجاه الشرق والشمال والجنوب،فبنت الحصون على دجلة والفرات في مواجهة الفرس الساسانيين ، وأرسلت قائدها « زبدا » على رأس جيش من سبعين ألف رجل إلى مصر وذلك عام ٢٧٠م حيث انتصر على جيش الرومان وقامت بإلحاق مصر إلى مملكتها التي أصبحت امبراطورية حقيقية إذ شملت سورية والعراق ومصر وشمالي الجزيرة

العربية وجزءاً من آسية الصغرى وأضحت تشكل تحدياً حقيقياً لامبراطورية روما في عقر دارها .

لذلك ، وبعد أن توغلت جيوشها في آسية الصغرى ودخلت أنقرة في تركيا ، قاد الامبراطور الروماني أورليان بنفسه حملة عسكرية ضخمة لمحاربتها بدءاً من عام ٢٧٢م،ولم يتمكّن من إخضاعها إلاّ بعد عامين من الحروب المتواصلة حشدت فيها روما كافة إمكانياتها الحربية وكبّدتها خسائر فائقة ، مما أجبر الإمبراطور أورليان أن يكشف عن حقده الإنتقامي وتعطشه للثأر من تدمر العربية فأمر بإحراقها بعد تدميرها ونهبها ، واقتاد معهزنوبيا مقيدة بالسلاسل الذهبية مع ابنها إلى عاصمته روما وذلك عام ٢٧٤م . ومع كل ذلك بقيت مملكة تدمر العربية ماثلةً شاخصةً في التاريخ الروماني ذاته ، كهوية عربية تمردت على هوية الغزاة الرومان في أوج قوتهم و مازال سور تدمر وآثارها العريقة ماثلةً للعيان حتى اليوم تروي لنا وللأجيال وللعالم أجمع قصة خلود الحضارة العربية وشموخ الإرادة العربية رغم كل صنوف القمع والوحشية التي سلكها الغزاة على أرضنا .

إن النزعة القومية العربية في مواجهة صَلَف روما ، والتي تم ضربها ومواجهتها بوحشية بالغة من قبل الغزاة لم تنته أو تتكسر أجنحتها بتدمير البتراء وإحراق ونهب تدمر . بل استمرت نسمات العروبة تهب من فينةٍ لأخرى لتتحول إلى ريحٍ صرصر في كل مرّة يلجأ بها الغزات إلى الإفصاح عن عنصريتهم باستئصال الهوية العربية .

ولم يتمكن الغزاة من الفرس والروم من الاستمرار في الأرض العربية

دون مناورة أو مهادنة مع العرب أبناء الأرض وسادتها الحقيقيين .

وهكذا لجأ الفرس إلى التحالف مع العرب المناذرة الذين اتخذوا من الحيرة على شاطئ الفرات الأيمن مركزاً لملكتهم في مواجهة خصومهم من الروم ؛ كما اتخذ الروم من العرب الغساسنة حلفاء لهم في سورية في مواجة خصومهم من الفرس . وكانت حاضرة الغساسنة في جلق بالغرب من دمشق، وشملت سلطتهم سوريا الطبيعية بما فيها فلسطين والأردن . مع الإشارة إلى أن كلاً من الغساسنة والمناذرة هم أفرع من قبائل أزد وقبائل تنوخ من عرب الجنوب نزحوا عن اليمن واتجهوا شمالاً بعد حادثة سيل العرم إثر تصدع سد مأرب.وبينما استقرت قبائل أزد الغساسنة عند نبع ماء « غسان » على نهر اليرموك فنُسِبوا إليه ، استقرت قبائل تنوخ المناذرة في حوض وادي الفرات.

وعُرِف من ملوك الغساسنة جفنة بن عمرو بن مزيفيا بن عامر في فترة ٤٩١ إلى ٥١٨م الذي اعتنق النصرانية أيام حكم الإمبراطور أناستازيوس الأول . وجبلة بن الحارث في فترة ٥٢٩م إلى ٥٦٩م وعاصر الإمبراطور جبستنيان وجبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة الذي حارب الفرس ، ووقف إلى جانب الإمبراطور الروماني هرقل (هيراكليوس)في قسطنطينية وحتى انطلاقة الزحف العربي بعد الإسلام حيث انضم إلى المسلمين العرب إثر معركة مرج الصفر جنوبي دمشق التي قادها خالد بن الوليد،وأعلن إسلامه عام ٦٣٤م وزار المدينة المنوّرة ، ثم ارتد على الإسلام وغادر سوريا هارباً بعد حادثته المشهودة مع الخليفة عمر بن الخطاب الذي حكم لأعرابي من عامة الناس بالقصاص منه .

أمّا المناذرة فكانت لهم السيادة في شرقي سوريا تحت حماية الفرس الساسانيين . واشتهرمنهم المنذربن امرؤ القيس الذي عرف باسم « المنذر بن ماء السماء » في فترة ٥١٢ إلى ٥٤٤م ؛ وآخر ملوكهم هو النعمان بن المنذر في فترة ٥٨٣ إلى عام ٦٠٥م عندما أمر كسرى بإلقاء القبض عليه حيث قتله تحت أرجل الفيلة قصاصاً منه لنزعته الإستقلالية العربية وعيّن مكانه رجلاً من الموالين للفرس اسمه إياس ابن قبيصة الذي أرسل في طلب دروع النعمان بن المنذر وكانت وديعة لدى هانئ بن مسعود من بني بكر ، فثارت ثورة القبائل العربية انتقاماً لمقتل النعمان بن المنذر من الفرس، فاجتمعت كلمة عرب بني بكر وعرب العراق عموماً عى الحرب ونازلوا جيوش الفرس بقيادة الهامرز المرزبان القائد الأعظم لكسرى ، مع جيش عميلهم بن قبيصة . وكانت معركة ضروساً استمرت يومين كاملين عند ماءٍ لعرب بكر عُرِف باسم ذي قار يقع بين الكوفة وواسط في العراق،لذلك عُرِفت باسم معركة ذي قار أو بـ يوم قراقرا أو يوم الحنو أو يوم ذي العجرم ويوم الغذوان.وأصبحت ذي قار ملحمة فخر واعتزاز في السجل القومي العربي ليومنا هذا ؛ إذ أفصحت فيها الإرادة العربية عن ثورتها في مواجهة تحديات الغزاة الفرس الذين استهدفوا استلاب الهوية العربية وإخضاعها . وكانت ذي قار حوالي عام ٦١٠م أي في حياة الرسول محمد(ص) قبل بدء الرسالة الإسلامية .

لقد ثأر العرب في ذي قار لوجودهم القومي العربي ، وحطموا صلف الغزاة الفرس ، وقتلوا قائد جيش كسرى ، وهزموه شر هزيمة مما هيأ النصر

القومي العربي لجيوش العرب المسلمين في تحرير العراق فيما بعد بسنوات، حيث سقطت الحيرة على يد القائد العربي خالد بن الوليد إثر موقعة القادسية التي انصر فيها القائد العربي سعد بن أبي وقّاص في آخر ربيع الأول عام ١٦هـ / ٦٣٧م والتي فتحت أبواب العراق وأنهت قروناً طويلة من السيطرة والإحتلال الفارسي لأرضنا الحبيبة في الشمال والشرق ...

ولذلك أصبحت ملحمة ذي قار أغنيةً تَرَنّم بها العرب ، فغنوا بها عروبتهم روجدوا فيها هويتهم القومية ، وانطلقوا منها إلى مواقع التحرير القومي والثأر لكرامتهم الإنسانية الجريحة . فها هو الشاعر العربي الجاهلي الأعشى يتفاخر بعروبته ويصدح بصوته في ذي قار :

لو أنَّ كل معَدٍ كان شاركنا　　في يوم ذي قار ماأخطاهم الشرفُ

ومَعدّ هو جدٌ من أجداد العرب،وذلك كناية عن الإنتساب القومي للهوية العربية .

كما أن الرسول محمد(ص) أشاد بيوم ذي قار بقوله :

« هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا » .

ليس هذا وحسب ؛ بل إن الهوية العربية لم تنقطع عن هذه الأرض إطلاقاً وفي أوج جبروت الغزاة وا تساع سيطرتهم . فمملكة كندة العربية التي شملت الحجاز وأواسط الجزيرة العربية ، وعاصرت المناذرة والغساسنة معاً كانت عربية صرفة دون أية تبعية لسلطة أجنبية .

وكان آخر ملوكها حجر بن الحارث والد الشاعر العربي المعروف باسم «امرؤ القيس » .

هذا مع الإشارة إلى أن الإمبراطور جستنيان في قسطنطينية قد استضاف الشاعر امرؤ القيس بن حجر ثم غدر به فقتله مسموماً ومات في أنقرة عام ٥٥٤م .

ومن الجدير ذكره أن اليمن العربي استعصى على الغزاة من الفرس والإغريق والروم طيلة فترة الغزو الإستعماري لأرضنا العربية ، وفشلت كافة حملات الغزو التي قادها قادة جيوش الإمبراطوريات المتعاقبة لإخضاعه، حتى استحق اليمن بكل عنفوان اسم «اليمن مقبراة الغزاة » ،

ولم يتمكن الفرس والروم من السيطرة على اليمن إلاّ لفترات متقطعة بسيطة بدءاً من أواسط القرن الرابع الميلادي ، وبصورة جزئية،كانت الهوية العربية فيها هي الغالبة والمسيطرة على اليمن وحتى مجيء جيوش التحرير العربي مع رسالة الإسلام .

.. إن الهوية العربية لم تنقطع عن أرضنا العربية من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب طيلة عشرات آلاف السنين .

إنها كحبّات الندى التي لامست هذه الأرض الحبيبة منذ أول خيط ضوء وأول فجر عرفته أرضنا وعرفه التاريخ الإنساني كله .

إن هويتنا العربية قد تأصلت منذ أزمنة سحيقة في القدم في لغتنا العربية أمِّ اللغات وأجملها قاطبة في العالم ، وإن تعددت لهجاتها،ولاضير لنا في ذلك ؛ وتركت بصماتها جليةً للعيان على مدى الأجيال المتعاقبة من التاريخ الإنساني في شواهد أبدية من الآثار العريقة التي تعج بها أرضنا المعطاء هنا وهناك والتي لاحصر لها ، ومازال كل يوم تتكشف عن

مكتشفات حضارية جديدة ، تفصح بها عن عظمة أجدادنا ؛ بناة الحضارة الإنسانية .

لقد أظهرت التحريات الأثرية التي قامت بها البعثة الأثرية السورية الفرنسية السويسرية المشتركة برئاسة الدكتور سلطان محيس ، والدكتور جان ماري لوتان،بدءاً منذ خريف ١٩٧٨م في حوضة الكوم في البادية السورية وفي مواقع بئر الحمل ، وأم التلال والندوية وأم القبية وغيرها باستخدام أحدث الطرق العلمية والتقنية في البحث والتنقيب عن الآثار ؛ لقد كشفت هذه التحريات العلمية في أرضنا وفي مواقعنا الأثرية عن آثار ومعطيات إنسانية لأول مرة في التاريخ الإنساني بالاستناد إلى ماحصلت عليه وما عثرت عليه من بقايا عظمية لحيوانات منقرضة ، وفؤوس حجرية وأدوات صيد استخدمها الإنسان الأول في التاريخ الإنساني تعود إلى مليون سنة خَلَت ؟ كما عثرت على مواقع ينابيع غزيرة لم يُعرَف مثيل لها في العالم،مما يشير إلى استقرار سكني في المنطقة العربية منذ خمسمائة ألف سنة خلت .

إن الوجود العربي في وطننا العربي الكبير هو وجود إنساني حضاري، وهو وجود الإنسانية الأولى في مهدها ؛ وهو سابقٌ لوجود أي شعب آخر في المعمورة . وقد أبدع أجدادنا العرب العظام على هذه الأرض أولى حضارات العالم ، ومنها انتقلت إلى باقي أصقاع العالم القديم .

وليس من قبيل المصادفة أن نسمع مدير متحف اللوفر في باريس وهو الدكتور أندريه بارو يقول قوله عرفان وامتنان لأرض الإنسان العربي بقوله :

« إن على كل إنسان متمدن في العالم أن يفخر ويقول :
لي وطنان . وطني الذي أعيش فيه ، وسوريا ! »
(انظر تاريخ سوريا القديم د. أحمد داوود ص١) .

إن هويتنا العربية قد أفصحت صراحةً عن ذاتها في عروبتها في كل مرةٍ تعرضت فيها لهجمات الغزاة الذين استهدفوا استلاب وجودها ، واستئصال انتمائها الإنساني . وفي أوج سيطرة الغزاء على بلادنا كما على بلاد غيرنا من العالم ، كانت الهوية العربية تبسط وجهها الحضاري الخلاق وتبدع في بناء صرح الحضارة الإنسانية دون أن تتخلى عن وجهها العربي والإنساني ، حتى في عرين الغزاة أنفسهم .

فها هي روما يتعاقب على حكمها في أوج عظمة الإمبراطورية الرومانية ثلاثة من الأباطرة من أصلٍ عربي ؛ وقد تشبثوا وتفاخروا بانتمائهم العربي ! إنهم سبتيموس سفيروس من بلدة طرابلس الغرب في ليبيا الذي تبوأ عرش روما في الفترة من عام ١٩٣ إلى ٢١١م طوال تسعة عشر عاماً والذي أصرَّ على أن يكون لفظ « العربي » أحد ألقابه الثلاثة . وقد حكم روما أيضاً الإمبراطور أكابال الحمصي من مدينة حمص السورية مع زوجته الحمصية الإمبراطورة جوليا وأبنائه منها جيتا وكراكلا . كما أن الإمبراطور السابع الذي حكم روما عام٢٤٤م هو فيليب العربي من مدينة شهبا في

حوران السورية قد أصرَّ هو الآخر على انتمائه العربي ، وأن يلقَّب بـ فيليب العربي ؛ فعُرف اسمه في التاريخ الروماني بلفظ « فيليبو أرابو PHIL-PO The ARABE » .

ولم يكن ذلك سوى إحساس أكيد من أولئك الأفذاذ العظام بانتمائهم العربي الأصيل وهم يبنون حضارة روما .

(انظر دراسات في تاريخ روما لمؤلفيه د. محمد محفل و د. محمد الزين - المقدمة مقرر كلية الآداب قسم التاريخ جامعة دمشق ١٩٨٢).

ويؤكد كثير من المؤرخين اليوم ، كما أكد المؤرخون الأقدمون أمثال بليني وديودور أنه حكم روما جيلان من الأباطرة ؛

جيل من النبلاء المثقفين العرب؛ وجيل من الهمج اللاتين !

(انظر د. أحمد داوود- جريدة الثورة ص٩ تاريخ ١٩٩٠/٤/٥).

عزيزي القارئ .. من أرضنا العربية جاء موسى برسالة التوحيد في مواجهة الكثرة المارقين اليهود من قومه ، عبدة العجل والأوثان ؛ ومن أجل تخليص قومه من دنس اليهودية وشرورها .

واليهود آنذاك كانوا فئة ضالة انحرفت عن سلوكية أجدادنا الحضارية المعهودة ، وقد زيَّن لهم السامري - كما ورد ذلك في القرآن الكريم - كفرهم وطغيانهم وإلحادهم وضلَّهم عن الحق والهدي إلى طريق الباطل والشر ، فاستنزل عليه موسى وأخوه هارون اللعنات وغضب الله عليهم وكذلك الأنبياء من بعده .

وقضى موسى عليه السلام نحبه شهيداً على أيديهم،ومن مكرهم به

وبأخيه هارون - كما كتبوا ذلك بأيديهم على أنفسهم في توراتهم ، فوصفوه بخيانة عهد الرب يهوه فاستحق على ذلك الموت ، لنقرأ ذلك في سفر التثنية الإصحاح ٣٢ ص٢٣١ من توراتهم طبعة لندن ١٩٤٥ :

« وكلم الرب موسى في ذلك اليوم قائلاً : اصعدْ إلى جبل عباريم في أرض موآب قبالة أيما . ومت في الجبل الذي تصعد إليه كما مات هرٰون أخوك في جبل هور ،، لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل » .

وهذه وثيقة كتبوها بأيديهم في توراتهم تجزم أن موسى قد اغتاله الكهنة اليهود الذين قاوموه فهَدَّموا كل مانادى به من تعاليم قدسية سماوية رفيعة ، ووصفوه بعد ذلك بخيانة الرب يهوه !

فكيف بعد ذلك .. تُنَسَب التوراة تلك ، ويُنسب ذلك الدين الآسن إلى موسى النبي عليه السلام،وتوراتهم ودينهم يعتبر موسى خائناً ؟ أليس ذلك هو المضحك المبكي بعينه ، وممّا يثير السخرية والإشمئزاز معاً ؟

إن موسى عربي من ذرية ابراهيم جدٍّ عرب الشمال ؛ ولم يأت باليهودية الشريرة بل جاء بالهداية والتوحيد ومن أجل تخليص بني قوم العرب من شرور اليهودية وآثامها . كما أن أولئك اليهود القدماء - ولنا في ذلك بحث آخر - لم يكونوا ليشكلوا عِرقاً أو جنساً قومياً غريباً عن شعبنا آنذاك ؛ بل كانوا فئة نشازاً تمرَّدت على أخلاقية أجدادنا العرب وسلوكيتهم الحضارية والإنسانية . وإذا عُرِف اليهود في التاريخ كقومٍ متميز ، فما ذلك إلالأنهم شكلوا استثناءً غريباً على مفاهيم أمتنا والمجتمع الإنساني منذ قدم التاريخ؛ ولا ضَير لنا في ذلك ؛ولا غرابة ، فلكل أمةٍ عصاتها ومخالفوها ،

ولنا في تاريخنا مايكرر ذلك . فمحمد(ص) جاء بالإسلام العظيم وهو سيد الهداية ؛ وعمه أبو لهب كان سيد الكفر والشرك والإلحاد !.

ومن أرضنا العربية أيضاً انطلق السيد المسيح عيسى بن مريم ومعه أنصاره الحواريون ، فحملوا لواء المسيحية كرسالة خلاص آنذاك للإنسانية من أعدائها الطغاة اليهود والرومان معاً .

والسيد المسيح عيسى بن مريم نبيٌ آرامي نطق بالسريانية - وهي إحدى لهجات اللغة العربية الأم ؛ كما أنها لهجة نوح عليه السلام - أي أنه عربي الأصل عربي البيئة ، ثابت نسبه في قومه وفي انتمائه القومي إلى شعب الجليل الآرامي في فلسطين الجزء الجنوبي من سوريا ، والتي كانت ترزح آنذاك تحت وطأة الاحتلال الروماني وسيطرة الكهنة الأشرار اليهود . إن المسيحية تعني لغةً في اللهجات العربية القديمة الآرامية والسريانية،الخلاص والإنقاذ. كما أن لفظ « المسيح » لغةً يعني كذلك « المخلص والمنقذ ». وهذا اللفظ الآرامي السرياني مازال يستخدم في شكله القديم في كافة اللغات الأجنبية اللاتينية الأصل ليومنا هذا،وفي نفس معناه الذي كان فيه بغرض الدلالة على المسيحية ، والسيد المسيح عليه السلام . فنجد ذلك لديهم في لفظ « ميسّي ، وميسّيا » ، كما للدلالة أحياناً بكلمة « ميسّيا » على المهمة الدبلوماسية الرفيعة المستوى .

وليس في ذلك مايثير الغرابة ، لأن المسيحية خرجت من أرضنا لتكون رسالة خير ومحبة،ومحبة وخلاص وإنقاذ للإنسانية المعذبة من الهمجية اليهودية وطاغوتها المادي الخبيث ، كما من أجل تحرير أجدادنا

وأرضنا من هيمنة الطغاة الغزاة الفرس والرومان معاً الذين كانوا يتناوبون احتلال بلادنا ، والتسلط عليها . فمن أرضنا العربية من فلسطين انطلق السيد المسيح عيسى بن مريم يلاقي مالاقى من العذاب والاضطهاد ، يصدح بكلمات ربه ، حاملاً أمانة السماء إلى الذين استخلفهم الله في الأرض ليقيموا في ربوعها العدل والسلام وينشروا المحبة والخير بين البشر ولكافة بني البشر . وهكذا إلى أن انتصرت المسيحية التي خرجت من أرضنا إلينا ، كما إلى غيرنا ، وتنصرت لها روما في أرضها كما في امبراطوريتها العملاقة في مطلع القرن الرابع الميلادي على يد الإمبراطور قسطنطين .

ومن أرضنا العربية أيضاً طلع العرب على العالم من مطلع القرن السابع الميلادي برسالة الإسلام العظيم الذي جاء به النبي العربي محمد بن عبد الله (ص)، كرسالة خلاص وإنقاذ لهم ولغيرهم من بني البشر ، وليتم مابدأه السيد المسيح والأنبياء من قبله عليه السلام .

عزيزي القارئ.. إن أقوى أدلة الإثبات في أصول المحاكمات المدنية والجزائية في العالم ، هي اعترافات المدين أو المتهم ؛ هي تلك التي يُقِر بها على نفسه .. عندها تسقط كل الشكوك .

هاهم حاخامات اليهودية وأساطينها في توراتهم التي كتبوها بأيديهم وحوالي القرن الخامس قبل الميلاد، يُقِرون صراحة،وبصريح العبارة بوجود «العرب» الذين قاوموهم وعادوهم ودافعوا على أورشليم قدسهم ، ومنعوهم من بناء سور يتسورونه . لنقرأ ذلك في أكثر من موضعٍ من توراتهم،فنجد

مثلاً في الإصحاح الرابع من سفر نحميا صفحة ٥٢٠ :

« ولما سمع سنبلط وطوبيا **والعرب** والعمونيون والأشوريون أن أسوار أورشليم قد رُممت والثغر ابتدأت تُسَدُّ غضبوا جداً وتآمروا جميعهم معاً ، أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضرراً ».

وجاء في **الإصحاح السادس من سفر نحميا ص٥٢٢ :**

« ولما سمع سنبلط وطبيا **وجشم العربي** وبقية أعدائنا أني قد بنيت السور ولم تبق فيه ثغرةٌ ... أرسل سنبلط وجشم **العربي** إلي قائلين هلمّ نجتمع معاً في القرى في بقعة أو نو. وكانا يفكران أن يعملا بي شراً ».

وجاء في نهاية الإصحاح الثاني سفر نحميا ص٥١٨ :

« ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني ، **وجشم العربي** هزأوا بنا واحتقرونا وقالوا ماهذا الأمر الذي أنتم عاملون ، أَعَلَى الملك تتمردون !» **(التوراة طبعة لندن ١٩٤٥ جمعية التوراة الأميركانية البريطانية) .**

إن ذكر لفظ **« جشم العربي »** ولفظ **« العرب »** في توراتهم وفي مواضع عديدة منها للإشارة إلى مقاومتهم الضارية لليهودية في القدس هو بحد ذاته إقرار منهم ، وهو أقوى أدلة الإثبات بوجود الهوية العربية في هذه الأرض التي رفضت كافة أشكال الطمس والإستلاب،وإن ادعاءآت ومزاعم اليهودية في أرضنا لا تستند إلا على دعوى الإغتصاب الوحشي الذي أقروا به بأنفسهم في توراتهم !

هذه هي هويتنا العربية ثابتة راسخة في أرضنا

العربية كالجبال الرواس ، باسقة شامخة في سجل التاريخ الإنساني منذ التاريخ الموغل في القدم وحتى يومنا هذا. فأين هي تلك الهوية اليهودية التي يتشدقون بها في هذه الأرض المترعة بطيب العرب والعروبة ونسبهم الخالد فيها ؟ وأين هو موقع اليهودية الآسنة من هذا التراث الإنساني الخلّاق لأجدادنا ؟ أين هي تلك الممالك اليهودية المزعومة والتي لا أثر لوجودها سوى في تلك الخرافات والحماقات التي سطرها حاخاماتم الحاقدون في توراتهم كما في تلمودهم وقراطيسهم التي كتبوها بأنفسهم عن أنفسهم ونفثوا فيها واجم حقدهم وغضبهم على كل بني البشر !

ومن هم أولئك اليهود الذين نعتهم سيدنا المسيح عليه السلام بالحيّات أولاد الأفاعي ، وناداهم سيدنا محمد(ص) بـ إخوان القردة ، ومسخهم الله تعالى في قرآنه الكريم قردةً خاسئين !

أين هي هويتهم من هذا السجل البرّاق لأمتنا العربية في التاريخ الإنساني ؟ ولن أكون مخطئاً إذا قلت أن نظرية داروين في الإنسان القرد ، إن صحّت فلا تصح إلا في اليهود أنفسهم وفي داروين نفسه الذي ارتضى أن يكون في القرد نسبه ؛ وحسبه في ذلك وحسبهم قوله تعالى فيهم :

« فَلَمَّا عَتَوا عَنْ مانُهوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين » الأعراف ١٦٥، وقوله أيضاً :

« وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ ، وَعَبَدَ الطَاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌ مَكَانَاً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » (المائدة ٦٠) .

صدق الله العظيم .

إن شعوب أوربا وأمريكا التي تدعي تقديس السيد المسح والمسيحية يجب أن تكون مع شعب المسيح والمسيحية ، ويجب أن تقدّم مصداقية ذلك في الوقوف اليوم مع العرب والعروبة من مسلمين ومسيحيين معاً ؛ لا مع اليهود والصهيونية أعداء المسيح والمسيحية ! فالعرب والعروبة هم الذين أنجبوا السيد المسيح عليه السلام لهم ولغيرهم من بني البشر ؛ وهم أنفسهم أيضاً الذين أنجبوا النبي العربي محمد بن عبد الله (ص) لهم ولغيرهم وحملوا رسالته إلى المعمورة فعمّروها بسلام الإسلام ومدنية الإسلام وكانت تحيتهم فيها ومازالت « سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادْخُلُوها خَالِدين » .

إن الإسلام الذي خرجوا به ، شكّل مرحلة عليا للمسيحية التي هم أنفسهم خرج بها أجدادنا من قبل من جزيرتنا العربية أيضاً . وأنه جاء كتتويج إنساني لخلاص الإنسانية دون تمييز من أعدائها كافة على الأرض .

إن أوربا وأمريكا اليوم تتهود لليهودية ، وتتصهين للصهيونية لا بدافع الغيرية والتعصب للمسيح والمسيحية - كما بذلك يتشدقون ويزعمون أمام مسيحيّ شعبنا والمغرر بهم من مسيحي العالم - ولكن بدافع التسلط الإستعماري والجشع والنهب الإستعماري ، والحقد الصليبي الإستعماري الدفين الذي لم يخفوه يوماً ما ، والذي سبق لقادة جيوش أوربا إبان الحرب العالمية الأولى وهم الجنرال اللنبي لما دخل القدس ، والجنرال غورو لما دخل دمشق بعد معركة ميسلون فقال الأول :

« الآن انتهت الحروب الصليبية »،وهي لم تنته بعد !

وقال الآخر « هانحن عدنا يا صلاح الدين »،وهم لم يخرجوا بعد !.هذا الجشع الإستعماري الصليبي البغيض هو الذي يحركهم اليوم . كما كانوا بالأمس،وهو الذي يحول المسيح والمسيحية لديهم -والمسيح منهم براء - إلى مجرد سلعة ليس عندها لأية قيم ولأية مبادئ ولأي إله آخرمكان في الوجود ؛ مَثلهم في ذلك كمثل أسلافهم اليهود والرومان والصليبيين معاً ، مِمَّن كابد على أيديهم سيدنا المسيح عيسى عليه السلام فذاق أقسى ألوان العذاب الإنساني ؛ والذي يكيلونه هم اليوم أيضاً مرّة أخرى وفي نفس المكان إلى شعب المسيح والمسيحية في أرضنا العربية ، إلى أحفاد المسيح عيسى بن مريم و أطفاله ؛ إلى أطفال العالم جميعهم ، وهم يساندون ويباركون بالسلاح والمال ومِن على منابر الأمم المتحدة ومجلس الأمن باطل اسرائيل وعدوانيتها ضد إنسانية الإنسان ذاته وفي مواجهة أطفال الإنسانية في فلسطين الذي لم يبق في أيديهم مايملكون سوى إرادتهم الحرّة ، والحجارة، يجأرون بها إلى الله وإلى الإنسانية في مواجهة أعداء الله والإنسانية،في مواجهة أعداء الله والإنسانية معاً،والنصر في ذلك سيكون حليفهم والله معهم،وهو الذي وعدهم فيه في قرآنه الكريم « **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير ، الذينَ أُخرِجوا مِنْ دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إلاّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ** » صدق الله العظيم .
(سورة الحج ٣٩) .

حكم التاريخ

قديماً قالوا « التاريخ يعيد نفسه » .

هذه الحكمة الأبدية ، هي عصارة تجارب الآباء والأجداد ، كما هي قانون مسيرة الأمم والشعوب عبر تاريخها الطويل الحافل بالمحن ، الزاخر بالتجارب ، والتي مازالت ماثلةً في ذاكرة التاريخ الإنساني .

هذه الحكمة الأبدية .. لا تعني دورةً آلية ، أو عودةً عفوية لعقارب الحياة في مكان ما من العالم بحيث تتكرر المسيرة ذاتها إثر كل حقبة من الزمن ولدى أمة من الأمم .

لا .. ليس الأمر كذلك .. بل الحكمة فيها ، أنه في حال حدوث ظاهرتين ، أو حدثين مشابهين في الوصف ، ومتحدين في العلة والأسباب فإن النتيجة تكون ذاتها ، والحكم التاريخي يتكرر بتمامه،وإن تمَّ الإختلاف مكاناً وزماناً .

وعلى سبيل المثال،نقول ضمن هذا السياق ،أنه مامن أمةٍ من الأمم تفككت أوصالها ، وشاع فيها الفساد ، ودبت الفوضى في أركانها ، وأصبحت انسلطة غايةً بحد ذاتها ، إلا اسْتُبيحت لغيرها من الأمم ، وصارت لقمةً سائغة لغزاة عصرها .

كذلك ما من أمة من الأمم استعادت عافيتها وجمعت أمرها ووحدت آلهتها في إله واحد،إلا وهزمت الغزاة الطغاة ولو بعد حين .. وما من أمة من الأمم هُزِمت من الخارج ، بل كل الهزيمة التي تلحق بها إنما كانت وما زالت

من داخلها ذاتها ! .. وما من ظلمٍ وقهرٍ مُورِسَ على أمة من الأمم إلا واستفاقت من سباتها ، وثارت على طغاتها كما يثور البركان الهائج .

هذه الحكمة الأبدية ليست من قبيل الرجم بالغيب ، إنها الحقيقة التاريخية الإنسانية التي تستند إلى علم القياس والمنطق والاستنباط الرياضي لقوانين التطور التاريخي للمجتمعات البشرية .

وإذا كان الأمر كذلك في اتحاد ظاهرتين بالوصف والعلة،فإن الصيرورة هي نفسها والحكم التاريخي هو ذاته ولو اختلفتا مكاناً وزماناً ،فكيف بنا لا نستنبط الحكمة ، ونستشف الرؤيا المستقبلية لأمتنا العربية الأكثر عراقةً بين الأمم ، وهي الأغنى تجربةً وعراكاً مع الغزاة قديمهم وحديثهم ، وهي التي صنعت التاريخ الإنساني مُذْ وجدت الإنسانية على الأرض ، وإنها تملك في ذاكرتها ما لا يملكه غيرها من الأمم ، وفي جعبتها من الدروس والعبر والمحن وتجارب الماضي مايعزز ثقتها بالحاضر والمستقبل .. أمتنا أم الأمم ، الممزقة اليوم والتي تتلمس طريق الخلاص من الذئاب وقد كثرت من حولها ، في وسط هذا الزحام الإنساني على طريق الحياة والتطور ، وفي مواجهة غزاة طغاة جدد .. هذ الحكمة الأبدية التي أوجدها أجدادنا لنا ولغيرنا من تجاربهم الطوال ، مازالت حيةً تترنم وفيها الحياة ، ويتجدّد في أبجديتها التاريخ الإنساني ، ويتدفق بها الإنسان العربي أصالةً وعطاءً ، لا سيما وأن المكان هو ذاته ، والغزاة هم أنفسهم،ولو تبدلت أسماؤهم ، وإنساننا العربي مازال هو ذاته أيضاً ويعيش على أرضه العربية ذاتها ما فارقها قط .

ففي نفس المكان من العالم ، في أرضنا ذاتها قامت غزوات وغزوات ،

وشهدت ويلات وويلات ، وإنساننا العربي مازال في أرضه متشبثاً بترابها ، كما بأمجادها يشهد كل ذلك من الأعاصير ، دون أن يفقد شيئاً من كينونة وجوده أو سر خلوده،إنساننا العربي مازال يتفاعل مع كل الأحداث والمحن تفاعلاً حضارياً خلاقاً ، بكل كبرياء وشموخ . يتعثر أحياناً ، ولكن دون أن يسقط ، يتيه تارةً ، ولكن دون أن يفقد الرؤيا السليمة ، يكبو حنيناً ؛ ولكنها كبوة فارسٍ مجرب دون أن تخبو جذوة الحياة الدفاقة المتجددة في صدره .

إنساننا العربي هو .. هو ذاته مازال تَوّاقاً اليوم لصنع التاريخ الإنساني الجديد ، كما صنعه وأبدع فيه أبوه وجدّه بالأمس .

إننا نجيل النظر في الماضي لامفاخرةً ولاتيهاً ، لأن ذلك لايغني عن مواجهة الحاضر والمستقبل ؛ كما أنها الذكرى تعود بنا إلى محنٍ دامية وكوارث جسيمة نزلت بأرضنا وحواضر عروبتنا،ليس من أجل أن نذرف الدمع الكسير أو نطلق الزفرات الثقال أسىً وحسرةً .. إن ذلك هروب من مجابهة الواقع إلى عالم الخيال والأحلام !

إننا نجيل النظر ملياً في واقعنا اليوم ، في واقع وتراث أجدادنا بالأمس ، لننطلق من ذلك كله إلى بناء واقع جديد ، متحرر من العقد والنقص ، كما من شتى أشكال الابتزاز والاستلاب والهيمنة والقهر .

إنا نعود إلى الماضي ، لنصنع المستقبل ؛ لنعزز الثقة الأكيدة بغدٍ مشرق آتٍ لا يهبط لتوه من السماء ؛ بل نصنعه بأيدينا ونجبله بدم شهدائنا وعرق أبناء أمتنا .

ولنا في تاريخنا الزاخر بالتجارب مايثبت هذه النظرة المستقبلية

المشرقة لإنساننا العربي في أرضه العربية الخالدة .. وبين الماضي والحاضر أوجه متشابهات لا تتسع لها الكتب والمجلدات .

إنني أضع بين أيديكم في هذه العجالة بعضاً من فيض تاريخنا الحافل بالذكريات ، لعلي آتيكم منه بقبسٍ يضيئ الدرب لشبابنا ، وفتِيَتنا في وسط هذا الزحام وقد كثرت الخفافيش والبوم من حولنا وهي تنعق شؤماً ويأساً في تسبيط عزيمة إنساننا العربي ، لتجرفه بعيداً عن مواجهة ذلك التفوق السحري والقوة التي لاتقهر - حسب زعمهم - للفاشية الصهونية ، تماماً كما رَوَّجوا ذلك بالماضي لأمجاد هرقل وكسرى ، وذي القرنين من قبلهم، ومع ذلك فقد هزموا في ذي قار . والقادسية ، واليرموك ، وحطين ، وعين جالوت .. وبور سعيد،وعلى هذه الأرض ذاتها ؛ وتجرّعوا هم ، وغيرهم كثر من بعدهم كأس الهزيمة حتى ثمالته ، وأصبحوا من بعد ذكرهم خبراً ، أو قل مُزّقوا مزقاً ، وكذلك هي ذكرى مقاتلنا العربي فى أمجاد حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، نعاودها سيرتنا الأولى ..

إنك تعرف جيداً ، ويعرف معنا العالم أجمع كذلك أن الإنسانية بأبيها آدم ،وأمها حواء بدأت مسيرتها مع التاريخ من أرضنا ، فعلى أرضنا العربية الخالدة شمخت أولى الحضارات ، وقامت أعرق الممالك والدول في العالم ؛ وأمتنا هي التي صنعت التاريخ وأنجبت المعارف والعلوم والفنون وأشادت الأهرامات والقناطر وعمرت الأرض فسمتها بالمعمورة .

وفي غفلةٍ من التاريخ،وعندما تراخت عظمة الدولة في بابل ، ووادي النيل ، وقعت أمتنا تحت هيمنة الغزاة من فرسٍ ، وإغريق وروم ؛ الذين

تقاسموا أرضنا ولقرونٍ طوال ؛ ولكن دون أن تغيب هويتنا العربية يوماً عن هذه الأرض رغم كل ماتعرضت له من عمليات التذويب ، وأشكال القهر والاستلاب .

ومع مطلع القرن السابع الميلادي حدث تغير جذري في بنية المجتمع العربي في الجزيرة العربية ، إثر ثورةٍ كبرى صححت مسار التاريخ الإنساني وأعادت الأمة العربية إلى مكانها الطبيعي الذي سبق لها أن تبوأته في الحضارة الإنسانية . هذه الثورة نسفت كافة أركانات المجتمع القديم ، مما مَكَّنَ العرب من طرد الغزاة من فرس وروم وتحرير أرجاء الوطن العربي في غضون عشرين سنة فقط ، مما مايزال يتحوذ اهتمام وإعجاب مؤرخي العالم أجمع ، ويباحثيه ليومنا هذا .

فبين دعوته الثورية والإنسانية في عام الهجرة ٦٢٢م ، وبين تحرير كامل الأرض العربية في شبه جزيرة العرب وشمالي إفريقيا مدة وجيزة جداً لا تزيد عن عشرين عاماً ، حيث أنهى العرب الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها إثر معركة نهاوند عام ٦٤٢م في فارس ذاتها ، وحرروا مصر وشمال إفريقيا في نفس العام ، وحرروا سوريا وحتى جبال طوروس قبل ذلك بسنوات .

إنه من الإجحاف بمكان بحق التاريخ القومي والإنساني معاً ، النظر إلى دعوة النبي العربي محمد(ص) المتمثلة برسالة الإسلام العظيم ، على أنها مجرد ، دينٍ جديد في إطار من الروحانيات التي تاقت إليها النفس الإنسانية المعذبة. فمع أنها شكلت ثورةً في الجانب الإنساني ، فإنه لا يمكن

فصلها عن إطارها الزماني والمكاني الذي تمخضت عنه في شبه جزيرة العرب وماحولها ، والتي كانت تخضع لقوى الاحتلال الأجنبي من فرسٍ ورومٍ معاً .
وليس من قبيل المصادفة أن تتزامن وتترافق شخصيته الفذة التي لم يعرف التاريخ الإنساني مثيلاً لها بعد محمد (ص)، مع النفحات الأولى للتمرد العربي الذي ثار في ملحمة ، أو قل في بركان ذي قار حوالي عام ٦٠٤م ، والتي قال فيها محمد(ص): « هذا أول يوم فيها انتصفت العرب من العجم وبي نصروا » . ولنمعن التفكير في قوله : « وبي نصروا »،أليس ذلك كل التأكيد على أن محمد(ص) كان يمثل الحق العربي والتمرد الثوري العربي ، في مواجهة الغزو الأجنبي الذي جثم لقرونٍ طوال على صدر أمتنا ، ناهيك عما حمله الحق العربي الذي تجسد آنذاك في رسالة الإسلام العظيم من جوانب حضارية وإنسانية مضيئة للبشرية بسرها دون تمييز .

وبقيام دولة عربية فتية في صدر الإسلام اندفع العرب يحملون راية ثورتهم في إقامة دولة عالمية جديدة تعم الكون وينتفي فيها الظلمُ الإنساني بكافة صوره ، وتذوب فيها كافة الأمم في صرح دولة أممية إنسانية منشودة أطلق عليها أجدادنا اسم « دار السلام » في مواجهة « دار الحرب » لدى خصومهم غزاة الأمس .

(حول مفهوم دار السلام كدولة أممية أنسانية عامة - انظرالقانون الدولي الخاص طبعة ١٩٨٧ ص ٩٠ - ٩٣ لمؤلفه دكتور فؤاد ديب ، وكذلك كتابه أيضاً تنازع القوانين طبعة ١٩٨٦ صفحة ٤٤ جامعة دمشق) .

وكاد العرب يحققون حلمهم المنشود في دار السلام ، وكانوا منه قاب

قوسين أو أدنى . لقد اندفعت جيوشهم شمالاً وشرقاً وغرباً .

وتحطمت أمامهم كافة السدود وهم يحملون راية ثورة إنسانية كبرى .

لقد توغلوا في عمق الإمبراطورية البيزنطية،ووصلوا شواطئ البحر الأسود غربي قزوين (بحر الخرز) في بلاد الخزر بدءاً من عام ٢٢ هـ / ٦٤٢م ، وسيطروا بعدها على عاصمة مملكة الخزر « أتل » قبل أن تدين مملكة الخزر باليهودية .

ونشيرهنا إلى أن العرب هم الذين أطلقوا على عاصمة الخزر (أتل) اسمها الذي عرفت فيه فيما بعد باسم (البيضاء) وذلك لبياض الأرض الكلسية حولها ، وهذا ما يعنيه اسمها بالروسية بـ (بيلا - فيزا) كما سمّاها بذلك العرب .

وفي الشرق فتح العرب بلاد السند ، وسقطت بأيديهم عاصمتها ومرفأها الديبل عام ٩٣ هـ / ٧١٢م على يد القائد العربي محمد بن القاسم الثقفي ولم يتجاوز عمره آنذاك سبعة عشر سنة من عمره ، وهو ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي . في الوقت الذي أصبح فيه وجود الإمبراطورية البيزنطية مهدداً بالزوال ، ولم يُنقذها سوى تحالف بيزنطة مع مملكة الخزر التي تهودت آنذاك ، في وقت كان فيه العرب يشهدون صراعاً على السلطة تمثل بانتقال مركز الدولة العربية من دمشق الخلافة الأموية ، إلى بغداد إثر قيام الخلافة العباسية .

ومن الثابت في التاريخ أن بيزنطة دفعت الجزية للخلافة العربية الإسلامية في دمشق بدءاً من عام ٧١هـ / ٦٨٩م إثر معاهدة صلح بين

القسطنطينية ودمشق في عهد عبد الملك بن مروان . وبقيت كذلك ردحاً كبيراً من العهد العباسي بعد العهد الأموي .

ولدى اعتلاء الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢ إلى ٨١١ م) عرش بيزنطة في القسطنطينية إثر خلعه الملكة إيريني ، كتب إلى هارون الرشيد في بغداد :

« من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب . أما بعد .. فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ماكان عليك أن تحمل أمثالها إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فأرود ماحصل قبلك من أموالها ، وأنقذ نفسك ، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك ».

فما كان من هارون إلا أن كتب على ظهر كتاب نقفور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ماتراه دون أن تسمعه والسلام » ، ثم خرج إليه لملاقاته في عقر داره حتى أجبره على دفع الجزية مذعناً . (انظر كتاب تاريخ عصر الخلافة العباسية لمؤلفه دكتور يوسف العش . صفحة ٨١ - دار الفكر دمشق ١٩٨٢م) .

وباتجاه الغرب فتح العرب الأندلس عام ٩٦ هـ / ٧١٤م على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وتوغلوا في أوربا وفي عمق فرنسا حيث سقطت في أيديهم مدينة بواتييه الفرنسية ، وتوقفوا على مقربة من مدينة تور إثر معركة بلاط الشهداء عام ١١٤هـ / ٧٣٢ م التي استشهد فيها

القائد العربي عبد الرحمن الغافقي .

وفي ظل دولة قوية شملت مساحة شاسعة من العالم من بلاد السند شرقاً إلى الأطلسي والأندلس غرباً ، قطع العرب أشواطاً كبيرة من الرقي ، وأغنوا العلوم والمعارف والصناعة والزراعة وانتقلوا بالحضارة الإنسانية إلى مواقع متميزة تركوا بصماتهم فيها ليومنا هذا ، حتى أصبحوا بحق هم المؤسسون الحقيقيون الذين أرسوا دعائم المدينة المعاصرة .

وما كان للعرب أن يحققوا كل ذلك بدون بنية اجتماعية متماسكة وعقيدة ثورية خلاقة ، وسلطة مرهوبة الجانب منظمة أدق تنظيم تدير شؤون المجتمع والأمة وتربط أيما ربط بين حماية الوطن والمواطن على حد سواء .

ولا أبغي من عرض ماتقدم ، أن نعيد تلك الصورة المتألقة للمجتمع العربي في الخلافة الإسلامية آنذاك بكل خيوطها وجزيئاتها ونقوم بتطبيقها بشكل جامد حتى نصل إلى طريق الخلاص مما نعانيه اليوم من عقد ، وملفات الماضي من عهود عصر الإنحطاط والإستبداد .

إن الحل ليس كذلك ، لأن لكل مجتمع خصائصه المميزة التي يجب أن يُنظر إليها من خلال المرحلة التاريخية التي يمر خلالها ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى في القرآن الكريم « .. **وأمرهم شوى بينهم** » أي بإعمال العقل والحكمة للوصول إلى حلول لما يستجد من متغيرات المجتمع طبقاً لمراحل التطور التاريخي التي تواجه مسيرة الأمة .

وهنا أريد أن أبرز دور العقيدة الثورية والسلطة القوية القادرة على الإضطلاع بحجم المسؤولية في قيادة المجتمع والدولة والالتحام معاً في

واحدة واحدة كالجسد الذي وصفه النبي العربي محمد(ص) بقوله البليغ « ..إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

هذه البنية المتماسكة للمجتمع والدولة على حد سواء ، الغيورة على الوطن والمواطن معاً - أياً كان شكلها وصيغتها هي أمرٌ لازم ، وضرورةٌ حتمية لاغنى عنها في حياة أية أمة من الأمم . إن هذا هو ما علينا أن ندركه جيداً اليوم لاسيما ونحن نواجه الأخطار المصيرية التي تحدق بوجودنا الحضاري من كل صوب ، والتي تستهدف ابتلاع هويتنا العربية تماماً ، وتحويلنا إلى مجرد ذكرى يعالجها الشعر والأدب .

إن المبادئ والمثل والمنطلقات الفكرية والإيمان الراسخ التي حملها أجدادنا في عصرهم المشرق ، والتي تشكل اليوم مفهوم العقيدة الثورية - يجب أن تكون نابعةً من واقع الأمة ، ومعاناة الجماهير الواسعة في المرحلة التاريخية التي توجد بها ؛ من دون انفصال عن التراث والجذور - لأن في تراث الأمة روحها وكينونة وجودها ، وإرثها الحضاري ، وهويتها المتميزة مما هو لاغنى عنه في أي عصرٍ من العصور .

كما أن الدولة القوية المتماسكة البنيان ، هي بمثابة الجسد الصحيح البنية الذي يجب أن يتحمل أعباء المهام القومية والبناء الاجتماعي ، ويحتوي بين جوارحه العقيدة الثورية ؛ تلك الروح الجياشة والحياة المتجددة نحو صنع مجتمع جديد صحيح معافى من كل خلل .

هذا والروح بدون جسد تحوم وتحوم دون أن تقدر على شيء ..
والجسد بدون روح لا حراك فيه .. وهكذا تدور كل أمة من الأمم

كدورة الحياة ذاتها .

وإذا أردنا اليوم أن نتّعظ من عِبَر التاريخ ، وتجارب الماضي ، علينا أن نعي وندرك هذه الحقيقة أعلاه جيداً ، وهذا هو ماقصدت الوصول إليه .

إن الدولة العربية لإسلامية التي قامت وازدهرت منذ مطلع القرن السابع الميلادي ، وحتى أواسط القرن التاسع الميلادي ؛ ما كان لها أن تقوم وتشمخ بدون ذلك ؛ وأعني دون روحٍ وقَادّةٍ متدفقة في جسدٍ قوي صلب المراسى معافى . ولما بدأ الضعف والتفكك يدب فيها منذ وفاة الخليفة المعتصم ٢٢٧هـ / ٨٤٣م ، شاخت وهرمت وتحولت إلى صيدٍ ثمين فتكت به الذئاب من كل صوب ، أو قُلّ أصبحت كعنصرٍ ضعيف ، عبث به اللصوص والقراصنة في غفلةٍ عن أهله .. وماذلك مرده لوجود الذئاب الهائجة حول أمتنا أو لوجود قراصنة ولصوص التاريخ من حولنا ، فأولئك كانوا دائماً في كل دورة حياة ، وماأكثر وجودهم اليوم من حولنا !

إن سبب انهيار كياننا القومي في تلك الحقبة التاريخية ، والذي يجب أن ننظر إليه اليوم ونستقي منه العبر والدروس ، نجم من داخل أمتنا ذاتها آنذاك ، وبسبب غياب الروح وجمودها وتحجرها ، بالإضافة إلى مرض الجسد ذاته الذي لم يقدر ولم يقو على الوقوف لصد الذئاب الهائجة التي نهشت بأعضائهً ، وفتكت بحضارتنا آنذاك .

ولست هنا بصدد دراسة مدرسية لأسباب انهيار الحكم العربي ، وزوال الخلافة الإسلامية في دمشق وبغداد وقرطبة في الأندلس .. فقد أسهب في ذلك المؤرخون وما أكثرهم .. كل ماقصدته من سرد هذه العجالة التاريخية

هو أن نستشف المستقبل ، لنصنع المستقبل من خلال استقاء تجارب أمتنا مع التاريخ ، ومع الغزاة ، ومع التحديات و ما أكثر ذلك ! .. إن الجراثيم موجودة في الهواء الطلق ، وفي كل مكان من حولنا . ولكن الجسد الضعيف هو الذي تنهار مناعته ، ويصاب بالمرض عندما يتعرض لمؤثراته . أما الجسد السليم القوي البنية فهو الذي يتصدى للمرض ويقاوم الجراثيم . وإذا ما أصيب بالعدوى الجرثومية فإنها تكون عارضة وتزول بسرعة، مثلما تنكفئ الذئاب مولولةً على أدراجها عندما تجد من يتصدى لها ويردعها على أعقابها .

من هذا المنطلق يجب أن نفهم سبب نجاحات الغزاة الذين تعاقبوا على نهبنا وقهرنا ، وعبثوا بثروات أمتنا ، بدءاً من الفرس والإغريق والروم ، ثم مروراً من بعدهم بالصليبيين والمغول والتتار ، وانتهاءً بـ الصليبيين الجدد الإمبرياليين ، فالصليبيين الصهاينة .

ومن هذا المنطلق أيضاً يجب علينا اليوم أن نقود مسيرة التحرير والاسترداد العربي لعظمة الأمة ووجودها الخلّاق بين الأمم ، وحمل رسالتها الخالدة.هذه المسيرة التي سبق وقادها بنجاح أذهلت العدو قبل الصديق ، أجدادنا العرب الميامين بدءاً من النبي العربي محمد (ص) ، وليس آخراً صلاح الدين ، ورفاق صلاح الدين على دروب النضال والتحرير .

وإذا أمعنا النظر في مرض الروح والجسد لكيان أمتنا ، والذي بدأ يأخذ مكانه فينا منذ أواخر القرن التاسع للميلاد لتمثل لناذلك على النحو التالي : كلنا نعلم أن النبي العربي محمد(ص)، الذي قاد بنجاح رائع مسيرة

التحرير المظفرة الأولى ، قام باديء ذي بدء بتوحيد آلهة العرب ، وما أكثرها آنذاك (اللاة ، والعزى ، ومناة الآخرة الأولى ..) في إله واحد جلّ جلاله ، كقوة حق مطلقة ؛ فوحّد بتوحيد الله قبائل العرب المتناحرة قبلها ، من خلال تكريس عبوديتهم للّه وحده ، وتحريرهم من كل عبودية سواه . وقد غرس محمد(ص) في نفوس العرب صورةً نورانية متألقةً عن الله الواحد ، فأصبح هو الحق بكل مفاهيمة وأشكاله ، وهو الخير والكمال والجمال بكل صوره، وهو القوة العليا التي لا تقهر التي تنصف المظلوم من الظالم ، وتقف إلى جانب الضعيف في استرداد حقه . وأصبح الله الواحد الأحد هو الضمير الحي الذي لايغيب نوره عن الوجود لحظةً واحدة ، وهو الرقيب الخفي الموجود دائماً والذي لاتدركه الأبصار ، بل هو وحده يدرك كافة البصائر والأبصار ..

لنقرأ هذه الآية الكريمة في القرآن الكريم التي جاءت على لسان محمد (ص):

« اللهُ لا إلــهَ إلاّ هُوَ الحيُّ القَيّوم ، لاتأخذهُ سِنةٌ ولا نوم ».. آية الكرسي »

فبهذه الدعوة الثورية ، والعبقرية الخارقة التي لم تعرف البشرية مثلها من قبل ، استطاع النبي محمد(ص) والقائد العربي في نفس الوقت أن يحررّ الإنسان العربي من كافة أشكال الظلم والعبودية إلى عبودية الله تعالى الذي تمثل لهم في كل المعاني السامية الرفيعة ، والقيم والمبادئ الفاضلة والحق ، و الخير ، والمحبة ، والوطن ، والجهاد المقدس للذود عن الوطن وتحريره لتبقى فيه كلمة الله هي العليا ، ولا سلطةً ، ولا تسلط لأية قوة ظالمة على الأرض فيه !

وبتوحيد آلهة العرب في إله واحد ، تمكن محمد(ص) من توحيد العرب في كلمة واحدة ، جعل منهم قوةً خارقةً فاقت كل وصف وبلاغة ، كما أضفت عليهم طابعاً سحرياً في وجه معاصريهم ، حتى قيل فيهم بأنهم ، أي أجدادنا العرب قومٌ لايموتون بالقتال في الحرب ، بل يتوالدون بالقتل مرات ومرات .. هذا الإنطباع السحري الذي تركه أجدادنا من صحب محمد(ص) وجند محمد(ص)، لدى خصومهم كان من خلال اندفاعهم بعقيدة فولاذية نادرة ، لم تعرف للتضحية بالذات حدوداً تقف عندها ، أنشأهم عليها نبيّهم وقائدهم ومعلمهم ، بقوله تعالى في القرآن الكريم :

« ولا تحسَبَنّ الذين قُتِلوا في سبيل اللهِ أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزَقون » . هكذا توالت الانتصارات للعرب تترى في جنبات الأرض .

وهكذا تمكن أجدادنا من دحر أعظم قوتين في عصرهم ، الفرس والروم معاً،وتحرر كامل أرضهم العربية من المحيط إلى الخليج ومن جبال طوروس أقصى الشمال إلى أقصى جنوب شبه جزيرة العرب في فترة زمنية قليلة جداً في عمر الشعوب والأمم ، لم تتعدى العشرين سنة فقط .

.. ولما تضعضعت تلك العقيدةالثورية التي تألّق أجدادنا بها ، وأصابها الجمود والإنحراف ؛ كانت الكارثة ، ولم تقو على حراك الجسد ، الذي ضعف وانهار أمام هجمات غزاة جدد .

ولقد تمثل هذا الإنحراف آنذاك ، في تجزئة الله الواحد إلى آلهة متعددة شتى، أسكنوها في أشخاص ملوكهم ، وسلاطينهم ، وأمرائهم وأئمة

مذاهبهم المتناحرة ، فحوّلوا الدين الواحد ، والعقيدة الواحدة إلى أرباب متعددة ، وأديان متنافرة ، وملوك وأئمة متصارعة كل منها يقدّس ربه بالشكل الذي يشاء وفي الشخص الذي يشاء ؛ وكل أميرٍ أو ملك من أمراء وملوك تلك الدويلات التي تناثرت هنا وهناك ، وهي أكثر من أن نحصرها في هذه العجالة ، كل منهم اتخذ لنفسه عقيدة ، ورباً ، ومذهباً دينياً مغايراً يشكل من الوجهة الواقعية غطاءً سياسياً وإعلامياً يحمي به وجوده واستمراريته في مواجهة خصم آخر . وهكذا تمزقت قوة العرب وشاخت وهرمت في عصر الإنحطاط والطوائف والدويلات ، وأصبحت شهوة السلطة والحكم عندهم آنذاك ، غايةً كبرى بحد ذاتها .

لقد انتشرت المذهبيات عندها بشكل لم يُعرف من قبل أيام محمد (ص) وما تزال تعشعش في أوكار متناثرة هنا وهناك ، والتي ما انفك يغذّيها الغزاة أنفسهم ، وعلى الأخص اليهود التوراتيون الذين كان لهم دوراً بارزاً في إيجادها ، لِدقّ إسفين التفرقة والإنقسام بين العرب . لقد تحولت العقيدة العربية الثورية التي حملت العرب إلى أمجادهم ، من طاقة خلاقة، وينبوع ثرٍ للإلهام والإبداع الحضاري والإنساني ، إلى كوابح مرعبة تقتل العقل والجسد معاً ؛ إلى خلافات ومشاحنات سفسطائية لست هنا بصدد تفصيلها وإضاعة الوقت في سردها .

هكذا ضعف الجسد العربي الذي كان عملاقاً يومها .. ثم تمزق إلى أشلاءٍ تناثرت هنا وهناك ، بحيث أصبح كل منها على مقربةٍ من الذئب الذي يتربصً لابتلاعه ، أكثر من التصاقه بالجسد الأم في الوطن العربي الواحد

الذي ينتمي إليه .

ذلك الواقع الذي آل إليه العرب في تفككهم وضعفهم ، من بعد وحدتهم وقوتهم ، وكان سبباً مباشراً في وقوعهم فريسة الغزوات والإحتلالات التي لم تنته بعد .. هو ماسنعرضه في الصفحات التالية .

الواقع العربي ، غداة الاجتياحات الصليبية المغولية

عزيزي القارئ . إذا عدنا بذاكرة أمتنا العربية ، التي تألمت طويلاً وعانت كثيراً إلى فترة ماقبل الاجتياحات الصليبية التي تلاحقت باجتياحات مغولية ، لوجدنا صورة قاتمةً للمجتمع العربي وهو يمر في أحلك عصوره التي عرف بها باسم « عصر الإنحطاط » .

لقد شاخت القوة العربية وهرمت عندما تفككت الدولة العربية أو قل الخلافة العربية الإسلامية ، كما كانت تسمى آنذاك ، فأصبحت ثلاث خلافات أو قل ثلاث دول متصارعة متناحرة ، واحدة في بغداد ، وثانية في مصر هي الخلافة الفاطمية ، وثالثة أموية في الأندلس .

مع الإشارة إلى أن الخلافة العباسية في بغداد قامت عام ١٣٢هـ / ٧٤٩م وورثت سيادة الدولة العربية الأموية في دمشق ذات الرقعة الواسعة الشاسعة من البلاد . وفي عام ٩٠٩م قامت الخلافة الفاطمية في تونس وشملت بعدها المغرب العربي ، وامتدت ليصبح مركزها في مصر على إثر زحف جوهر الصقلي على رأس جيش الخليفة الفاطمي المعز لدين الله معد على الفسطاط (القاهرة اليوم) عام ٩٦٩م حيث أسقط حكم الأسرة

الإخشيدية ذات الأصول التركية التي حكمت مصر تحت تبعية الولاء للخلافة العباسية في بغداد .

وفي الأندلس نجد عبد الرحمن بن محمد الذي عرف بـ عبد الرحمن الثالث قد أعلن قيام الخلافة الأموية في قرطبة عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨م وأصبح يعرف باسم الخليفة الناصر لدين الله . مع العرض أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي عُرِف باسم عبد الرحمن الداخل أو باسم « صقر قريش » هو المؤسس الحقيقي للدولة الأموية في الأندلس بدءاً من عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥م .

(انظر تاريخ عصر الخلافة العباسية لمولفه دكتور يوسف العش دار الفكر دمشق) .

هذا وإن كلاً من الخلافات الثلاث قد تجزأ وتفكك في دوره إلى إمارات ودويلات شتى هي أكثر من أن نحصرها في هذه العجالة ..

ففي بغداد نجد الخلافة العربية العباسية وقد تحولت إلى مجرد غطاءٍ اسمي أخفى خلفه نفوذاً أجنبياً ، ووجوداً حقيقياً لأقوامٍ وأسر غريبة عن الأمة العربية ولاتشعر بأي ولاء لها ، حكمت باسم الخلافة الإسلامية وكانت هي صاحبة القرار والسلطة الفعلية في بغداد ، مع حفاظها على طابع الولاء للأسرة العباسية التي حكمت باسمه ، كغطاء إسمي صوري وذلك بفرض الحفاظ على وجودها الفعلي كقوة أجنبية مسيطرة .

وفي الأندلس نجد الوضع ذاته في بغداد . فالدولة العربية الأموية التي شمخت في عهد الخليفة الناصر (عبد الرحمن الثالث) ، نجدها قد تشرذمت وتفككت إلى إمارات ودويلات متناحرة متصارعة بدءاً من عام

٤٢٢ هـ / ١٠٣٠م حيث دخلت ماعُرِف في تاريخ الأندلس باسم « عصر ملوك الطوائف والانقسام » .

ولم يكن الوضع في مصر وشمال إفريقياً بأحسن مما هو عليه في بغداد والأندلس ،فالخلافة الفاطمية دخلت في الوقت ذاته في صراعات عسكرية وعقائدية مع الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الأموية في الأندلس . هذا ناهيك عن الانقسامات الداخلية داخل الخلافة الفاطمية ذاتها ووقوع كل من الخلافات العربية الإسلامية الثلاث تحت تأثيرات قوىً أجنبية وأسرٍ غريبة أحكمت سيطرتها ونفوذها على الحواضر العربية ، وبسطت هيمنتها على العرب ودولهم تحت رابطة الولاء الإسمي لكل من الخلافات الإسلامية الثلاث ، حيث كانت هذه القوى الأجنبية هي صاحبة السلطة الفعلية في الحواضر العربية المتصارعة ، وهي استثمرت الصراعات الداخلية بين الحواضر العربية ، ونمت في ظلها . ولنتناول ذلك بشيء من التفصيل :

ففي بغداد ومنذ عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م سيطرت الأسرة البويهية ذات الأصول التركية سيطرةً شبه كاملة على الخلافات الإسلامية فيها ، مع الإبقاء على الغطاء الإسمي للخليفة العباسي الذي عُرِف بلقب (المستكفي) آنذاك والذي منح أحمد بن بويه لقب « معتز الدولة » ، مع العلم أن هذا الأخير قد آلت إليه كافة السلطات الفعلية للخليفة العباسي ، الذي اكتفى منها بلقب « الخليفة المستكفي » !

وبدءاً من عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م سيطرت على الخلافة العباسية في بغداد الأسرة السلجوقية نسبة إلى جدهم سلجوق ، وهم قبائل من أصول

تركية أيضاً ، حيث نجد الخليفة « القائم بأمر الله » وقد منح طغرل بك السلجوقي لقب " سلطان " والذيّ استمر الحكم في أسرته لغاية الاجتياح المغولي لبغداد على يد هولاكو ومقتل الخليفة العباسي فيها " المستعصم " عام ١٢٥٨م.هذا مع الإشارة إلى أن الخلافة العباسية في بغداد التي رَزَحت تحت وطأة السلطان السلجوقي ، قد شهدت ظهور عدد كبير من الدويلات والإمارات ذات الإستقلاق النسبي والتابعة برابطة الولاء للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي معاً .. هذه الدويلات التي حكمها أسر عربية ، وغير عربية في معظمها ، والتي طغى عليها لفظ « الأتابكيات » .

مع العلم أن « الأتابكية » هي لفظ تركي لغةً استُخدم للدلالة على إمارة أو دويلة ذات تبعية للسلطان السلجوقي في بغداد . وضمن هذا السياق نجد أتابكية الموصل ، وأتابكية أنطاكية، وأتابكية دمشق وهكذا بالإضافة إلى الإمارات التي حكمتها أسرٌ عربية مثل :

الدولة الحمدانية في حلب التي حكمها علي بن عبد الله بن أبي الهيجاء الحمداني من قبيلة بني تغلب ، وهي من أشهر القبائل العربية التي كانت تقطن أعالي الجزيرة العربية في فترة ماقبل الفتوحات الإسلامية واستمرت بعدها .مع الإشارة إلى أن علياً المذكور عُرف باسم (سيف الدولة الحمداني) الذي استلم إمارة حلب عام ٣٣٣هـ/٩٤٤م بمساندة أخيه الحسن والي الموصل الذي كان يُعرَف بلقب « ناصر الدولة » .

وإن السلطة بقيت في أسرة سيف الدولة الحمداني لغاية حلول أسرة صالح بن مرداس عام٤١٥هـ/ ١٠٢٥م(قبيلة كلاب العربية)،محلّها،فأصبحت

إمارة حلب بعدها تعرف باسم الدول المرداسية التي عاصرها الشاعر أبي العلاء المعري .

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الإمارات والدويلات المتناثرة مثل دولة طرابلس التي حكمها أمراء عرب من أسرة آل عمار عام٤٦٠هـ / ١٠٦٩م،ودولة شيزر قرب حماه لأمرائها من الأسرة المنقذية،وإمارة صور التي حكمها أمراء آل عقيل . وهكذا .

(للتفصيل انظر تاريخ العصر العباسي . دكتور سهيل ذكار - جامعة دمشق طبعة ١٩٨٢).

وكما وقعت بغداد تحت تأثير ونفوذ العناصر التركية من الأسرة البويهية ، والسلجوقية بعدها ، كذلك وقعت الخلافة الفاطمية في القاهرة تحت هيمنة عناصر غريبة يهودية تارةً ، أرمنية تارةً أخرى،مع الإبقاء على الطابع الاسمي للخلافة الفاطمية المتصارعة مع الخلافة العباسية في بغداد .

وقد بدأ ذلك واضحاً في فترة حكم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله معد ، حيث تمكن اليهودي يعقوب بن كلسي الذي تظاهر بالإسلام قبلها ، من الوصول إلى منصب الوزارة في عهده ، وأكثَرَ من الإعتماد على العناصر اليهودية خاصة في إدارة المال والإقتصاد لمرافق الدولة الفاطمية .

ومن الملفت للنظر أن يعقوب بن كلس الذي استلم وزارة الخلافة الفاطمية في عهد المعز،ثم استمر بعدها في عهد ابنه الخليفة العزيز بن المعز، كان بالإضافة إلى ذلك فقيهاً من فقهاء الخلافة الفاطمية وألَّفَ كتاباً معتَمداً في الفقه الإسماعيلي ووضع أسس الإدارة الفاطمية في مصر ؛ وهو

نفسه اليهودي الذي هاجر من العراق ووضع نفسه تحت تصرف الأسرة الإخشيدية في مصر واستلم إدارة المال فيها في عهد كافور الأخشيدي ثم استمر بعدها واضعاً نفسه تحت تصرف الخلافة الفاطمية وكان قد أظهر إسلامه في عهد كافور مع بقائه على يهوديته . ومما يثبت ذلك أن وثائق الجنيزا التي عثر عليها في معبد يهودي في القاهرة القديمة ، تشير في أكثر من موضع فيها بكلمات الرب يهوه ، ووصاياه .

هذا وبعد وفاة يعقوب بن كلس الذي لم يُخفِ يهوديته رغم تظاهره بالإسلام ، فقد عهد الخليفة العزيز بن المعز لإدارة المال إلى يهودي آخر عرف باسم « منشأ بن ابراهيم » الذي أكثروالآخر من العناصر اليهودية في إدارة البلاد ، مما حدا بأحد المسلمين وقد عَمَّ الفساد البلاد أن يكتب إلى الخليفة العزيز في القاهرة بكتاب جاء فيه :

(ياأمير المؤمنين .. بالذي أعزَّ اليهود بمنشأ ابن ابراهيم ، وأذلَّ المسلمين بك .. ألا نظرت في أمري ؟) (انظر د. سهيل ذكار المصدر السابق ص. ٢٥).

وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر الذي امتد حكمه من ١٠٣٦م إلى ١٠٩٤م (٥٨عاماً متصلة)، شغل منصب الوزارة اليهودي أبو نصر صدقة ومعه في وزارة المال اليهودي أبو سعد الذي لقّب بـ (التستري) نظراً لتستره بالإسلام ظاهراً ، وقد فاضت به يهوديته ، فعمَّ الفساد الإداري والمالي كل أرجاء مصر . وقد سجل لنا الأدب العربي عندها هذه الصورة القاتمة من سيطرة العناصر اليهودية على مقاليد السلطة في الخلافة الفاطمية

في مصر ، وعبثهم بثروات البلاد وابتزازهم للمواطنين فيها ، فأنشد الشاعر المصري حسن بن خاقان وقد تململ من وطأة اليهود ، فصرخ في شعره :

يهود هذا الزمان مذ بلغــوا ... غاية آمالهم وقـد ملكــوا

العزُّ فيهم والمالُ عندهـــــمُ ... ومنهم المستشــار والملـكُ

ياأهل مصر إني نصحتُ لكم ... تَهودُّوا فقد تهــوَّد الفلكُ

انظركتاب الصهيونية جريمة العصرالكبرى لمؤلفه د.عبداللطيف شرارة صفحة٢٤.

هذا وقد ورثت العناصر الأرمنية مراكز النفوذ في الخلافة الفاطمية ، فحلت محل العناصر اليهودية في إدارة البلاد . ففي عام ١٠٧٤م في عهد الخليفة المستنصر ذاته ، تمكن ضابط أرمني وهو بدر الجمالي من الإستيلاء على منصب الوزارة في مصر في شبه انقلاب عسكري ليومنا هذا ، حيث قام بعدها بالسيطرة الفعلية على الخلاف الفاطمي وتضييق صلاحيات الخليفة ذاته بحيث لم تتعدى بعدها شؤون قصر الخلافة في القاهرة . وخلف بدر الجمالي في الوزارة ابنه الأفضل بن بدر الجمالي عام ١٠٩٤م الذي استولى على فلسطين وحل محل أسرة الأراتقة السلجوقية في حكمها في آب ١٠٩٨م قبيل الغزو الصليبي بأشهرٍ قليلة فقط . وبقيت أسرة بدر الجمالي ذات النفوذ الأرمني تسيطر على الخلافة الفاطمية لغاية الإجتياح الصليبي للشام ومصر معاً .

هذا وقد ثبت تواطؤ العناصر الأرمنية في مصر بعدها مع الغزاة الصليبيين ، حيث حملوا الخليفة الفاطمي على تحويل مصر إلى محمية صليبية تدفع أتاوة سنوية لمملكة بيت المقدس بلغت ستين ألف دينار ذهبي

سنوياً لقاء حمايتهم من خطر الخلافة العباسية في بغداد حسب زعمهم .. وقد استمرت الحماية الصليبية على مصر ، لغاية قدوم صلاح الدين الأيوبي مع عمه أسد الدين شيركوه من الشام حيث قضوا فيها على النفوذ الأجنبي والحماية الصليبية معاً عام ١١٦٩م بعد مقتل الوزير شاور الأرمني ، وذلك في عهد الخليفة الفاطمي العاضد في مصر .

وفي الأندلس،لم يكن الحال بأحسن مما كان عليه في بغداد ، والقاهرة، ففي قرطبة حاضرة الأندلس أَسْنَد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث منصب الوزارة إلى طبيبه الخاص وهو اليهودي الذي بقي على يهوديته جِهاراً دون أن يتظاهر بغيرها ، والذي عُرِف باسم حسداي بن شبروط وهو نفسه الطبيب اليهودي بار اسحق بن شبروط الذي أدار دفّة الدولة وسخّرها لتخدم رجال المال اليهود في الأندلس . ولما تحالفت بيزنطة مع مملكة الخزر اليهودية في مواجهة جيوش الخلافة الإسلامية في بغداد ، قام الوزير حسداي بن شبروط بحنكته السياسية في كسب ود بيزنطة لصالح الخلافة في الأندلس،حيث نجح في تحييدها بعيداً عن مسرح الأحداث والصراع المسلح بين الخلافة في بغداد وتحالف بيزنطة مع مملكة الخزر اليهودية ، مستفيداً من العداء الموروث بين الخلافة الأموية في الأندلس ، والعباسية في بغداد .

أما اتصالات الوزير اليهودي هذا مع كاجان الخزر يوسف (ملك الخزر) ورسائله معه فهي ثابتة،وقد فاضت فيها يهوديته الحاقدة على أولياء نعمته العرب . مع الإشارة إلى أن قسماً من هذه الرسائل مازال محفوظاً في مكتبة لينغراد السوفيتية والتي تعود إلى فترة حكم الخليفة عبد الرحمن

الثالث (٩٢٨ إلى ٩٦٠م) (انظر كتاب امبراطورية الخزر لمؤلفه البريطاني آرثر كوستلر طبعة ١٩٧٦ - الدراسات الفلسطينية صفحة ٨٧) .

وكما في مصر ، كذلك في الأندلس قام الأدب العربي بتسجيل تلك الصورة القاتمة لهيمنة العناصر اليهودية على إدارات الدولة . فهذا المؤرخ العربي المسعودي يصف ويحدد من شرور اليهودية في الأندلس بقوله :

(.. وكان من عجائب ذلك الزمان ، الواهي النظام ، اللاعب بالأنام ، ترقي ذلك اليهودي الزاري على كل ذي دين ، فقُلِّد دفّة الأعمال) .

هذا وكان للعناصر اليهودية المرابية دوراً بارزاً في إفساد الخلافة الأموية في الأندلس ، وتمزيقها إلى ما عُرِف باسم دول الطوائف المتصارعة، بدءاً من عام ١٠٣١م حيث بقي اليهودي في كل منها هو سيّد السلطة الفعلية .

فهذا شاعر أندلسي يناشد ملك غرناطة الذي عُرِف باسم (أباديس) ، يستثير حميته ضد وزيره اليهودي (ابن تغراله) الذي انفضح أمره في دس السم لابن أباديس وقتله ، بسبب معارضة المغدور لليهود وبغضه لهم ، فبكى الشاعر في شعره واقع غرناطة التي استبد بحكمها اليهود :

أباديس أنت امرؤٌ حاذقٌ ... تصيب بظنِّك مرمى اليقين
فكيف تحبُّ فراخ الزنا ... وقد بغَّضوك إلى العالمين
فقد ضجت الدنيا من فسقهم ... وكادتْ تَمِيدُ بنا أجمعين

(انظر دكتور عبد اللطيف شرارة الذي سبق ذكره) .

وخلاصة القول أن الاجتياحات الأوربية التي تلاحقت باتجاه المشرق

العربي بدءاً من نهاية القرن الحادي عشر ، والتي تعاصرت بعدها مع اجتياحات المغول فالتتار ، لا يمكن فصلها عن الواقع العربي المتفكك الذي شكل المناخ المناسب لها ؛ ذلك الواقع الذي شهد تشرذماً في دويلات متناثرة تحكمها أسرٌ متصارعة ، تسيطر عليها عناصر أجنبية غريبة ، وقد لبست تلك الأسر الحاكمة ثوب الشرعية في اللاشرعية المذهبية الطائفية التي أوجدتها كإطار عقائدي فكري يكرس وجوداً سياسياً في مواقع السلطة المتصارعة في مواجهة بعضها البعض بالاعتماد على العناصر الأجنبية الدخيلة .

في الوقت الذي كانت فيه جماهير العرب ترزح تحت وطأة الهيمنة الأجنبية ، والاستغلال الجشع ، وتتحول إلى مجرد سلعة تجارية ، أوْ قُلْ أرقّاء أرض ، وجند مماليك في خدمة الأغراض السلطوية للأسر القبلية الحاكمة في الحواضر العربية آنذاك ، والتي بنت لنفسها أبراجاً عاجية من العظمة الزائفة ، قبعت فيها بعيداً عن هموم الوطن الكبير وأوجاع الإنسان العربي.

إن الكيان العربي في فترة ماقبل الاجتياحات الصليبية والمغولية ، كان يعيش عصر الإنحطاط بكل ماتحمله هذه الكلمة من معاني البؤس ، والتخلف والجمود والانقسامات المتناحرة . فبغداد كانت ترزح تحت هيمنة سلاطين السلاجقة الأتراك الذين انساحوا في بلاد الشام ، فأطبقوا مخالبهم عليها في نهبها وتدميرها وإضعافها . كما أن مصر والأندلس كانت بمثل ذلك من الفوضى السياسية والإدارية وهيمنة العناصر الأجنبية عليها .

هذا بالإضافة إلى الصراعات المسلحة التي شهدتها المنطقة العربية بين الخلافتين الإسلاميتين المتناحرتين في بغداد والقاهرة ، والصراعات المذهبية الأخرى في شمالي إفريقيا، وأهمها بين حركة المرابطين ، وحركة الموحدين في

المغرب العربي .. ناهيك عن الثروات الداخلية التي زعزعت كيان المجتمع العربي آنذاك مثل ثورة الزنج في العراق ، وحركة القرامطة الي دخلت في صرعات دموية مع كلتا الخلافتين في بغداد والقاهرة في نفس الوقت .. كلّ ذلك جعل البلاد العربية غداة الاجتياحات الصليبية والمغولية مثل رقعة الشطرنج ، فيها مربعات عديدة في كل منها دميةٌ لها اسمها ،تتصارع مع بقية الدمى . وكانت الدمى في غالبيتها غريبة المولد والنشأة بلا ارتباطات بحضارة الأمة العربية ولغتها ومعتقداتها وتقاليدها ، وكانت كلها تتصارع في سبيل السلطة والنهب دونما رادع أخلاقي أو إحساس بالأخطار المصيرية التي كانت تحدق بالحواضر العربية من كل صوب .

وفي مقابل هذا الواقع العربي آنذاك ، كنا نجد على الجانب الآخر بيزنطة في الشمال ، وقد استفادت كثيراً من ذلك الواقع المريض ، وعملت جاهدةً لتكريسه والحفاظ عليه . لقد وجدت بيزنطة في الدويلات العربية المتناثرة حولها من الجنوب حزاماً أمنياً يحمي وجودها ، من خطر دولة قوية فتية ،كتلك التي كادت أن تقضي عليها تماماً أيام الأمويين ، ثم من بعدهم أيام الخلافة العباسية لدى هارون الرشيد .

وعندما توسعت الدولة الفاطمية باتجاه الشام ، وكادت أن تضم إليها الدولة الحمدانية ، ثم من بعدها الدولة المرداسية في حلب ، وقفت بيزنطة بكل ثقلها العسكري لحماية الدويلة الحمدانية ، كما لحماية الأسرة المرداسية في حلب التي ورثت سلطة الحمدانيين فيها ، وذلك خوفاً من قيام دولة فاطمية عملاقة تهدد وجود بيزنطة من الجنوب ..

تماماً كما هو واقع الكيان الإستيطاني الصهيوني اليوم الذي يسعى جاهداً للحفاظ على واقع التجزئة العربية الراهنة ، وإقامة أحزمة أمنية على حدوده مع الدولة العربية كما يظهر ذلك جلياً واضحاً في الجنوب اللبناني . وكما بيزنطة،كذلك اسرائيل اليوم التي لاتخشى شيئاً مثلما تخشى وحدةً عربية في دولة قوية عملاقة تهدد وجودها ، وتضع مستقبلها على حافة الإنهيار والسقوط . وكما لجأت الأسر الإنعزالية في إمارة حلب في فترة حكم سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمداني ، كما في فترة حكم الإسرة المرداسية أيضاً إلى الإستعانة بالعدو البيزنطي وطلب الحماية منه مع دفع أتاوة سنوية كبيرة لبيزنطة في مواجهة خطر توسع الحكم العربي الفاطمي ، كذلك نجداليوم الفئات الإنعزالية في جنوب لبنان تضع نفسها تحت حماية العدو الصهيوني ، وتقدم له كافة أنواع الدعم والأتاوات خِشية أن تخسر مواقع نفوذها أمام المد القومي العربي التحرري .. في الوقت الذي يجد فيه العدو الصهيوني في تلك الفئات الإنعزالية حزاماً أمنياً يحمي به وجوده من خطر المقاومة الوطنية اللبنانية والفدائيين العرب الفلسطينيين . وغنيٌ عن البيان حالة الذعر الذي أحد ثته ولادة الجمهورية العربية المتحدة إثر وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، لدى الكيان الصهيوني والإمبريالية عموماً .. الأمر الذي دفع بالفئات الإنعزالية آنذاك أن تطلب حماية القوات الأمريكية في لبنان ، والقوات البريطانية في الأردن خشية امتداد لهيب الوحدة العربية إلى كل منهما ، وهو أخطر ماكانت تخشاه الدول الإستعمارية المتحالفة مع العدو الصهيوني خوفاً على مواقع نفوذها . . .

... مما دفعها إلى التحالف لضرب الوحدة في جريمة الإنفصال الأسود في ٢٨ / ٩ / ١٩٦٢ .

هل يختلف الواقع العربي غداة الإجتياحات الصليبية عن الواقع العربي غداة غرس الكيان الإستيطاني-اسرائيل-من قبل القوى الإستعمارية وريثة الحملات الصليبية ، من حيث واقع التجزئة العربية وسيطرة القوى الأجنبية على مواقع النفوذ في عدد كبير من الأقطار العربية، وهل يختلف ذلك الواقع كثيراً عن الواقع المفكك اليوم الذي يخفي في طياته سيطرة الشركات والإحتكارات الإمبريالية عموماً ، والبترولية خصوصاً على عدد من الحواضر العربية لاسيما النفطية منها ، والتي لا تملك حق سحب ودائعها المصرفية من البنوك الأجنبية ؟ .. وإذا عدنا إلى الواقع العربي غداة الاجتياحات الصليبية ، وجدنا أنه في الوقت الذي كان فيه العالم العربي آنذاك يعيش حالةً من الضياع والضعف ، وذوبان الشعور القوي ، والجمود الفكري . كانت أوربا تشهد موجةً من التعصب الديني في مواجهة الحكم العربي في الأندلس . هذا التعصب الذي بلغ ذروته إثر هزيمتين عسكريتين ساحقتين حلّت بأوربا آنذاك : الأولى وكانت في معركة مناذكرد عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م قرب بحيرة وان في تركيا حالياً،والتي انتصر فيها السلاجقة بقيادة السلطان ألب أرسلان على جيوش بيزنطة ، وأسر فيها الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديجانس ؛ والثانية كانت في معركة الزلاّقة عام ٤٧٦هـ / ١٠٨٤م قرب بطليوس على الحدود البرتغالية الإسبانية الحالية ، والتي انتصر فيها العرب المرابطون بقيادة يوسف بن

تاشفين على جيوش حرب الإسترداد الصليبية ، وأوقعوا فيها هزيمة ساحقة ، كادت أن تقلب موازين القوى في الأندلس تماماً لصالح جيوش العرب المرابطين التي انطلقت من المغرب العربي عبر مضيق جبل طارق ، لولا اندلاع الصراع الداخلي في المغرب العربي ذاته ، والذي تمخض عنه وصول حركة الموحدين إلى السلطة بقيادة المهدي بن تومرت ، كما أنه لم يكن بالإمكان لانتصارات عسكرية آنية أن تغيرمن أوضاع داخلية مفككة استمرت طويلاً .

هذا وقد ساهمت البابوية اليهودية في روما كثيراً في إزكاء روح العداء للعرب المسلمين في المشرق ، كما في الأندلس ، عبر الدعوة المنظمة للحروب الصليبية التي كانت على ارتباط عضوي كامل بنظام الإقطاع الذي كانت تعيشه أوربا ، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية الأوربية ذاتها التي وجدت البابوية فرصة مواتية لإنهائها في توحيد الطاقات الحربية المتناحرة إلى عمل خارجي استعماري يُشبع شهوة الأمراء الأوربيين الإقطاعيين ، خاصة ملوك النورمان الذين كانوا يتطلعون إلى بسط سيطرتهم عى أوربا لولا جذبهم بعيداً عنها إلى المشرق العربي .

ويجب أن لايغرب عن بالنا أن الحملة الصليبية الأولى التي دقت أبواب المشرق العربي عند أسوار أنطاكية عام ١٠٩٨م ، لم تكن طفرةً عارضةً لذلك التاريخ في حياة أوربا ؛ بل كانت بحد ذاتها استمراراً لحروب الاسترداد الصليبية التي سبق لأوربا أن بدأتها من الغرب باتجاه الأندلس ؛ وكانت أيضاً بنتيجة عمل متواصل وإعداد مسبق منظم أعدت له أوربا خلال

سنوات طوال وقامت به الدوائر الإقطاعية الحاكمة المتطلعة إلى الغزو والإستيلاء،وذلك بالتنسيق والتعاون مع البابوية اليهودية الإيطالية التي سيطرت على عرش البابوية في روما ، والتي تمثلت بأسرة البابا أوربان* الثاني،اليهودية الأصل والمنشأ،حيث قام البابا المذكور بتطواف متواصل بين العواصم الأوربية من أجل الإعداد لذلك ، انتهى إلى الإعلان الرسمي عن الحملة الصليبية في مؤتمر ضم ملوك ورؤساء وأمراء أوربا وبيزنطة برعاية البابا نفسه في مجمع كليرمونت عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٦م حيث حددوا في ذلك المؤتمر، عام ١٠٩٧م موعداً لحملتهم التي أطلقوا عليها باسم الحملة الصليبية واتخذوا شعاراً لها « الصليب » المطرّز على بذاتهم وأعتدتهم الحربية .

هل يختلف واقع أوربا الإقطاعية غداة الحملة الصليببية الأولى ، عن واقعها غداة الحرب العالمية الإستعمارية الأولى ، والتي أودعت المشرق العربي بمجمله تحت كابوس الإحتلالات الإستعمارية الساخرة ، بعد أن كانت قد أودعت مصر والمغرب العربي تحت كابوس الإحتلالات قبلها بسنوات ؟

ترى ألم تكن أوربا في كلتا الحملتين استعماريةً غازيةً تتطلع إلى إركاع أمتنا ، وقهرها بدافع الجشع الإستعماري ، والتعصب العدواني ؟؟

---

*(انظر العصر العباسي . دكتور سهيل ذكار طبعة ١٩٨٢صفحة ١١٧ - جامعة دمشق قسم التاريخ) .

الصليبيون.. والصليبيون الصهاينة
وحدة الأصول، وتماثلٌ في البنى والتطبيق

إذا أمعنا النظر في الماضي ، وعدنا بذاكرة تاريخ الوطن العربي إلى عدة قرونٍ خلت ، فإننا نجد تماثلاً يكاد يكون كاملاً بين ماتعرضت له الأمة العربية مع نهاية القرن الحادي عشر من غزوٍ أوربي صليبي تلاحق بغزو مغولي همجي ، وبين ما تعرضت له الأمة العربية في نكبة عام ١٩٤٨ ، وما ابتليت به بعدها من هجمات وحملات ، مازالت مستمرة حتى كتابة هذه السطور .

وكما أن الغزو الصليبي لم يكن مجرد طفرة عارضة في حياة أوربا ، بل نتيجة عمل متواصل منظم مسبق قامت به البابوية اليهودية في روما ، بدعم من ملوك أوربا وأمرائها الإقطاعيين ؛ كذلك نجد في المقابل أن الإحتلال الإستيطاني اليهودي الأوربي كان نتيجة عمل طويل وإعداد مسبق، قامت به الدوائر الإستعمارية الأوربية ، بالاشتراك مع المؤسسة الصهيونية وطغمتها اليهودية المرابية ، ، وسنبحث ذلك في مكان آخر بشيء من التفصيل ، ويكفي هنا التذكير بكلمات زعيم بريطانيا الإستعمارية بصدد ذلك بقوله :

(إن الصهيونية تشكل حاجةً ملحةً لبريطانيا ، ولو لم تكن موجودة لتوجب علينا اختراعها) .

وكما التقت مصالح الإقطاع الأوربي في بناء إمارات وممالك في

المشرق العربي ، مع مصالح ملوك وأباطرة أوربا ، حيث جمعتها عصبية دينية حاقدة ، مسيحية في ظاهرها ، صليبية عدوانية استيطانية في مضمونها ، منافية تماماً لأخلاقية المسيحية وتعاليم سيدنا المسيح عليه السلام ... كذلك تماماً في الغزو الإستيطاني الأوربي اليهودي عام ١٩٤٨ الذي لم يكن طفرةً عارضة في تاريخ أوربا ؛ بل جاء نتيجة عمل طويل ، وإعداد متواصل للمؤسسة الصهيونية وطغمتها اليهودية المرابية ، التي التقت أهدافها الخاصة في إقامة كيان استيطاني عدواني يهودي أوربي ، مع أهداف الغرب الإستعماري أَوْ قُلْ مع أهداف الصليبية اليهودية في أوربا وأمريكا معاً ، المتطلعة إلى الهيمنة على ثروات الوطن العربي ونهبها من خلال مد رأس جسرٍ أوربي متقدم ، لعبور كافة القوى الحاقدة على الأمة العربية ويكون في نفس الوقت امتداداً تاريخياً لمملكة بيت المقدس الصليبية البائدة .

وإذا كات العصبية المسيحية هي الغطاء الديني الذي توارت خلفه الحملات الصليبية ، فإننا نجد في المقابل العنصرية اليهودية هي الغطاء الديني الذي تقبع تحته الأفعى الصهيونية بذيلها ورأسها .. مع فارق واحد هو أن المسيحية هي في جوهرها بعيدة عن التعصب ، منافية للعنف والإغتصاب والعدوان .. بينما نجد في المقابل اليهودية تشكل بحد ذاتها مضموناً للتعصب العنصري ، ومرادفاً للإبادة والعنف والعدوان وأساساً لكل همجية عرفها التاريخ .

وإذا كانت الحملات الصليبية قد ضمت في صفوفها الأوربيين من مختلف فئاتهم وجنسياتهم ، وقادها ملوك وأباطرة أوربا وأمراؤها

الإقطاعيون ، وباركتها البابوية اليهودية في روما وقسسُها ، فإننا نجد في المقابل أن الحملات الصهيونية أو قُلْ الصليبية اليهودية،والتي انطلقت من نفس القارة الأوربية وإلى نفس المكان من المشرق العربي بدءاً من عام نكبة ١٩٤٨م أو قلِ قبل ذلك بسنوات ، ولم تتوقف بعد،قد حوت في صفوفها اليهود الأوربيين من كافة الفئات والقوميات ، تماماً مثلها مثل الحملات الصليبية البائدة ؛ وكذلك أيضاً بقيادة كافة رؤساء وملوك أوربا وزعاماتها الإستعمارية بالإضافة إلى قادة الولايات المتحدة الأمريكية المتعاقبين ؛ أولئك الذين وضعوا كامل ثقلهم الاستعماري في الميزان لصالح خلق وإيجاد الكيان الإستيطاني،اسرائيل ، كوريث أوربي صليبي لمملكة بيت المقدس الصليبية البائدة . ونذكر من هولاء القادة الذين تزعموا الصليبية اليهودية في مهدها وتطوافها و إلى مبتغاها في المشرق العربي،كل من الإمبراطور الألماني غليوم الثاني ، وقيصر روسيا نيكولاي الثاني ، وعدد كبير غيرهم من لويد جورج .. إلى ليون بلوم رئيس وزراء فرنسا ١٩٣٦؛ ومن رؤساء أمريكا ويلسون وترومان وروزفلت إلى جورج بوش اليوم،هذا مع تولي حاخامات اليهودية وأفاعيها حملات صمامات الدم والمذابح تماماً كما كانت تفعل البابوية اليهودية في الحملات الصليبية السابقة تجاه الكفرة الملحدين ، كما كانوا يسمون أجدادنا العرب آنذاك .

كل هذا مع تطابق كامل في مسرح الأحداث ، فكل من الغزاة الصليبيين في الماضي ، والصليبيين الصهاينة قد انطلقوا من نفس القارة الأوربية وإلى نفس الأرض العربية ؛ وكل منهم ادعى لنفسه الحق باسترجاع

فلسطين إليه .. الصليبيون زعموا حقهم في تطهير بيت المقدس من الكفرة المسلمين على حد زعمهم ؛ والصهاينة أيضاً زعموا لنفسهم الحق الإرثي الإلهي والخرافي في وطن قومي من الفرات إلى النيل،بينما أثبتت الأحداث والوقائع أن تلك المزاعم الدينية العنصرية أخفت خلفها مطامع استيطانية عدوانية ؛ فالصليبيون كشفوا عن نواياهم في إقامة ممالك وإمارات تتعدى كثيراً حدود فلسطين لتشمل مصر والمشرق بكامله،والصليبيون الصهاينة أيضاً يتطلعون إلى إقامة امبراطورية تمتد من الأطلسي وإلى حدود الصين ومن شواطئ البحر الأسود إلى منابع النيل-كما أعلن ذلك على الملأ الجنرال الصهيوني شارون في رسم استراتيجية اسرائيل في الثمانينات في كانون أول ١٩٨١، والتي نشرتها جريدة العدو معاريف في عددها ١٨ / ١٢/ ١٩٨١.

وإذا كان الضعف العربي والتفكك هو المناخ المناسب الذي انطلقت خلاله الحملات الصليبية الأولى ، فإننا نجد في المقابل التجزئة والتخلف العربي الموروث من عهود عثمانية واستعمارية خَلَت كانت ومازالت المناخ المناسب الذي هيأ للغزو الإستيطاني الصهيوني ، وحملاته المتلاحقة،والتي مازالت مستمرة ليومنا هذا ؛ بشكل أصبح فيه واقعنا الراهن سبباً مباشراً لاستمرار الغزو الإستيطاني ، ونتيجة أيضاً لقيام هذا الغزو الذي يحرص كل الحرص على الإبقاء على هذه الأوضاع المتفككة ، والدول الهزيلة في المنطقة العربية،تماماً كما كانت بيزنطة من قبل ، وبعدها كافة الممالك الصليبية وقلاعها في المشرق العربي تحرص على تكريس الإنقسام والتناحر والحفاظ على دويلات وإمارات عربية متصارعة ، تطلب حماية الإمارات الصليبية

ذاتها في مواجهة بعضها البعض ، تماماً كما تفعل بعض الأنظمة العربية في طلب الحماية الأجنبية .

وإذا كانت سيادة الدولة العربية في الفترة التي شهدت الإجتياحات الصليبية والمغولية مجرد سلطة شكلية اسمية ، كذلك أيضاً فإن سيادة الحكومات العربية في فترة خلق وغرس الكيان الإستيطاني الصهيوني عام ١٩٤٨كانت في معظمها مقيدة بقيد الانتداب الأجنبي وتواجد القوات المحتلة الأوربية على أراضيها . هذا وإن الهيمنة الأوربية والأمريكية على عدد من العواصم العربية اليوم لم تتغير كثيراً عما كانت عليه ، فالإحتكارت البترولية عموماً ماتزال تسيطر سيطرة شبه كاملة وتتحكم في صنع قراراتها السياسية بشكل يصح فيه القول أن قرارات تلك الأقطار العربية يكاد أن يكون في مجمله قراراً أجنبياً يصنع ويصاغ في لندن وباريس وواشنطن ثم ينفذ على الأرض العربية ، وفي مصلحة الإحتكارات الإمبريالية ذاتها ، وأداتها ومؤسستها العسكرية المتمثلة في الكيان الإستيطاني اسرائيل .

.. بل إن الودائع المصرفية العربية الموظفة في بنوك الغرب والتي تكفي وحدها لتغيير موازين القوى في المنطقة كلها ؛ فإن أصحابها لايملكون حتى قرار سحبها أو التصرف فيها ، وليس لهم منها سوى فتات فوائدها التي يعبثون بها ويبددونها في العواصم الأجنبية ذاتها .

أسلحة الغزاة لم تتغير

إن حرب الإبادة والمذابح ونشر الرعب المنظم واتباع سياسة الردع كلها سلاح مشترك لدى الصليبيين والصليبيين الصهاينة .

إن المذابح التي تشهدها فلسطين اليوم ليس بأمر جديد على شعبنا ، إنها السلاح نفسه الذي خبرته أمتنا على مدى تعاقب الأجيال ، وفُلّت نصاله على مذبح حرية شعبنا .. إنه السلاح نفسه لدى الغزاة قديمهم وحديثهم مع كل ماشهدته آلة الحرب والدمار من تطور وفنون .

والغرض كان ومازال هو نفسه أيضاً في إركاع أمتنا وتفتيت وجودنا القومي وفرض سياسة الإستسلام والأمر الواقع وقهر إرادة المقاومة مرة واحدة وإلى الأبد .

ولكن أمة عريقة كأمتنا خبرت كافة تجارب النضال ، وصمدت لكافة أسلحة الغزاة ، تملك اليوم من مقومات الوجود والكمون الثوري والخلود الأبدي مايجعلها تعزز ثقتها بأبنائها وبقدرتها على تجاوز كافة المحن ودحر كافة الغزاة ، وانتزاع النصر الأكيد. وكم من مرةٍ انقلب السحر على الساحر، وكم طوت هذه الأرض في وهادها وبين أكماتها من جحافل الغزاة .

نستعرض معاً جانباً من مسيرة الغزاة على أرضنا العظيمة ، هذه الأرض التي شهدت الغزوات ، والحملات ، والتي يطلق عليها المؤرخون بحق « مقبرة الغزاة » ، ولا غلو في ذلك .

ولنتذكر أن جموع الصليبيين قد تحركت من أوربا عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٧م أي بعد عامين من انعقاد مؤتمر ملوك وأمراء أوربا في مجمع

كليرمونت في تشرين الثاني ١٠٩٥م ، برعاية البابا أوربان الثاني في روما وحضور مندوب الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية ، وصدور قرار الغفران البابوي لمن يشترك في الحملة التي دعوا لها ، وحددوا موعداً لها من العام المذكور .

ومن الثابت في تاريخ الحملات الصليبية ، وفي سجلاتها الأوربية ذاتها،أن الحملة الأولى بلغت مايزيد على المليون شخص بين رجل وامرأة . ، وأن القوة المحاربة فيها زادت على مائة ألف محارب بين فارسٍ وراجل،وأن هذه الحملة كان على رأسها عدد كبير من ملوك وأمراء أوربا ومنهم الأمير غود فري وأخوه بلدوين من أمراء اللورين في فرنسا ، وبوهيموند ، وريموند من قادة النورمان، والراهب بطرس الناسك بصحبة الأسقف أوهمار ممثل البابوية في روما .

ومن الثابت أيضاً أن هذه الحملة الصليبية الأولى كانت قد قامت بأعمال السلب والنهب في أوربا ذاتها ، وهي في طريقها إلى المشرق العربي وذبحت أربعة آلاف مسيحي من الأبرياء في هنغاريا ممن اعترض على مصادرة أموالهم ، ناهيك عن المجازر التي قاموا بها ضد العناصر اليهودية التي صادفوها في طريقهم بدافع الثأر لدم المسيح من قتلته اليهود ، كما زَعَموا ، مع أن تعاليم السيد المسيح عليه السلام تنهى عن الثأر والعدوان ولنتذكر أن الخلافة العباسية في بغداد ام ١٠٩٧م غداة الغزو الصليبي على أبواب المشرق العربي ، كانت محض اسمية ، وأنها كانت خاضعة من الناحية الفعلية إلى سيطرة سلاطين السلاجقة من الأصول التركية ؛ وأن

السلطة السلجوقية ذاتها التي أسسها السلطان طغرل بك عام ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ، وبلغت أوج مجدها في عهد السلطان ألب أرسلان بطل معركة مناذكرد ١٠٧١م في الأناضول ، كانت قد تمزقت غداة الغزو الصليبي إلى دولة سلاجقة الروم عاصمتها نيقية في الأناضول،وسلاجقة العراق ، وسلاجقة كرمان ، وعدد كبير من الأتابكيات والإمارات ذات التبعية للسلطان السلجوقي والولاء الصوري للخليفة العباسي في بغداد ، مثل أتابكية الموصل ، أتابكية سنجار ، أتابكية أنطاكية،وغيرها.

ولنذكر أن أتابكية أنطاكية كان يحكمها الأتابك (الأمير) السلجوقي ياغي سغان أوسيان بصفته ممثلاً للسلطان السلجوقي في بغداد وهو بركيا دوق ، وأن أتابكية حلب كان يحكمها رضوان بن تتش،ودمشق يحكمها أخوه دقاق بن تتش،وهم من أحفاد السلطان ألب أرسلان . ولنذكر أن الشام - يوم دق الغزاة الصليبيون أبواب المشرق - كان تشهد صرعاً على السلطة بين السلاجقة أنفسهم ، بلغ الذروة بين الأشقاء:رضوان ، ودقاق،في حلب ودمشق؛هذا بالإضافة إلى الصراع الذي بدأ قبل ذلك بسنوات بين سلاجقة الشام من جهة ، وبين الفاطميين في مصر،والذين استعر في ضوء الخلافات المذهبية العقائدية بين الخلافتين العباسية في بغداد ، والفاطمية في القاهرة ، مع الإشارة إلى أن جيوش الخلافة الفاطمية بقيادة الوزير الأرمني الأفضل بن بدر الجمالي قد تمكنت من السيطرة على بيت المقدس في آب ١٠٩٨م ، وانتزاع السيادة على كامل فلسطين من حكم أسرة السلاجقة الأراتقة ؛ وأن جيوشهم تابعت الزحف باتجاه دمشق .. كل هذا والغزاة

الصليبيون يغدون المسير إلى المشرق العربي ! (انظر العصر العباسي دكتور سهيل ذكار ص١٢٦) .

لقد أسس الغزاة الصليبيون في حملتهم الأولى ، أول إمارة لهم بعد انتصارهم على السلاجقة الروم في مدينة الرها (مدينة أورفا في تركيا حالياً) عام ١٠٩٨م ، ثم تابعوا الزحف باتجاه أنطاكية .

ومع أن أمتنا العربية كانت تشهد حالةً مرعبة من التفكك والضعف وهيمنة عناصر غريبة عنها ، على مفاصل السلطة فيها ؛ ومع ما توفر للجيوش الصليبية الزاحفة من ترسانة حربية ضخمة ، وإمدادات هائلة مادية وبشرية .. مع كل ذلك لم تسقط مواقعنا بيد الغزاة الصليبيين إلاّ بعد معارك ضروس ، ولم يتمكن الغزاة من السيطرة على شبرٍ واحد من الأرض العربية إلاّ وقد غمّسته دماء أبناء هذه الأرض ، وحماتها الحقيقيون الذين هبوا منذ اللحظات الأولى للغزو الصليبي للمشرق العربي وطوال ثلاثة قرون كاملة متواصلة من النضال والكفاح ، بنوا خلالها صرح مسيرة التحرير العربي الثانية بجلاء كافة الغزاة من صليبيين ومغول وتتار ودك معاقلهم ومطاردة فلولهم .. تماماً كما أن الغزاة الإستعماريين الجدد ، والصليبيين الصهاينة لم يتمكنوا من دخول أي بلد عربي ، إلاّ على دماء أبنائه ؛ تماماً كما أن فلسطين لم تسقط لقمةً سائغةً عام ١٩٤٨م رغم كل ماكان يحيط بالواقع العربي من أشكال التآمر ، والضعف الفساد ؛ وما زالت فلسطين منذ نكبة ١٩٤٨ ، وليومنا هذا محرقةً يهلك في أتونها الغزاة الصليبيون الجدد ، رغم كافة فنون الوحشية والهمجية وأشكال المذابح الجماعية المروعة .

.. ولنتذكر جموع الصليبيين وقد زادت على مائة ألف محارب ، وهي تحاصر مدينة أنطاكية التي صمدت مايزيد على تسعة أشهر من المقاومة البطولية الباسلة لأهلها ، هلك خلالها مايزيد على نصف الجيوش الغازية ، التي أحاطت بالمدينة من كافة جوانبها .. ولنذكر أن الجيوش الغازية ماكانت لتدخل المدينة البطلة التي استبسلت في الدفاع لولا وصول سيلٍ من الإمدادات البشرية والحربية عن طريق بيزنطة من البر ، وعن طريق ميناء السويدية من البحر على قطع وسفن الأسطول الإنجليزي،وذلك إثر صرخات الإستغاثة لتي أطلقها قائد القوات الغازية بطرس الناسك التي لامست أسماع البابوية في روما فتحركت في كافة أنحاء أوربا لنجدة الحملة الصليبية الأولى التي أشرفت على الهلاك أمام أسوار أنطاكية .

ولنذكر أن الغزاة وهم يحاصون أنطاكية ، قاموا باستثمار النزاع بين الأشقاء رضوان ، ودقاق،في حلب ودمشق لمصلحتهم ، في الحؤول دون وصول النجدات إلى أنطاكية المحاصر ة ، كما قاموا بتوظيف النزاع المسلح بين السلاجقة في الشام والفاطميين في مصر لخدمة أغراضه في إضعاف المقاومة في الشام إلى الحد الأدنى ، وذلك بعد أن أعطوا وعوداً معسولة زائفة إلى الفاطميين الذين استولوا لتوهم على بيت المقدس في آب١٠٩٨م، بأن هدف الحملة لايتعدى تحطيم قوة السلاجقة ، والإستيلاء على أنطاكية، وأنهم سيتركون بيت المقدس في أيدي الفاطميين .. وهكذا لم يحرك الفاطميون وهم يقفون على أبواب دمشق ساكناً لدعم أشقائهم المحاصرين في أنطاكية في مواجهة عدوٍ لدود مشترك ، بل راحوا يتحينون الفرصة المواتية

للإستيلاء على دمشق وما حولها، وقد أخذوا وعود الغزاة لهمعلى محمل الجد . وليس هذا وحسب ؛ بل لجأ الغزاة أيضاً إلى شراء ضمائر ضعاف النفوس من المدينة المحاصرة أنطاكية، ولعبوا على العواطف الدينية لفئة من أهالي أنطاكية من الأرمن حيث قام أحد حفظة الأبراج من حراس المدينة بفتح أحد أبوابها غدراً بحاميتها التي استبسلت في الدفاع عنها . وهكذا ، وسط كل ذلك من التمزق الداخلي لأوضاع البلاد في الشام ، والدعم الخارجي للقوات الغازية اندفعت جحافل الصليبيين في أنطاكية ، وأغرقت المدينة الباسلة بدماء أبنائها،فذبحوا فيها مايزيد على عشرة آلاف إنسان ، وأسسوا على جماجم أهلها إمارة إنطاكية بزعامة بوهيموند .

هكذا عامل الغزاة الصليبيون كل قرية ، وكل مدينة عربية اقتحموها في مشرقنا العربي . إن مذبحة أنطاكية قد تكررت بكل بشاعتها في صيدا وفي يافا ، وإن حلب قد استعصت تماماً عليهم ، كذلك عكا، فانكفؤوا أمام أسوارهم ، وتابعوا بعدها الزحف لإلقاء حصارهم على بيت المقدس،وكان ذلك في شهر رجب ٤٩٢هـ / حزيران ١٠٩٩م .

لقد صمدت بيت المقدس طيلة شهرين كاملين من الحصار كان الغزاة خلالها قد عززوا حصارهم بسيلٍ من الإمدادات البشرية براً وبحراً ، كما استبسل المدافعون عنها من أهلها، ومن جندها،حيث قاد عملية الدفاع حاكمها الفاطمي افتخار الدولة الذي اعتمد على حاميةٍ كبيرة من الجند المصريين والسودانيين . ولنتذر هنا المجزرة الهمجية التي ارتكبها الغزاة الفرنجة في بيت المقدس حيث أعملوا في أهلها السيف والذبح دون تمييز بين

طفل وشيخ وامرأة ، وهم الذين زعموا أنهم رسل السيد المسيح عليه السلام الذي كان أول من وقف ضد القتل والعنف والعدوان !

وقد يقول قائل إنه التعصب للمسيحية في مواجهة العرب المسلمين هو الذي دفع بالغزاة الصليبيين لارتكاب تلك المجازر الهمجية ؛

وأنه التعصب لليهودية أيضاً هو الذي يدفع باليهود الصهاينة إلى ارتكاب مثلها اليوم وعلى نفس الأرض .

ولكننا نقول : إن كانت اليهودية تتخذ من القتل والإبادة وسفح الدماء الآدمية لوناً من ألوان العبادة اللاهوتية لدى اليهود أنفسهم ، كما تزخر بتلك التعالم الجهنمية الشريرة توراتهم وتلحودهم ، فإن الأمر هو غير ذلك في المسيحية التي إن تميزت في شيء فقد تميزت في التسامح الإنساني الذي لايعرف حدوداً ، ولم تَنْهَ عن شيء مثلما نهت عن العنف والقتل والعدوان .. وإن الذي عرفناه عن الغزاة الصليبيين هو ليس من قبيل التشدد بتعاليم سيدنا المسيح عليه السلام ، بل إنه مسلك الغزاة جميعهم على أرضنا في الهمجية البربرية ، أياً كان انتماؤهم ومعتقداتهم ؛ مع أن المعتقدات اليهودية التي يسمونها ديناً ؛ وأي دينٍ هذا ، تَنُّصب في الممارسات الحياتية والمسلكية للغزاة الصهاينة في أرضنا المحتلة . فها هو أحد حاخاماتهم المعروف بـ مائير كاهانا يخطب في الشبيبة اليهودية في القدس وعلى مسمع من وكالات أنباء العالم،وتصوير عدسات التلفزة،بقوله :

(اقتلوهم .. أخرجوهم من أرضكم . هكذا تعبدون ربكم يهوه،يا أبناء شعب اسرائيل) .

حملات الإبادة المنظمة ، وحمامات الدم رافقت مسيرة الغزاة قديمهم

وحديثهم !

إن مسيرة الغزاة قديمهم وحديثهم تكاد تكون نفسها في كل مرة ، وأساليبهم وطرائقهم في العمل مع أجدادنا ، وأبناء شعبنا اليوم هي ذاتها أيضاً،ومن قالب واحد . ومع أن كافة الغزاة ومنذ آلاف السنين قد اندحرت جحافلهم على هذه الأرض مع كل ما عرف عنهم من فنون الإبادة الهمجية ، فإن الغزاة الجدد قد أعمتهم غطرستهم عن إدراك هذه الحقيقة الثابتة الساطعة لخلود أمتنا ولجدارها الفولاذي الذي لم يُقهَر قط ؛ فظنوا أن حصونهم ، وحدودهم الآمنة التي طالما بحثوا عنها ، وأوغلوا في تشييدها من الخيال والأوهام ، أنها سوف تضمن بقائهم ، وأنها مانِعَتهم من عقاب أبناء شعبنا ؛ أصحاب هذه الأرض الحقيقيين . إن سجل الغزاة هو سجل أسود زاخر بأحداث الفظائع الهمجية،ولا تَتَّسِع له هذه العجالة،وأذكر هنا على سبيل المثال :

مذبحة أنطاكية التي سقطت أمام جحافلهم بعد حصار دام زهاء عام، سنة ١٠٩٧م ، فذبحوا كامل أهلها وحاميتها وكانت تزيد عن عشرة آلاف نسمة . وكرروا نفس المذبحة إزاء كل قرية ومدينة وقعت في أيديهم،وهم في طريقهم إلى بيت المقدس الذي حولوه إلى بركة من الدماء .

ولأترك الوصف في مجزرة بيت المقدس لشاهدٍ من أهلها ، صاحب كتاب " أعمال الفرنجة " الذي شاهد بنفسه فوصف ذلك،وقد سرّه مارأى فكتب يقول :

« .. حتى أن جنودنا كانوا يخوضون في بيت المقدس حتى ركبهم

في دماء المسلمين .. وصدر الأمر بعدها بطرح جثث كافة قتلى الكفرة المسلمين خارج المدينة . وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً ...

وما تأتّىَ لأحدٍ قط أن سمع أو رأي مذبحةً كهذه التي ألمت بالشعب الوثني،وجُمعت أكوام من الحطب لحرقها ولايعلم أحدٌغير الله كم عددها ؟ » .

أما ابن الأثير فقد وصف المجزرة بقوله :

« وقتل الصليبيون بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفاً، بالإضافة إلى النهب والسلب لمحتويات المدينة والمسجد » .

ولنذكر مجزرة بغداد هولاكو عام ١٢٥٨م حيث ذبح فيها طيلة أربعين يوماً ٨٠٠ ألف من سكانها ، ثم أشعل النار فيها ، وقذف محتويات مكاتبها الحضارية في مياه دجلة حتى غدت المياه سوداء،وقد تكررت مذبحة هولاكو في بغداد في كل مدينة دخلها المغول والتتار والصليبيون من مشرقنا العربي،بما في ذلك حلب وحمص وحماه ودمشق وغيرها.

كما أن الصليبين الجدد المتحضرين ، والذين أعلنوا أن حضارتنا ورقينا أمانة في أعناقهم ، وكرسوا ذلك في ميثاق عصبة الأمم المتحدة في مادتها الثانية،لم يكونوا أقل همجية من أسلافهم .

ولنذكر هنا عظيمهم نابليون بونابرت مُشرّع حقوق الإنسان ، الذي فتك بكل القيم الإنسانية في أرضنا،حيث قتل عند أسوار يافا بشكل سادي لامثيل لهأربعة آلاف من حاميتها التي استسلمت في ١٧٩٩/٢/٢م بعد أن حملهم على الإستسلام وضَمِنَ لهم حياتهم .

ولنذكر مجازر الهمجية الفرنسية في الجزائر والمغرب العربي ، وسوريا.

والطليان في ليبيا، والإنجليز في مصر، ومجزرة دنشواي وبورسعيد، وغيرها وغيرها كثير . . ولنذكر دير ياسين ، وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا، وليس آخراً مذبحة عين قارة في ٢١/٥/١٩٩٠ .

إنه مسلسل الرعب والإجرام الصليبي واليهودي معاً، والذي لم ينته بعد ، ممن زعموا بأنهم حملة رسالة السيد المسيح ؛ والسيد المسيح منهم براء، وتعاليمه لا تَنهى عن شيء مثلما تنهى عن العنف والقتل والعدوان ، وإن تميزت في شيء فقد تميزت بالتسامح الإنساني الذي لم يعرف حدوداً !.

ولنذكر غطرسة الغزاة الصليبيين واستخفافهم بمُثُلنا ومقدساتنا، فالقديس شاتيون قتل وأسرف في القتل وهو يقول :

« فليأتِ محمدكم ليخلصكم ! »، وكانوا وهم يحاصرون قرانا وقلاع مدننا ينبشون قبور أجدادنا ويطرحون أجداث موتانا أمام الأسوار وهم يعبثون بها ويستهزئون بهتافهم:« هذا هو محمدكم .. هذا هو عليكم .. ».

وها هم اليهود الصهاينة ومباركة الصليبية المتصهينة من قادة أوربا وأمريكا يرفضون ويعربدون في المسجد الأقصى وكنيسة القيامة .

يمزقون المصاحف ويجعلونها في قاذوراتهم .

وزير دفاعهم اسحق رابين منذ فترة غير بعيدة من هذا العام طلب منهم (اقتلوا الفلسطينيين ، اسحقوا عظامهم ، لعلّهم يتألمون، فتهدأ انتفاضتهم .. الفلسطيني أجمل مايكون هو ميتاً لاحراك فيه) .

ومناحيم بيغن من قبله تبجح مزّهواً بدير ياسين قائلاً :

" لولا دير ياسين لما كانت اسرائيل ! " .

كل من الصليبيين والصليبيين الجدد تَوَهَّم انه جاء ليبقى :

فكل من الغزاة قديمهم وحديثهم دخل بلادنا عِتوَة عن أهلها،وفي مخيلته أنه آبدٌ فيها ولن يخرج منها ، ودأب على غرس هذه الصورة الإستسلامية في أذهان أبناء أمتنا . ومن أجل تكريس هذه العقيدة - التي حطمها إنساننا العربي في فترات وملاحم متعاقبة - قام الغزاة الصليبيون ببناء قلاع شامخة في كل مكان وصلت إليه جيوشهم ، وأسرفوا في تحصيناتها فظنوا أنها مانعتهم من أية قوة مهما عظمت على الأرض . كذلك نجد في المقابل،الصهاينة في أرضنا المحتلة أخذوا بالمقولة الصليبية ذاتها وأسرفوا في بناء المستوطنات على طراز القلاع الصليبية ، وأقاموا خطوطاً دفاعية آمنةٍ .. في مخيلتهم،مثل خط بارليف في سيناء وخط آلون في الجولان ، وقد بدت في أعين قادتهم ، كما لدى العديد من رجالات الفن الحربي في العالم أنه من المحال اقتحامها .. ومع ذلك فقد تهاوت في ساعات قليلة تحت ضربات مقاتلنا العربي في مصر وسوريا في حرب تشرين المجيدة، مثلما تهاوت أختها القلاع الصليبية من قبل .

وكما الصليبيون ، كذلك الصهاينة اعتمدوا نفس المقولة الأبدية أن اسرائيل وُجِدت لتبقى ، وأنهم جاؤوا إلى بلادنا ولن يخرجوا منها .. ولكن سيخرجون منها على دمائهم مثلما خرج كافة الغزة من قبلهم ، وستطوي هذه الأرض هاماتهم مثلما طوت هامات جنود كسرى وهرقل ، وجيوش الصليبيين أسلافهم والمغول والتتار التي لم تعرف الهزيمة ، فذاقتها وعرفتها

على أرضنا ، وعلى أيدي أبناء أمتنا .

وكل من الصليبيين والصهاينة أَوغَل في الغطرسة التي لم تعرف حدوداً مع استخفافٍ كامل بوجودنا الإنساني والحضاري .

فالصليبيون من قبل أشاعوا أسطورة الفارس الصليبي القادر على اقتحام القلاع ، كما تنزل الصوعق من السماء ؛ والصهاينة اليوم تماماً مثل أسلافهم استخدموا المقولة ذاتها في أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر ولا يعرف الهزيمة !.

الحرب النفسية وسياسة القمع والروع أسلوبان متلازمان لدى الغزاة .

إن الغزاة قديمهم وحديثهم اعتمدوا سياسية الروع تجاه أمتنا، بغرض إركاعها وإجبارها على الإستسلام دون مقاومة ، وذلك من خلال سيل من المذابح وحملات الإبادة الهمجية .

إنهم كانوا يقولون لنا بالأمس ، كذلك اليوم :

(هكذا سيكون مصيركم مثل مصير بغداد هولاكو إن لم تستسلموا » . . .

. . . مثل دمشق تيمورلنغ ،. مثل دير ياسين .، مثل بور سعيد، مثل دنشواي .. مثل صبرا وشاتيلا، إن رفضتم أو قاومتم .. إن لم تلوذوا بالفرار . إن احتضنتم الفلسطينيين، وساندتم كفاحهم .. وهكذا » .

هذه هي سياسة الردع القائمة على المذابح على أشلاء الضحايا والتي كتب الغزاة الصليبيون ، والصليبيون الجدد فصولها بدماء الضحايا من أبناء أمتنا ، بدماء أطفال شعبنا ، وبدخان الحرائق .

وكانت كل حملة همجية قام بها الصليبيون والمغول والتتار ، ويقوم بها الصهاينة اليوم،تسبقها حملة تخويف وذعر وحرب نفسية محبكة خبيثة متقنة . ولنستعرض جانباً من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

١- ملك فرنسا لويس التاسع بعد أن نجح على رأس حملة صليبية عرفت بـ الحملة السابعة من احتلال دمياط في ٥ حزيران ١٢٤٩م ، حيث بعث بإنذار منها إلى السلطان نجم الدين أيوب قبل أن يبدأ زحفه إلى القاهرة جاء فيه :

« وقد حذرتك من عساكر في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى مرسلون إليك بأسياف القضاء » .. مع الإشارة،أن هذه الحملة التي بلغت ١٠٠ ألف محارب قد غرقت في مياه النيل .

٢- هولاكو بعد استيلائه على بغدادودمشق بحرب خاطفة،بعث من غزة في آذار ١٢٦٠م بكتاب إلى السلطان قطز في مصر يحمله فيه على الإستسلام دون قيد أو شرط،جاء فيه :

« يعلم الملك المظفر قطز وأهل مملكته أننا نحن جند الله في أرضه، خَلقنا من سخطه ، وَسلطنا على من حل به غضبه ، فاتعظوا بغيركم فنحن لانرحم من بكى ، ولا نَرقّ لم شكى » .. مع الإشارة أن قطز قتل رسل هولاكو وخرج لملاقاته. فكانت عين جالوت قرب بيسان ملحمةً خالدة في تاريخنا القومي .

٣- ترى ألم تُكَرِّر اسرائيل أسلوب القادة الغزاة السابقين في كل ماقامت به من حملات وحروب لم تنته بعد ؟

ولنتأمل في إنذار الجنرال شارون عام ١٩٧٣ إلى القادة العرب والذي تبجح فيه :

« إن اسرائيل تملك قوةً رادعة تستطيع بها خلال أقل من أسبوع احتلال منطقة واسعة من بغداد إلى دمشق فالقاهرة والخرطوم فالجزائر »، وذلك بغرض شل إرادة التحرير لدى العرب،وكان الرد سريعاً في حرب تشرين التي قصمت ظهر الثور الصهيوني ! ترى ألم تأخذ العظمة جنونها في شخص شامير هذا العام بالذات وهو يتبجح مثل شارون ، حيث طالب القادة العرب الإتصال بمدير مكتبه في حال قبولهم وإذعانهملشروطه الإستسلامية في صلح يُفرَض قهراً على العرب ؟

ترى ألم يفعل ذلك تماماً دايان من قبل خلال حرب ١٩٦٧ ، عندما أعلى على الملأ أنه ينتظر إلى جانب الهاتف عبد الناصر للتفاوض معه حول شروط وقف الحرب والإستسلام ؟.

إن سياسة الحرب النفسية التي تتكامل مع سياسة الردع والرعب القائمة على حراب المجازر وحملات الإبادة المنظمة لدى الغزاة قديمهم وحديثهم استهدفت الغرض ذاته في قهر إرادة المقاومة لدى مناضلينا اليوم ، كما لدى أجدادنا بالأمس ، بشكلٍ يصبح فيه شبح الغزاة يبدو وقد تجاوز كثيراً المكان الذي وصل إليه ، إلى مدن أخرى ، و أقطارٍ أخرى بعيدة عن المكان الذي هم فيه ، فيصبح لهمجية الغزاة وسيل الدماء الآدمية ودخان الحرائق وعظمة آلة الحرب ، وامتلاك العدو لأحدثها فتكاً ودماراً .. يصبح لكل ذلك من التأثير

النفسي والإحباط المعنوي مايكفي لشل إرادة المقاومة والكفاح،أو على الأقل إضعافها ؛ فتستسلم دون عناء في أيدي الغزاة .. إنهم كالغول الذي يُفزِع فريسته قبل أن يُجهِز عليها دون مقاومة منها !

مذابح الغزاة لم ترهب شعبنا قط ، بل كانت حافزاً لاقتلاع الغزاة أنفسهم .

إن حملات الإبادة ووسائط الاضطهاد والتعذيب والدمار وفنونها لدى الغزاة قديمهم وحديثهم ، لم تفلح قط في إركاع أمتنا أو قهر إرادة المقاومة لدينا . بل كانت تفعل عكس ماأُريد منها تماماً .

إن وسائط الغزاة الإجرامية ، وسياسة الردع لديهم كانت ومازالت تستنهض همم الأبناء مثلما استنهضت همم الأجداد الميامين ، وتوقد جذوة النهوض الثوري ، وتستنفر طاقات الأمة وكمون كرامتها الذي لم ينضب قط، فتعصف العاصفة وتتعالى ترانيم الثأر الكفاحي ، وتصدح صيحات النصر ، وتكبيرات الله أكبر .. ويتحول الردع في أيدي الغزاة إلى مفعول سحري عجيب لدى أبناء أمتنا الخالدة ، وينقلب السحر على الساحر .. وهذا هو سر وجودنا وديمومتنا وينبوع أصالتنا !

فإثر كل مذبحة ، وإثر كل اجتياح ، كانت ترتفع صيحات التكبير لتشق عنان السماء ،فتغلي النفوس ،وتثور الهمم ، وتخفق قلوب ملايين العرب من المحيط إلى الخليج ومن الشمال إلى الجنوب بشعورٍ دافق هو سد من الإسمنت عاتي القوة ، يصمد لكل جارف .

وسط الحرائق والدخان والأنقاض يولد لدينا دائماً الأبطال ! هكذا

خلقنا الله وهذا هو سر وجودنا ، هو مايذهل العالم فينا . إن العدو والصديق يقف مشدوهاً فاغراً فاه أمام عظمة الإنسان العربي،في الجنوب اللبناني ؛ في ذرى الجولان ، وفي بطاح فلسطين ورمال سيناء . لقد أذهلت ثورة أطفال الحجارة العالم بأسره ، وهم أطفال في عمر الزهور يتراكضون ، ويتدافعون بحجارتهم وصدورهم وإرادتهم الفولاذية على مجنزات الإحتلال، وجنودهوهم يتسابقون إلى الشهادة ، كما تتراقص الفراشات فوق أزاهير المروج .. ومع أن حواضر عربية ذُبِحت بكامل سكانها في بغداد وحلب ودمشق والقدس ودمياط .. ووسط تلك الجرائم البشعة التي اقترفها الغزاة بحق أبناء أمتنا والتي لم تجف دماؤه بعد في قطاع غزة ، وعين قارة ، والجنوب اللبناني ووسط دخان الحرائق والأنقاض ؛ وسط كل ذلك،لنا صفحات مشرقة من الصمود البطولي والعنفوان القومي العربي .

تجزئتنا كانت دائماً مطلب وجودهم ، وشرط بقائهم .

لقد شكل واقع التجزئة والتفكك العربي دائماً المناخ المناسب لنجاح الغزاة في مد جسورٍ لهم على أرضنا العربية . لذلك بذلوا قصارى جهودهم من أجل تكريس ذلك الواقع والحفاظ عليه ، حفاظاً على مواقعهم ؛ هذا ولم يكن يهددهم شيء مثلما كان ، ومازال،يهددهم الفعل الوحدوي بين أبناء الأمة العربية الواحدة . إن التجزئة العربية هي في الوقت ذاته سبب ونتيجة معاً . إنها سببٌ يهيء للغزاة فرصة سانحة في الوصول إلى مواطئ قدم لهم على أرضنا، من خلال ماتهيئه لهم التجزئة من بعثرة طاقات الأمة العربية ، وتشتيت جهود العرب ، وصرفها بعيداً عن مواجهة الأخطار المصيرية الخارجية ؛ مع مايرافقه ذلك من تسهيل ابتلاع الفريسة بعد تجزئتها ، وتقطيع أوصالها ، كما هو واقع الدويلات والإمارات العربية المتناثرة بين مشرق الوطن العربي ومغربه .

هذا وإن التجزئة،هي نتيجة في الوقت ذاته أيضاً . إنها نتيجة وجود الغزاة أنفسهم الذين يستخدمون كل مافي جعبتهم من وسائل المكر ، والخداع ، والدسائس ، والعدوان من أجل تكريس واقع التجزئة ، وتعميمها وجعلها واقعاً اعتيادياً مألوفاً وكأنها هي القاعدة .. والوحدة هي استثناء خطير من هذه القاعدة .وإنها اليوم نتيجة وجود المصالح الحيوية ، البترولية خاصة،التي ينظر الغرب من خلالها إلينا: إلى واقعنا، وإلى الكيان الصهيوني الذي خلقه الغرب على أرضنا كمحفرٍ متقدم له من أجل الحفاظ

على التجزئة ، وعلى مصالحه اللامحدودة المرتبطة بالتجزئة ارتباط الروح بالجسد . إن الغرب عموماً ، والكيان الإستيطاني الصهيوني خصوصاً،يفقد معناه وهدفه في وطننا العربي عندما ننسف التجزئة ، ونعيد الوحدة بين أوصال الوطن الواحد ، ونجعل منها هي القاعدة التي كانت ويجب أن تكون تكون دائماً كذلك .. عندها فقط يفقد الغرب هذا المطلب الحيوي لوجوده على أرضنا ويخسر شرطاً جوهرياً من شروط بقائه واستمراريته .

وقائع تاريخنا المغرق في القدم ، وصراعنا المرير مع الغزة قديمهم وحديثهم هي أكثر من أن نتناولها في هذه العجالة ، ولندع بعضاً منها يحدثنا عن ذلك ، من خلال هذه السطور :

١- لقد عاش العرب منذ قرون عديدةقبل الإسلام في ظل مملكة عظيمة واحدة ، بلغت شأواً عظيماً في الحضارة والقوة معاً ، وامتدت من أعالي الفرات إلى أعالي النيل وشواطئ الأطلسي ، وتناوب على حكمها العرب البابليون تارةً ، والعرب الفراعنة تارةً أخرى ، وهكذا دواليك ..

ولما وقع الصراع الداخلي بين الأشقاء العرب في بابل ، ووادي النيل وتمزقت الدولة العظيمة إلى قوتين متحاربتين ؛ عندها فقط وقع الإجتياح الفارسي للوطن العربي الذي ابتلع كلاً من القوتين على حدة ، وتلاحق بعدها باجتياحات الإغريق والرومان .. وما كان ذلك يحدث لولا التمزق والإنقسام ؛ وما كان ذلك لينتهي لولا البناء الوحدودي العظيم الذي شمخ بعدها وبنى صرحه القائد العربي العظيم النبي محمد(ص)مع بزوغ فجر الإسلام .. وهكذا جرى عند كل اجتياح؛وبالوحدة أيضاً انحسر،وتقهقركل

اجتياح بعدها.

٢ - إن بيزنطة رأت في وجود دولة حلب الحمدانية ، والمرداسية بعدها،حزاماً أمنياً،ومناخاً مناسباً ، في مواجهة دولة فتية أقامها الفاطميون تسيطر على مصر وشمالي إفريقيا ، وامتدت باتجاه الشام مهددةً امبراطورية بيزنطة ذاتها . لذا تدخلت بيزنطة بكل ثقلها للحفاظ على ذلك الواقع وأجبرت الدولة المرداسية في حلب على دفع أتاوة سنويةً لها لحمايتها من التهديد العربي الفاطمي .

٣ - من أجل تكريس واقع التجزئة،قام الغزاة الصليبيون بالإستفادة القصوى من النزاعات الأسروية والصراعات الداخلية بين إمارات ودويلات المنطقة ، كما قاموا بإزكاء تلك الخلافات ، والتناقضات،وتسعيرها بالإعتماد على شبكة واسعة من التحالفات مع الحكام والأمراء العرب في مواجهة بعضهم البعض ، وضمن هذا السياق :

آ - وقف الصليبيون إلى جانب معين الدين أنر حاكم دمشق في مواجهة عماد الدين الزنكيعام ١١٤٠م الذي سعى إلى توحيد البلاد في مواجهة الصليبيين وطردهم ، وحاصر دمشق لهذه الغاية سبعة أشهر كاملة حتى نهاية شباط ١١٤٠م بغرض ضمها إلى دولته التي شملت الموصل وحلب،وحماه ، وحمص ؛ مع الإشارة إلى أن حاكم دمشق لجأ إلى كسر طوق الحصار الذي فرضه عليه عماد الدين الزنكي بالإستعانة بقوات وجيوش مملكة بيت المقدس الصليبية لقاء تنازله عن مدينة بانياس في هضبة الجولان.

ب - كذلك وقفت جيوش مملكة بيت المقدس ، إلى جانب حاكم دمشق

مجير الدين أبق الذي جاء بعد سلفه معين الدين أنر ، في مواجهة نور الدين الزنكي ابن عماد الدين الزنكي ، الذي حمل رسالة أبيه في توحيد البلاد وطرد الغزاة الصليبيين . ولكن نور الدين تمكن من كسر تحالف الصليبيين مع الخائن مجير الدين أبق ، وتحرير دمشق ودخولها في صفر ٥٤٩هـ / تموز ١١٥٣م ، متخذاً من دمشق عاصمة لدولته الفتية في مواجهة الصليبيين .

(انظر تاريخ العصر الأيوبي - دكتورة أمينة البيطار - جامعة دمشق ١٩٨١م) .

مع الإشارة إلى أن الخائن مجير الدين أبق كان يدفع أتاوة ً سنوية مقدارها ثمانية آلاف دينار ذهبي إلى ملك بيت المقدس لحمايته من خصمه نور الدين الزنكي .

جـ - تمكن الصليبيون من جعل مصر محمية ً صليبية بدءاً من عام ١١١٦م ، وفرضوا عليها أتاوةً سنوية بلغت مائة ألف دينار ذهبي لقاء حماية الخلافة الفاطمية من تهديدات الخلافة العباسية في بغداد ، وخطر نور الدين الزنكي في دمشق ، مستفيدين من التناحرات والصراعات الأسروية بينهما ، مع تسعير تلك الصرعات في خدمة الكيان الإستيطاني الصليبي آنذاك .. وبعدها قاموا باستثمار الصراع على منصب الوزارة في مصر لدى الخليفة الفاطمي العاضد، ووقفوا إلى جانب كل من الخصمين المتنافسين شاور ، وضرغام،كل على حدة ؛(تماماً كما وقفت القوى الأجنبية بالأمس القريب مع أقطاب الصراع من القوى الإنعزالية في لبنان ممثلة بكل من

العماد ميشيل عون ، والدكتور سمير جعجع في مواجهة بعضهم البعض ، كما في مواجهة القوى الوطنية في القطر اللبناني).

.. وبعد أن استقرت الوزارة لدى شاور ، وقفوا إلى جانبه في مواجهة الغضب الشعبي العارم في مصر ، الذي أرغم الخليفة الفاطمي العاضد إلى الإستنجاد بحاكم دمشق وسوريا نور الدين الزنكي من أجل تخليص مصر من النفوذ الصليبي الذي جثم علي صدرها .

ومرةً أخرى تحركت الجيوش الصليبية من مملكة بيت المقدس لتقف إلى جانب الفئات الإنعزالية التي جعلت من السلطة غايةً في حد ذاتها ، في مواجهة النقمة الشعبية في مصر ؛ ولكنها لم تفلح عندها ، حيث أجبرتها جيوش التحرير العربي التي انطلقت من دمشق لنجدة أختها بالقاهرة ، على الإنكفاء والتقهقر تماماً بقيادة شيركوه قائد جيوش نور الدين الزنكي ، الذي تمكن من تطهير مصر تماماً من الصليبيين وقتل شاور الخائن عام ١١٦٧م حيث حل محله في منصب الوزارة لدى الخليفة الفاطمي العاضد في القاهرة .

ع - قام الصليبيون بتأليب كل من الشقيقين المعظم عيسى في دمشق ، والملك الكامل في القاهرة عام ١٢٢٣م ، وهم من أبناء العادل أخ صلاح الدين الأيوبي ، مع تسعير الشقاق بينهما واستثماره لصالح تكريس الاحتلال والتوسع الصليبي على حساب الأرض العربية .. مماحدا بالخائن الكامل في مصر آنذك إلى الإستنجاد بالقوات الغازية الصليبية التي جاءت عام ١٢٢٨م بقيادة امبراطور ألمانيا فريدريك الثاني ، وعُرفت في تاريخ الحروب الصليبية بالحملة السادسة ، ووقفت إلى جانب الكامل في واجهة

أخيه عيسى في دمشق الذي كان يسعى جهده إلى إعادة توحيد الجبهة بين مصر والشام التي كانت أيام أبيه العادل وعمه صلاح الدين ، في مواجهة الغزاة ودحرهم . هذا مع الإشارة إلى أن عيسى حاكم دمشق كان قد توفي في ١١ت٢، ١٢٢٧م قبل وصول القوات الغازية .. ولم يمنع ذلك الخائن الكامل من غزو سوريا بمساندة القوات الصليبية ذاتها ، وتنازله عن بيت المقدس الذي حرره عمه صلاح الدين إثر حطين ، وتسليمه دون قتال إلى الصليبين لقاء وقوفهم إلى جانبه في مواجهة شقيقة عيسى في دمشق ؟ ؟. ترى هل يختلف في ذلك كثيراً عن غيره من خونة العرب في عصرنا الراهن!

هذا غيض من فيض من تاريخنا الكفاحي ، في مواجهة الغزاة ؛ حماة التجزئة ، وصانعيها ، وأعداء الوحدة العربية ومناهضيها !

تحالفوا دائماً لقهر كفاحنا، وكسر صمودنا

لقد تحالف الغزاة دائماً ، قديمهم وحديثهم ، مع بعضهم البعض في مواجهة نهوضنا القومي ومنع توجّهنا الوحدوي ، ولنا ولهم مع التايخ تجارب ومحن أكثر من أن تحصى،نذكر منها :

١ - إن رسالة الإسلام العظيم التي خرج بها العرب على لسان النبي محمد(ص) ، حملت بعداً إنسانياً ، وشمولية ً عالمية ، ومع ذلك فإنها كانت تمثل منذ أيام الرسالة الأولى التوجه القومي ، والتطلع الوحدوي والتوثب الثوري لتحرير العرب من الغزاة الفرس والروم معاً .

وضمن هذا الإطار يجب أن نظر إلى شخصية محمد بن عبد الله(ص)، كقائد قومي حمل راية الوحدة والتحرير منذ أيام شبابه الأولى ، وكنبي للإنسانية المعذبة في نفس الوقت . وضمن هذا الإطار القومي أياً يجب أن نتأمل جيداً كلماته ، في ابتهاجه بانتصار العرب العظيم في ملحمة ذي قار على الفرس ، حيث قال فيها :

« هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبي نُصِروا ».

لقد اندمجت في رسالة محمد(ص) توحيد آلهة العرب في إله واحد ،

مع توحيد قبائل العرب المشتتة في قوة واحدة تكون شرطاً لاغنى عنه لصنع التحرر القومي من الفرس والروم معاً ؛ وهكذا كان .. وهو ماعنته الآية القرآنية الكريمة بقوله تعالى :

« واذكروا نِعْمةَ اللهِ عليكم إذْ كُنتم أعداءً ، فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً »،وفي موضع آخر **« واعتصموا بِحَبلِ الله جميعاً ولاتَفَرَّقوا »** .

ولذلك تحالفوا منذ البداية على ضرب ثورة الإسلام ، ووأدها في مهدها ، وكثرت التحالفات عليها ، وكوَّنوا حلفاً من كفّار قريش ، واليهود من قريظة وغطفان،دعمته الفرس والروم معاً،بغرض إبادة المسلمين والقضاء على ثورة العرب في مهدها في حملة عدوانية شرسة واحدة عُرفت في تاريخ الإسلام بموقعة الأحزاب التي تحدث عنها القرآن في سورة الأحزاب ، وأشار فيها إلى حجم تحالف أعداء رسالة الإسلام ، ومكرهم،بقوله تعالى :

« إذْجَاؤُوكمْ مِنْ فَوقِكم وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكم، وَإِذْ زَاغَتِ الأبصارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، وَتَظُنّونَ بِاللّهِ الظُّنُونا . هُنالِكَ ابتُلِيَ المؤمِنُونَ وزُلزِلوا زِلزالاً شَدِيداً » .

٢ - تحالف بيزنطة الروم مع الخزر :

مع أن التناقض ثابت ، والعداء متأصل بين اليهودية والمسيحية،ومع ذلك نجد بيزنطة المسيحية قد تحالفت مع مملكة الخزر اليهودية في مواجهة القوة العربية الفتية ، ووقف التقدم العربي الإسلامي . ومن أجل تعزيز تحالفهم العدواني في مواجهة أجدادنا العرب ، قام اليهود الخزر بتزويج ملك بيزنطة قسطنطين الخامس أخت كاجان (ملك) مملكة الخزر اليهودية ، مع

أن الكنيسة تحرم مثل هذا الزواج . وقد ورث عرش القسطنطينية بعدها ابنه ليوالرابع من أمّه اليهودية الخزرية،فعُرِف بها نسبة إليها باسم (ليو الخزري) الذي قام هو الآخر بدفع التحالف مع مملكة الخزر إلى مرحلة عليا ، مما كان له الدورالحاسم في وقف الزحف العربي تماماً عام ٧٧٨م .

إن تحالف بيزنطة مع الخزر اليهود ، يُعيد إلى الأذهان تماماً اليوم تحالف الغرب الصليبي مع أحفاد يهود الخزر في الكيان الإستيطاني الصهيوني في مواجهة نهوضنا القومي العربي المعاصر .

٣ - لقد وجد الصليبيون ، في الزحف المغولي على المشرق العربي طوق نجاتهم،بعدأن كادت الإمارات الصليبية تلفظ أنفاسها ، فهرعوا إلى التحالف مع المغول بشكل يتم فيه وضع المشرق العربي بين فكي كماشة : الصليبيون من الغرب وعلى طول الساحل السوي حتى غزة ؛ والمغول من الشرق وقد أطبقوا حصارهم على بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وكعربون قيام حلف عدو اني على العرب،قام الصليبيون بتزويج هولاكو من أميرة صليبية بغرض تسعير حلة الحصار على بغداد ثم تدميرها وإبادة ٨٠٠ألف نسمة من سكانها ، ونهب نفائسها وإتلاف كل مظهر حضاري فيها وذلك عام ١٢٥٨م .

(انظرمجلة العربي عددشباط١٩٨٠ص١٣.دكتورعون الشريف).

٤ - لقد تحالف أبغا بن هولاكو بعد وفاة والده عام ١٢٦٥م ، مع الصليبيين في الشام وأرمينيا الصغرى مثله في ذلك مثل أبيه . وبعد وصول نجدات صليبية جديدة عُرِفت بالحملة الثامنة

بزعامة ملك بريطانيا إدوارد،عن طريق عكا ، شكّل المغول بزعامة أبغا والصليبيون بقيادة أدوارد حملة مشتركة لاحتلال مصر ، باءت بالفشل لأن جبهة التحرير العربي التي ضمت وشهدت التلاحم الكفاحي المشترك بين سوريا ومصر ، كانت لهم بالمرصاد ، فَهَزَم الظاهر بيبرس تحالفهم شر هزيمة ، كما هزم تحالفهم أيضاً سلفُه السلطان قطز في ملحمة " عين جالوت " قرب بيسان في فلسطين ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م والتي قُتِل فيها قائدجيوش هولاكو، كنبغا، آنذاك .

علماً بأن الظاهر بيبرس تولى السلطنة في مصر والشام معاً منذ عام ١٢٦٠ وحتى١٢٧٧م .

وشَكّل المغول والصليبيون في أرمينيا الصغرى ، والصليبيون في الشام،مرة أخرى حملة مشتركة باتجاه دمشق ثم مصر ، ولكن السلطان سيف الدين قلاوون (الذي عُرِف بـ المنصور قلاوون) تصدى لهم على رأس جيش مشترك من مصر والشام وهَزم تحالفهم في معركة حاسمة قرب حمص في ٣٠ت١، ١٢٨١م ، وطارد فلولهم . ومنذ اجتياح المغول(هولاكو)بغداد عام١٢٨٥م ، حارب العرب في وحدة كفاحية نادرة من مصر وسوريا ، المغول و التتار والصليبيين معاً ، بشكل يصعب فيه الفصل بين حروب أجدادنا آنذاك ضد المغول والتتار ، وبين حروبهم ضد الصليبيين،وذلك لتحالف العدوين اللدودين معاً .

(انظر تاريخ المماليك - دكتور عادل زيتون جامعة دمشق ١٩٨٩م)

٥ - وعند قيام دولة عربية فتية من مصر و سوريا أيام محمد علي باشامنذ تشرين الثاني ١٩٣١م ، تمرّدت على السلطنة العثمانية ، وشكلت نواة وحدة عربية عملاقة في العصر الحديث ، سَارَع التحالف الأوربي الإستعماري إلى ضربها واغتيالها في مهدها . ونذكر في هذا السياق اتفاقية كوتاهية في ١٦/ ٥ / ١٨٣٣م ، ومؤتمر لندن في شباط ١٨٤٠م بين الدول الأوربية:بريطانيا،وروسيا القيصرية ، والنمسا وفرنسا وبروسية، حيث تحالفت ، فيها القوى الإستعمارية الأوربية بعضها مع بعض،رغم التناقضات والخلافات السائدة قبلها مع بعضها ، من أجل إجبار جيوش مصر محمد علي باشا على الإنكفاء من سوريا ، هذا مع الإشارة إلى أن روسيا القيصرية التي بقيت لسنوات طوال في حرب ضروس مع الإمبراورية العثمانية ، سارعت إلى حماية السلطان العثماني محمود الثاني ووضعت أساطيلها تحت تصرفه لضرب وحدة سوريا ومصر وإجبار جيوش مصر العربية على الإنكفاء من سوريا أيام ولاية محمد علي باشا .هذا ولا ينتقص من التوجه الوحدوي بين جماهير مصر وسوريا انتماء محمد علي باشا إلى أصول بلقانية غير عربية .

٦ - **وفي السادس عشر من أيار عام ١٩١٦**، فيما عرف في الدبلوماسية الإستعمارية بـ **اتفاقية سايكس - بيكو**، تحالفت القوى الإستعمارية الأكثر نفوذاً في أوربا وهي فرنسا وبريطانيا ، على تطويق قوى التحرر القومي العربي وإجهاض قوى الثورة العربي التي كافحت طويلاً لإسقاط الباستيل العثماني ، وأعلنت الثورة المسلحة بعدها في ١٠حزيران

١٩١٦ فيما عُرِف باسم ثورة الشريف حسين . اتفاقية سايكس - بيكو التي شكلت آنذاك ذروة التحالف الصليبي الأوربي على ابتلاع المشرق العربي ، وإيداعه تحت مظلة حملة صليبية جديدة ، أفصحَ عنها صراحةً ووقاحة في وقت لاحق كل من الجنرال البريطاني اللنبي في القدس والجنرال غورو الفرنسي في دمشق .

٧ - هذا وقد **تحالفت أوربا تحالفاً صليبياً** في حملة صليبية حاقدة وذلك عام ١٩٥٦م فيما عُرِف باسم **العدوان الثلاثي** على مصر بورسعيد الذي شكل حرباً سافرة عدوانية شرسة لكل من بريطانيا وفرنسا وقاعدتهما الإستيطانية اسرائيل .. ذلك التحالف الذي يعيد إلى الأذهان التحالف الصليبي المغولي للحملات الصليبية البائدة .

٨ - عندما طرحت الجماهير العربية **مسألة الوحدة بين مصر وسوريا كنواة** للوحدة القومية العربية ، وكتتويجٍ لنضالهما المشترك ضد الإستعمار، وكتثبيت وتعميق لهذا النضال ، وكتعبير عن هويتهما العربية الواحدة، عندها تحالفت أوربا وأمريكا في حملة صليبية مشتركة جديدة ، كما في كل مرة تحقق فيها الجماهير العربية التقاءً في مسيرتها الوحدوية .. عندها سارعت أمريكا إلى إعلان مبدأ إيزنهاور على لسان رئيسها إيزنهاور في ٥ك٢، ١٩٥٧ زاعمةً الحق في التدخل العسكري لحماية المنطقة من الخطر الشوعي القادم من الشمال على حد زعمهم .

وكتطبيق لمبدأ إيزنهاور بدأ الأسطول السادس الأمريكي يفرض حصاراً على سوريا، ويقوم بمناورات وعرض عضلات بدءاً من

١٩٥٧/٨/٢١وفي نفس الفـتـرة قـامت تركـيـا بإيعـاز من أوربا وأمريكا بحشود عسكرية أطلسية ضخمة على طول الحدود مع سوريا مع التـهديد السافر بالغزو المسلح .. وفي معمعان هذا التحدي الصليبي الإستعماري حققت الجماهير العربيـة وحدة مصر وسوريا في ٢٢ شباط ١٩٥٨ وأسقطت حلف بغداد العدواني في ثورة ١٤تموز من العام نفسه،كل ذلك استبتع مزيداً من التـحالفـات العدوانية على جماهير أمتنا،فنزلت قوات **أمريكية في لبنان ، وأخرى بريطانية في الأردن** منذ اليـوم التالي لثورة تموز في بغداد ، بغـرض منع انتـقـال الحريق الثوري إلى أقطار عربيـة أخرى ومنع انضمام العراق إلى وحدة مصر وسوريا . ومن الملفت للنظر مجيء الحملات الأمبريالية الصليبية المشتركة تحت ستار حماية المنطقة من الخطر الشيوعي، في وقت تأجج فيـه النضال القومي العربي المنافي للشيوعيـة تماماً ؛ ثم انسحاب تلك الجيوش الجرارة عندما أصبح الخطر الشيوعي حقيقةً ملموسة باستلام السلطة في بغداد من قبل نظام عبد الكريم قاسم الذي عُرِف بولائه المعلن للشيوعية آنذاك .

.. وكلنا يذكر كيف تحالفت القوى المعادية جميعها لضرب وحدة مصر وسـوريا في جـريمة الإنفـصـال الأسـود في ١٩٦٢/٩/٢٨ .. وأن الرئيس الأمريكي في الساعات الأولى لجريمة الإنفصال بعث بإنذار سافر إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، يهدده فيـه من القيام بأي عـمل لاستعادة مواقع الوحدة .

٩ - إثر الإنتصارات الرائعة التي حققتها الجماهير

العربية في سوريا على الإحتكارات البترولية،وزعزعة نفوذها في الوطن العربي ، وعودة التقارب الوحدوي بين مصر وسوريا ، ومنعاً من قيام الوحدة من جديد،سارعت أوربا وأمريكا في حملة شرسة وحربٍ سافرة تمثّلت في عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ التي قامت به اسرائيل بترسانة امبريالية ضخمة . تُعيد إلى الأذهان تماماً الحملات المشتركة للصليبية والمغول والتتار.

١٠- هذا وإن كل عدوانٍ قامت به اسرائيل منذ غرسها في خاصرة المشرق العربي ، وكل اجتياح عدواني لها - قد لا يكون آخرها اجتياح لبنان في حزيران (١٩٨٣)-فإن ذلك مازال يجسد تحالفاً صليبياً استيطانياً عدوانياً يستهدف قهر شعبنا ونهب أرضنا ، واستلاب وجودنا القومي، ويُعيد إلى الأذهان تلك الصورة الوحشية للثور الصليبي بقرونه المغولية الذي سبق للإرادة العربية وأَرْدته صريعاً على هذه الأرض ذاتها .

مسيرة التحرير بناء وحدوي ، وكفاح قومي مشترك.

إن مسيرة التحرير العربي هي بناء وحدوي بالضرورة . فيها يتلازم النضال القومي من أجل الوحدة العربية ، مع الكفاح المشترك في مواجهة الغزاة ودحر فلولهم .هذه الحقيقة الساطعة وَعَتْها جماهير أمتنا العربية عبر تاريخها الطويل الحافل بالتصدي للغزاة قديمهم وحديثهم ، وهي أحوج إلى التشبث بها اليوم أكثر من أي وقت مضى . هذا وإن مسيرة التحرير هي حركة واحدة ، مطّردة إلى الأمام دوماً ، متصلٌ بعضها مع بعض بدون انقطاع، اتصال الهوية العربية وانغماسها في الوطن العربي الكبير. ولسهولة البحث سنستخدم اصطلاحاً مسيرة التحرير العربي الأولى التي تم فيها تحرير الوطن العربي من الفرس والروم في فترة صدر الإسلام . ومسيرة التحرير الثانية التي تم فيها تحرير المشرق العربي من الصليبيين والمغول . ومسيرة التحرير الثالثة التي تم فيها إنهاء الإستبداد العثماني والإحتلالات الأوربية السافرة للأقطار العربية . ومسيرة التحرير المعاصرة التي تخوضها الأمة العربية اليوم من أجل استعادة وحدتها القومية وإسقاط الكيان الإستيطاني

الصهيوني على أرضها في وقت واحد معاً،وفي كفاح مشترك بحيث يصعب فيه التمييز بين النضال من أجل الوحدة وبين النضال لإسقاط الكيان الصهيوني اسرائيل .

إن مسيرة التحرير العربي الأولى التي قادها النبي العربي محمد(ص) كانت منذ انطلاقتها الأولى في عام الهجرة ٦٢٢م ، مسيرةً وحدوية فيها امتزجت دعوته الثورية لتوحيد آلهة العرب في إله واحد،مع دعوته القومية التحررية لتوحيد قبائل العرب المشتتة والمبعثرة في قوة عظيمة واحدة . فبانتصار دعوته في موقعة بدر على أساطين قريش ، توحدت القبائل العربية في شبه جزيرة العرب في مسيرة واحدة ، وقد عرفت الهدف وسلكت الدرب من دون ترددٍ أوضياع .

وما كانت الوحدةالأولى التي بنى صرحها النبي محمد (ص) لتتم بصورةٍ تلقائية أو عفوية . لقد ارتوت بدماء قريش ذاتها التي سالت في بدر وغيرها ، وانتصرت إرادة الوحدة والتوحيد على أعداء الوحدة من زعماء قريش وقبائل العرب ، ممن فقدوا في الوحدة والمجتمع الجديد مواقع نفوذهم.

لقد تلازم الفعل الوحدوي في مسيرة التحرير الأولى مع عملية التحرير ذاتها ، وقد بدا ذلك واضحاً من خلال اتساع رقعة الأرض العربية ذاتها ، وقد بدا ذلك واضحاً من خلال اتساع رقعة الأرض العربية المحررة مما كان يرافقه اتساع في بنية الجيوش العربية - أداة التحرير - فاتساع آخر

أسرع من الأول في استرداد الأرض ، وهكذا بشكل يصح فيه القول أن الفعل الوحدوي كان بمثابة عامل التسارع الذي أكسب مسيرة التحرير سرعة متسارعة فائقة ماتزال تستحوذ اهتمام وإعجاب مؤرخي العالم وباحثيه حتى يومنا هذا .

ترى هل من قبيل المصادفة بين بدء ثورته القومية والإنسانية معاً . . . . في عام الهجرة ٦٢٢م ، وبين استرداد كامل الأرض العربية من الفرس والروم - في شبه جزيرة العرب وشمالي إفريقيا ، من أعالي الفرات إلى شواطئ الأطلسي - في مدة لا تزيد عن عشرين عاماً فقط ؟ لقد أنهى العرب الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها إثر معركة نهاوند عام ٦٤٢ ، وحرروا مصر وشمال إفريقيا في العام ذاته ، واستردوا سوريا وطاردوا فلول الروم حتى جبال طوروس قبل ذلك بسنوات .

وهل كان صنع التحرير الكامل في عشرين عاماً فقط ، ممكناً لولا التلاحم والتلازم بين الفعل الوحدوي وعملية الاسترداد في التحرير .. لولا التلازم أيضاً بين العقيدة الثورية التي جاء بها محمد(ص) وبين البناء الثوري في المجتمع العربي الجديد ؟ هذا ناهيك عن شخصيته الفريدة كقائد عربي ، وكنبي مرسل، مما كان له عظيم الأثر في صنع التحرير ورفع البناء الجديد بسرعة مذهلة .

ونستعرض معاً مسيرة التحرير الثانية ، يوم أن اجتاح الصليبيون والمغول والتتار المشرق العربي :

إن نظرة سريعة إلى شريط الأحداث آنذاك ، تظهر لنا بجلاء مابعده

جلاء، أن مسيرة الإسترداد والتحرير الثانية ، كانت وحدوية وتحررية في آن واحد،
فيها امتزج الفعل الوحدوي مع الفعل التحرري بشكل يصعب فيه التمييز بين كفاح أجدادنا العرب في مصر والشام من أجل الوحدة وبين كفاحهم في صنع ملاحم التحرير والتطهير والإسترداد،في حطين وعين جالوت وعكا ودمشق وبغداد والقاهرة وغيرها .

ولنستعرض معاً جانباً من ذلك .

لقد حاصر الصليبيون حلب عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م حصاراً وحشياً طيلة عام كامل . وكادت حلب أن تسقط وتنهارلولا أن هبت لنجدتها أختها الموصل فتوحدت معها في جبهة واحدة في معمعان الحصار، مما أجبر الغزاة على الإنكفاء والتقهقر ، وكانت تلك الوحدة آنذاك النواة الأولى تجاه وحدة أكبر ، فيها امتزج بكل وضوع الفعل الوحدوي مع الفعل التحرري في فعل واحد يصعب التمييز بينهما .

وكانت وحدة حلب والموصل نقطة البداية أَوّ قُلّ المحطة الأولى في مسيرة التحرير الثانية . فعند أسوار حلب بدأ المد الصليبي يتحول إلى جزر، وهو الذي حدا بالمؤرخ البريطاني إلى القول :

" لو سقطت حلب عام ١١٢٤م لصار الشرق بمجمله لاتينياً " .

وأورد هنا جانباً من وصفها أيام حصارها مما جاء في كتاب :

(بغية الطلب في تاريخ حلب) لمؤلفه كمال الدين عمر بن العديم، الذي نقل لنا هذه الصورة عن شهود عيان :

« وطال الحصار ، وأخذ الصليبيون مع أعوانهم الخونة صاحب قلعة

جعبر سالم العقيلي ، وصاحب الحلة في العراق ذبيس بن صدقة ، وابراهيم بن رضوان حاكم حلب السابق وغيرهم يزحفون على أسوار المدينة،وقطعوا الشجر ، ونبشوا القبور ، وأخذوا توابيت المسلمين ، وجعلوا منها أوعيةً لقاذوراتهم ، ومثلوا بجثثِ مَنْ وقع من المسلمين بأيديهم وربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم بالخيول مقابل المسلمين،وهم يقولون من تحت الأسوار :

انظروا هذا نبيكم محمد .. هذا عليّكم .. هذا عُمَركم .

وكلما ظفروا بمسلمٍ قطعوا يديه ومذاكيره و دفعوا به أمام الأسوار، ولم يؤثر هذا،على شدته ، على معنويات الحلبيين فاستبسلوا في الدفاع وازدادوا إصراراً على المقاومة ، وشكلوا مجلساً شعبياً يتولى تنظيم الدفاع عن المدينة الباسلة . وبلغ بالحلبيين الحصار إلى حالةٍ أكلوا فيها المِيتات والجِيف والقطط والكلاب والجرذان ووقع فيهم المرض والأوبئة » .

(انظر دكتور سهيل زكار صفحة ١٣٣المصدر السابق) .

وفي عام ١١٢٧م وقع اختيار الجماهير على عماد الدين زنكي كحاكمٍ على حلب والموصل معاً ، وهو من مواليد مدينة حلب ، فيها نشأ وأمضى شبابه ، وكان رجلاً عسكرياً من الطراز الأول . لقد قام بزج كافة طاقات دولته الفتية من أجل معركة التحرير ، الأمر الذي مكّنه من استرداد كافة القرى والمناطق المحيطة بحلب ، ثم أجهز بعدها على إمارة الرها الصليبية عام ١١٤٤م ، وكان تلك ضربة موجعة نزلت بالفرنجة الصليبيين ، وبداية النهاية في وجودهم الإستيطاني الدخيل .

لقد قضى البطل عماد الدين زنكي نحبه شهيداً عام ١١٤٦م أثناء

حصاره لقلعة جعبر على يد أحد العملاء الخونة ، فاستحق تسمية مؤرخي عصره له بـ « الشهيد » . لقد قاد مسيرة التحرير من بعده ابنه نور الدين الزنكي الذي نجح في تموز ١١٣٥م بكسر طوق دفاعات دمشق التي تحالف حاكمها مجير الدين أبق مع الصليبيين والذي كان يدفع لهم أتاوة سنوية في بيت المقدس ثمانية آلاف دينار ذهبي في العام .

وبدخول نور الدين زنكي دمشق امتدت رقعة الدولة في عهده من الموصل في العراق إلى حلب فحمص وحماه ومنطقة دمشق . وكانت تلك الوحدة في الدولة الجديدة متلازمة مع معارك التحرير والإسترداد . لقد تحول المد الوحدوي إلى سيلٍ جارف في خضم معارك التحرير ، جرف في طريقه الفئات الإنعزالية التي ربطت مصيرها بمصير الغزاة الصليبيين أنفسهم.

ومن دمشق دأب القائد العربي نور الدين الزنكي على خلق شروط مواتية لخوض معركة فاصلة مع الصليبيين ، يتمكن خلالها من تحطيم قوتهم العسكرية . لقد أدرك الزنكي تماماً أن البناء الوحدوي هو الشرط الأساسي الذي يرتفع فوقه البناء الإقتصادي القادر على توفير متطلبات الجيوش المحاربة لخوض معارك التحرير . بل إن القائد الزنكي اتخذ من الاية القرآنية الكريمة :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم » . اتخذ منها شعاراً ، وموجها، لكافة أجهزة الدولة لديه .

وتطلع نور الدين الزنكي،وهو في أتون المعارك مع الصليبيين،إلى استكمال البناء الوحدوي ، بشكلٍ يتم فيه تطويق الغزاة من الشمال والجنوب معاً ، من خلال ربط سورية بمصر في جبهة كفاحية واحدة .

هذا مع الإشارة إلى أن مصر كانت آنذاك محميةً صليبية ، وكانت تدفع أتاوة سنوية إلى مملكة بيت القدس منذ عام ١١١٦م بلغت مائة ألف دينار ذهبي لحمايتها من تهديدات الخلافة العباسية في بغداد ، ومن خطر نور الدين الزنكي الذي تطلع بشغفٍ إلى توحيد جبهة الشام مع مصر .

وكانت الفرصة مواتيةً من جراء الصراع على منصب الوزارة في مصر بين كل من شاور وضرغام اللذين اعتمد كل منهما على دعم الصليبيين من مملكة بيت المقدس في مواجهة خصمه الآخر ، الأمر الذي حدا بالخليفة الفاطمي العاضد بضغط من الجماهير في مصر إلى طلب الإستنجاد بنور الدين لتخليصه من النفوذ الصليبي فيها . وقد نجحت جيوش نور الدين الزنكي عام ١١٦٩م بقيادة أسد الدين شيركوه بعد سنتين من المعارك الطاحنة مع الصليبيين من تخليص مصر تماماً من الوصاية والهيمنة والنفوذ الأجنبي الصليبي فيها ، بالإضافة إلى قتل كل من ضرغام وشاور.

وتجدر الإشارة إلى أن الوزير الفاطمي شاور بعدأن تخلص من خصمه ضرغام ، وضع سيادة مصر تحت حماية مملكة بيت المقدس تماماً وعقد مع عموري الأول ملك بيت المقدس اتفاقية حماية ضَمَّنها السماح بتواجد حامية حربية صليبية في القاهرة مع وجود مندوب دائم لمملكة بيت المقدس لدى الخليفة الفاطمي ، ناهيك عن دفع الأتاوة السنوية ، تماماً كما تكررت الصورة

ذاتها أيام الإنتداب البريطاني على مصر بعدها . تماماً كما تفعل كافة الفئات الإنعزالية والأنظمة العميلة في الوطن العربي التي تربط مصيرها بمصير الوصاية الأجنبية ، وتضع عروشها تحت حماية الحراب الأجنبية، المسلّطة على جماهير أمتنا العربية . هذا،وبعد مقتل شاور أوْكَلَ الخليفة الفاطمي العاضد منصب الوزارة في مصر إلى أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين ، الذي توفي بعدها بشهرين فقط ، فاستلم الوزارة من بعده ابن أخيه يوسف بن نجم الدين أيوب الذي لُقِّب بالناصر ، ثم لقب بعدها بـ صلاح الدين.

لقد حرص صلاح الدين وهو في منصب الوزارة في مصر ، على الظهور بصفته ممثلاً ونائباً للرئيس نور الدين الزنكي في دمشق ، وليس بصفته وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد . وبوفاة الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين في مصر عام ١١٧١م أعلن صلاح الدين ولاءه الكامل لرئيسه نور الدين في دمشق وللخلافة العباسية في بغداد .

ومع امتداد رقعة الدولةمن الموصل في العراق إلى وادي النيل في مصر والسودان بالإضافة إلى ليبيا وحتى تونس ، والتي شملت أيضاً اليمن التي أخضعها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م إلى سلطته بتفويض من الخلافة العباسية في بغداد ؛ كل ذلك دفع بمسيرة البناء والتحرير معاً إلى مواقع جديدة متميزة . لقد وفرت الدولة الجديدة موارد بشرية ومادية هائلة قام نور الدين الزنكي في دمشق،بمساعدة صلاح الدين في مصر،بتوظيفها وزجهاالصالح معركة فاصلة مع الكيان الإستيطاني

الصليبي في بيت المقدس . وكان نور الدين الزنكي مُوقِناً بالنصر النهائي ، فاستعجله وهرع إليه ووضع كافة طاقات الدولة الجديدة من أجل بلوغه .. بل إنه أمر بصنع منبر التحرير لنقله إلى المسجد الأقصى لتلقى منه خطبة التحرير، الأمر الذي كان له أبعد الأثر في تعزيز ثقة الجماهير العربية في مصر والشام بحتمية التحرير والنصر . ولكن توفي نور الدين بعدها بأشهر قليلة بشكل مفاجئ عام ١١٧٤م دون أن يعاصر تحرير بيت المقدس . ومن الجدير ذكره أن منبر نور الدين قد نُقِل إلى المسجد الأقصى بعد تحرير بيت المقدس إثر ملحمة حطين في ٤ تموز ١١٨٧م ، وبقي المنبر ذاته في المسجد الأقصى لغاية نشوب حريق في المسجد دبّرته سلطات الإحتلال الإسرائيلي بعد حرب حزيران ١٩٧٦.



مسيرة البناء والتحرير تصدت دائماً لتحالف المتآمرين في الداخل والخارج

في الوقت الذي كانت فيه الجماهير العربية تضع الوحدة والتحرير معاً، كانت القوى الحاقدة والفئات الإنعزالية التي تخسر بالوحدةوالتحرير مواقع نفوذها ، وتسقط بفعلها عروشها .. كانت تتحالف وتتآمر مع الغزاة أنفسهم بغرض إسقاط الوحدة ، ومنع التحرير،ونذكر في هذا السياق :

١- لقد تمكن عماد الدين الزنكي من إسقاط الإمارة الصليبية الأولى، إمارة الرها في ٢٣ك١، ١١٤٤م . واندفع بعدها بحماس متدفق لتحرير المزيد من المواقع والقلاع من سيطرة الصليبيين وعملائهم . فسقط شهيداً في ت٢، ١١٤٦أثناء حصاره لقلعة جعبر لتحريرها من عملاء الصليبية ، حيث اغتالته يدٌ مجرمة من عملاء الصليبية .

هذا مع الإشارة إلى أن حاكم دمشق معين الدين أنر،كان قبلها في عام ١١٤٠م قد استنجد بالقوات الصليبية من مملكة بيت المقدس لحمايته

من جيوش عماد الدين الزنكي ؛ وكذلك تكررت العملية ذاتها من قبل خلفه مجير الدين أبق الذي دفع أتاوة سنوية لمملكة بيت المقدس واستنجد بقواتها لحمايته من جيوش نور الدين الذي كسرطوق تحالفهم ودخل دمشق محرراً في تموز ١١٥٣م .

٢- لقد توفي نور الدين عام ١١٧٤م بعد أن أقام دولة عظيمة في خضم معارك التحرير ، وشملت الموصل في العراق ، وبلاد الشام المحررة، والحجاز واليمن ومصر والسودان وليبيا.. هذه الدولة التي ملكت مايكفي من طاقات بشرية واقتصادية لاستكمال معارك التحرير .

ونظراً لتعاظم مهام التحرير وإنقاذ جذوة النضال والوحدة القومية في عهد سلفه صلاح الدين ، فقد تعاظمت في الوقت نفسه التحالفات والمؤامرات من الداخل والخارج معاً ،بغرض تمزيق الدولة الجديدة وشلّ إرادة الوحدة والتحرير لدى جماهير الأمة التي قاد نضالها آنذاك صلاح الدين،وفي هذا الإطار نعيد إلى الأذهان : لجوء كل من ضرغام وشاور في تنافسهما على منصب الوزارة لدى الخليفة الفاطمي العاضد إلى الإستنجاد بالقوات الصليبية لمملكة بيت المقدس .

ولما تمكّن شاور من التخلص من غريمه ضرغام استنجد بـ عموري الأول ملك بيت المقدس في مواجهة جيوش نور الدين الزنكي بقيادة أسد الدين شيركوه حيث أبرم شاور مع عموري الأول اتفاقية حماية عام ١١٦٧م وَضَع فيها القاهرة تحت حماية حامية صليبية مع تعيين مندوب دائم لملك بيت المقدس في القاهرة،يكون له رأي مسموع لدى الوزير شاور ولدى الخليفة

العاضد بالإضافة إلى أتاوة سنوية بلغتْ مائة ألف دينار ذهبي .

ولكن جيوش دمشق حطمت تحالف المتآمرين وحررت مصر من الحماية الصليبية ؛ فعاود العملاء سيرتهم الأولى بعدها في التآمر والتحالف مع القوى الغازية الأجنبية،وهكذا كان في عهد صلاح الدين . فبعد مقتل شاور وطرد غلول الصليبيين من مصر بثماني أشهر فقط حيكت مؤامرة شرسة كان أطرافها من الداخل والخارج معاً ، وذلك بتهيئة غزو خارجي تقوم به بيزنطة ومملكة بيت المقدس ، وفي وقتٍ واحد،يتحرك مؤتمن الخلافة الفاطمية (وكيل الخليفة ومدير قصره في القاهرة) للتخلص من صلاح الدين وقتله وإعادة النفوذ الصليبي وذيول وزارة شاور إلى مصر . لقد أُخرجت المؤامرة بدقة متناهية،وَأَرسَلت بيزنطة أسطولاً كبيراً في تموز ١١٦٩م في الوقت الذي تحرك فيه عموري الأول من بيت المقدس باتجاه مصر ، وقاد فيه مؤتمن الخلافة جوهر،حامية من الجند السودانيين في القاهرة في محاولة انقلابية للإطاحة بصلاح الدين وما يمثله من توجه وحدوي تحرري معادٍ للقوى الأجنبية،ولكن التفاف الشعب في مصر الذي وجد خلاصه في شخص صلاح الدين حول قيادته،تَمَكّن من كسر تحالف المتآمرين وإحباط المؤامرة في مهدها . لقد تمكن صلاح الدين من إغراق أسطول بيزنطة أمام شاطئ الإسكندرية ، واعتقال الخائن جوهر وقتله ، وإخماد فتنته،ورد جيوش ملك بيت المقدس... على أعقابها . وكان ذلك نصراً حاسماً في تاريخ مصر،وتكررت المؤامرة ذاتها بعد إحباط أختها بسنوات قليلة جداً . . .

.. ففي ١٣أيلول ١١٧١م توفي الخليفة الفاطمي العاضد ، فما كان من

صلاح الدين إلاّ أن أعلن الولاء للخليفة العباسي في بغداد المستضيء بنور الله ، ولرئيسه نور الدين الزنكي في دمشق وقام بعدها بتطهير أجهزة الدولة من ذيول الخلافة الفاطمية التي كانت في طورها الأخير تحت وصاية القوى الأجنبية .

وهذا مما أثار حفيظة القوى التي خسرت بنهاية الخلافة الفاطمية مواقع نفوذها،فباتت تتحين الفرصة المواتية لها .

وكان غياب شقيق صلاح الدين - توران شاه - في اليمن لإخماد فتنةٍ فيها، شتاء عام ١١٧٤م،على رأس قوةٍ من جيش صلاح الدين،فرصةً مواتية للقوى الحاقدة على صلاح الدين ونظامه من الداخل والخارج . لقد التقت أطراف المؤامرة من جديد وحيكت بخبثٍ ومهارة بشكلٍ يتم فيه إشعال ثورةٍ داخلية في القاهرة يقودها ذيول الخلافة الفاطمية التي تضررت مصالحها وخسرت مواقعها ، في نفس الوقت الذي يتحرك فيه الصليبيون من صقلية بأسطول بحري لمهاجمة مصر بحراً بقيادة وليم الثاني أحد قادة النورمان ، ويتحرك فيه عموري الأول على رأس جيش من بيت المقدس لمهاجمة مصر براً.وأُحبِطت المؤامرة أيضاً في مهدها،مثلما سقطت أختها من قبل.

لقد أُلقي القبض على ذيول المؤامرة في القاهرة قبل أن تكمل فتنتها، بسبب افتضاح أمرها،وتمكن صلاح الدين من إغراق أسطول النورمان أمام شواطئ الإسكندرية في نيسان ١١٧٤م .أما جيوش عموري الأول فقد انكفأت وتقهقرت إلى بيت المقدس قبل أن تصل إلى مصر عندما علمت ماحَلَّ بأقطاب عملائها من الداخل وبأسطول النورمان أمام الإسكندرية . وكان هذا قبل وفاة الرئيس نور الدين الزنكي في دمشق بشهر واحد .

وبعد وفاة نور الدين الزنكي في دمشق ٥٦٩هـ / أيار ١١٧٤م ، قام

صلاح الدين ببسط سلطته على سوريا بصفته نائباً أول لرئيسه الراحل نور الدين.

وكما حيكت عليه المؤامرات في مصر ، كذلك أيضاً كانت في سوريا، بغرض كسر الوحدة بين مصر وسوريا، توأمي النضال المشترك ، وإطالة عمر الكيانات الإستيطانية،أو قُلْ،الإحتلالات الصليبية الأوربية للمشرق العربي.

لقد شكل الغزاة الصليبيون والخونة العملاء المحليون حلفاً واحداً ، مع اختلاف الدين ، في مواجهة دولة الوحدة التي انبرى لقيادتها صلاح الدين . فأمراء حلب ، والموصل،وقد انتعشوا بوفاة نور الدين وأعلنوا انفصالهم وتمردهم على دمشق ، وجدوا في توجه صلاح الدين الوحدوي ضياع مواقع نفوذهم وانهيار عروشهم . لذلك قام أمير حلب سعد الدين كمشتكين بالتحالف والتواطؤ مع أمير الموصل سيف الدين غازي وشكلوا مع أميرطرابلس الصليبي ريموند الثالث ، الذي استلم الوصاية على عرش بيت المقدس بعد وفاة ملكها عموري الأول في تموز ١١٧٤، بالإضافة إلى أمير حمص،حيث شكلوا معاً حلفاً واحداً لتصفية دولة صلاح الدين واغتيال مسيرة الوحدة والتحرير .

لقد انبرى صلاح الدين بما كان يملك من قدرة فائقة على التنظيم ، وصبرٍ وعقيدةٍ فولاذية ، وصفاتٍ نادرة كقائد تاريخي عظيم،في مرحلة صعبةٍ وشائكةٍ من مراحل النضال القومي مع الغزاة الفرنجة ، التفت حوله والتقت صفوف الجماهير في مصر وسوريا ، فتمكن ببراعة القائد الشجاع من قيادة الكفاح الوطني على صعيد إسقاط المتآمرين في الداخل وقهر هجمات الغزاة من الخارج مع كسر تحالفهم جميعاً . وبذلك أخضع حمص لسلطته في ك١، ١١٧٤م ، وحلب والموصل ٥٧١هـ / نيسان ١١٧٦م، وَبَسط سلطة الدولة العظيمة على الموصل وبلاد الشام والحجاز واليمن ومصر

والسودان وليبيا وحتى مشارف تونس قبل نهاية عام ١١٧٦م .

.. هكذا كانت ومازالت مسيرة التحرير . كفاح مستمر ونضال دؤوب بشكل يصعب فيه التمييز بين الصرع من أجل الوحدة والصراع من أجل التحرير .. ويصعب فيه التمييز أيضاً بين الكفاح والنضال من أجل إسقاط الخونة عملاء الأجنبي ، وتصفية أوكارهم ، وبين الكفاح المظفر ضد مواقع الغزاة أنفسهم ، وتصفية جيوبهم في أرضنا .

وإن أمتنا تملك في ذاكرتها الحية الوقادة ، من الأحداث الجسام وتجارب التاريخ ،وعِبرِه مالا تملكه غيرها أمةٌ من الأُمم قديمها وحديثها .

إن تحالف القوى الإنفصالية المعادية للوحدة العربية ، والفئات الإنعزالية في الوطن العربي بعضها مع بعض ومع القوى الأجنبية المعادية والغازي .. كل ذلك أمر متوقع ويجب أن لايدهشنا أبداً . لقد حصل مثل ذلك في الماضي ، مما أوردت،نماذجاً ساطعة منه ؛ ومازالت فصوله تتكرر اليوم على الساحة العربية وفي أكثر من موقع وقطر عربي،مما هو وقائعه ثابتة ومعروفة ، ولا أراني بحاجة إلى الإسهاب والتفصيل في فصول المؤامرات والتحالفات التي حيكت وتحاك اليوم بغرض كسر توجهنا الوحدوي وإجهاض مسيرة البناء والتحرير، أو على الأقل إعاقتها وحرفها بعيداً عن مبتغاها، بشكل يكون فيه الصراع مع الكيان الإستيطاني اسرائيل هو آخر الصراعات في المنطقة وليس بأولها .

إن القوى الإنفصالية والفئات الإنعزالية من شعبنا هي التي وقفت وماتزال كذلك اليوم في موقع العداء التاريخي من مسيرة الوحدة العربية والتحرير العربي من الغزاة والإحتلالات الأجنبية .. لأنها هي المتضررة منها، لأنها تخسر في الوحدة والتحرير مواقع نفوذها ، وتتحطم في خضم الوحدة

أركان عروشها ؛ لذلك تلجأ إلى التآمر مع الأجنبي على أبناء شعبها ، وتضع عروشها تحت حماية جِراب الأجنبي ، وترضى منه أن تعيش على فتات موائده طالما بقيت لها ألقابها الفاخرة من الزعامات العشائرية التي عفّ عليها الدهر ، وآن لها أن تتحول إلى مستحاثات وقد تحجرت في متاحف نضالنا القومي ..

هذه القوى الإنفصالية والإنعزالية تخسر في الوحدة والتحرير مواقع نفوذها، مثلها تماماً مثل القوى الأجنبية الغازية ، والإحتلالات الإستيطانية وإن تعددت أشكالها وتسمياتها والتي تنسف الوحدة العربية أمامها كل فرصةٍ للوجود ، وتسد في وجهها مسالك البقاء والنهب الإستعماري والهيمنة والتسلّط على جماهير أمتنا التي مازالت تغذّ السير في رحلتها في مسيرة البناء ؛ مسيرة الوحدة والتحرير معاً وبناء المجتمع العربي الجديد.

ترى هل جاء تدفق القوات الأجنبية في آب ١٩٩٠م إلى الجزيرة العربية والخليج العربية بحماسٍ منقطع النظير ، وفي تظاهرة ضخمة هي الأضخم من نوعها في تاريخ العالم المعاصر ، بدافع الإنتصار للقانون الدولي الذي خُرِق من جرّاء الإجتياح العراقي للكويت ، والذي في وجهة نظري قد هُيِّئَ له من قبل العواصم الغربية ذاتها ليكون ذريعة لما جرى ؟! ترى هل كا حماسهماللاهب على أرضنا هو من قبيل الغيرية الإنسانية على الإنسان العربي ؟؟ في الوقت الذي لم يعرف العالم شيئاً من ذلك عندما اغتُصبت فلسطين عام ١٩٤٨م ، ومازال شعبها يُساق إلى المذابح على مرأى ومسمع أوربا وأمريكا دون أن يتخذوا حتى قرار إدانة لهمجية الغزاة الصهاينة .. ودون أن يحركوا ساكناً عندما احتلت اسرائيل عام ١٩٦٧

مساحات شاسعة تزيد على حجمها التي غُرِست فيه عام ١٩٤٨ بثلاث مرات، وعندما احتلت بعدها عاصمة دولة عربية بيروت عام ١٩٨٢ ودون أن يحركوا ساكناً أو حتى قرار إدانة يتفقوا عليه في مجلس الأمن !!

ترى ألا يملك العرب - وما أعظم قوتهم - من القوة مايكفي لحماية العربي من أخيه العربي ؛ فكان هذا الإستنجاد العاجل بأوربا كلها وبأمريكا كلها ، وبغرض حماية المقدسات الإسلامية أيضاً ؟ ؟ .

عزيزي القارئ .. إنها المكيدة والمؤامرة معاً التي استهدفت وجودنا الحضاري والقومي والإنساني ، تماماً مثلماً فعلوا ذلك مع أجدادنا بالأمس . إنها المكيدة والمؤآمرة ومايرافقها من استعداء العربي على أخيه العربي ؛ وما يرافقها من تكريس التجزئة والحفاظ على واقع الدويلات والإمارات المتناحرة بعضها مع بعض بشكل يتم فيه طلب حماية كل مها للإحتلالات الأجنبية ، والقوى الأجنبية المعادية في مواجهة بعضنا بعضاً ، تماماً كم أوردت ذلك ... بأمثلة حية ووقائع ساطعة أيام الحروب الصليبية .

كل ذلك بغرض الإبقاء على النهب الإستعماري والتسلط العدواني وقهر إرادة المقاومة فينا ؛ مع ما يرافق كل ذلك من الحفاظ على الشروط المواتية لهم لاستبعاد أمتنا وقهرها وسلبها لوجودها الإنساني .

فهل نحن يقظون لما يجري حولنا ؟.

وهل اتعظنا من دروس التاريخ وعبره وتجارب الآباء والأجداد ؟؟.

صلاح الدين .. قائد تاريخي عظيم لم تفقده امتنا بعد !

لقد توج صلاح الدين - واسمه الأصلي يوسف بن نجم الدين أيوب - سلطاناً في دمشق في كانون أول ١١٧٦م على دولة عظيمة امتدت من الموصل في العراق إلى اليمن في الجزيرة العربية ، ورمت جذورها في وادي النيل وليبيا وحتى مشارف تونس .

لقد كانت قضية التحرير شغله الشاغل مثل سلفه نور الدين الزنكي، فبعد القضاء على كافة الفتن والمؤآمرات التي حيكت فصولها بتعاون وتحالف وثيق بين أعداء الداخل وأعداء الخارج من الغزاة الصليبيين معاً ، قاد صلاح الدين بنفسه عملية البناء الداخلي ، وإعداد الدولة من أجل خوض معارك التحرير والإسترداد ، مع مايعني كل ذلك من خلق وإيجاد الشروط المادية واستثمار الأوضاع المحلية ، والدولية ببراعة وعبقرية .

لقد أرسى دعائم اقتصاد وطني متطور ومتنوع لدولة عملاقة ، وقام بتوظيفه وتوجيهه وزجّه من أجل بناء جيش قوي مدرب ، وأسطول بحري مجهز بأحدث آلات الحرب في عصره ، ومنظم تنظيماً دقيقاً .

وكان مافتئ - رحمه الله بطلاً كبيراً - يردد الآية القرآنية الكريمة :

« وأَعِدّوا لهَمْ ماستطعتُمْ مِن قوّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخيل

تُرهِبونَ به عدوَّ اللهِ وعدوّكم » (صدق الله العظيم) .

ومن أجل ذلك قام بإقامة شبكة واسعة من العلاقات الدولية في عصره ، وعرف الدبلوماسية الرفيعة والمعقدة ، وكان حاذقاً في استثمار التناقضات والنزاعات السلطوية بين خصومه على الساحة الدولية .

لقد كان قائداً عسكرياً فذاً شجاعاً خَبِر الحروب ، وخَبِرته ساحات الحرب ؛ وكان بنفس الوقت رجل دولة من الطراز الأول،كل ذلك مكّنه من دفع مسيرة البناء والتحرير معاً،قدماً إلى الأمام .

فرغم انشغاله بحروب الصليبيين الأوربيين ، قام في الوقت ذاته بعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية،مثل البندقية ، وجنوة وبيزا ، وغيرها،وسمح بإقامة قنصليات لهم في دمشق ودمياط،والإسكندرية والقاهرة وبيروت .. كل ذلك بغرض توفير مستلزمات الدولة العصرية المتطورة القادرة على مجابهة التحديات الجسام .

إن اتساع نطاق علاقات صلاح الدين الديبلوماسية والتجارية معاً مع الجمهوريات الإيطالية في عصره ، واستثماره لخلافات خصومه .. هو الذي دفع البابا في روما إلى إصدار أوامره بمنع التجارة مع العرب المسلمين ..

ولمّا لم يلق نداء البابا في روما تجاوباً من تجار إيطاليا والغرب،أصدر قراره المشهور بحرمان كل من يبيع المسلمين حديداً سلاحاً أوخشباً لصالح الأغراض الحربية ، وكل من يدخل في خدمتهم قائداً على سفينة أو مرشداً لهم .. بحرمانهم من دخول الجنة والغفران بالإضافة إلى مصادرة أملاكهم في الدنيا قبل وفاتهم !

(انظر تاريخ العصر الأيوبي . دكتورة أمينة البيطار جامعة دمشق ١٩٨١) .

لقد وصف المؤرخ العربي ابن شدَّاد البطل صلاح الدين ،حيث رافقه في حروبه وصفاً دقيقاً جاء فيه :

(كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً . بحيث ما كان له حديث إلاّ فيه ، ولانظر إلاّ إلى آلته ، ولاكان له اهتمام إلاّ برجاله ، ولاميل إلاّ إلى من يذكره به ويحثه عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر ملاذه ، وقنع في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ،وكان لا يبالي بركوب المخاطر من أجل دفع غائلة الفرنجة واسترداد البلاد من براثنهم) .

(المصدر نفسه د. أمينة البيطار) .

وخلاصة القول .. لقد أكسب صلاح الدين مسيرة التحرير القومي في عصره مضامين جديدة ، وأغناها بمفاهيم ثرّة متطورة وانطلق بها إلى آفاق رحبة نسيحة ، مما يشكل نموذجاً حياً متجدداً لمسيرة الأمة العربية اليوم وهي تواجه الإحتلالات الأجنبية ، والإمتدادات الصليبية البائدة .. في معركة خلاصها ، ومما نحن بأمس الحاجة إليه اليوم في البناء الإقتصادي، والبناء القومي الوحدوي ، وعلى صعيد العلاقات الدولية الواسعة واستثمارها بشكل ناجح لخدمة قضايانا المعاصرة .

لقد كان صلاح الدين رحمه الله قائداً تاريخياً ، أنجبته الظروف الصعبة التي مَرَّت بها أمتنا ، وعركته التجارب والحروب ؛ وهو قبل ذلك

كله كان قائداً قومياً تجاوز حدود التجزئة ، ملك قلوب جماهير الأمة التي التفت حوله في وحدة نادرة،لأنه كان يعرف كيف يحرّكها ، ويخاطبها،ويعرف كيف يثير جذوة الحماس الوطني فيها ، ويستثير حميتها القومية والدينية معاً،ويزكي بواعث الغيرية فيها ، مع الإستفادة القصوى مما يحمله التراث القومي ، والعقيدة الإسلامية من معانٍ نبيلة سامية ، ومبادئ راسخة في الحمية الوطنية واستنهاض همم الجماهير إلى الجهاد المقدس ، مما جعلهم يتسابقون إلى طلب الشهادة أو النصر .

لقد كان رحمه الله مثلاً يُحتذى ، أحب الجماهير ، وأحبته الجماهير، بحيث أصبح اسمه معقد الأمل في كل من تتوسم فيه الجماهير قيادتها في معركة خلاصها . ولهذا أطلقت الجماهير العربية على الزعيم الراحل جمال عبد الناصر اسم صلاح الدين وقد رأت فيه العمل ، وأحست فيه الأمل .. وهكذا أيضاً رددت اسم صلاح الدين في شخص القائد الشجاع حافظ الأسد .

ويبقى اسم صلاح الدين على مر الزمن قائداً تاريخياً عظيماً لم تفقده جماهير أمتنا بعد في مسيرة خلاصها ووحدتها وحريتها .

ملحمة حطين تكررت في أمجاد تشرين :

وهكذا شمخت أمتنا في ملحمة ذي قار ، والقادسية واليرموك في حطين وفي عين جالوت ، كما شمخت تعانق السماء في حرب تشرين .

ونظراً للمعاني التاريخية العميقة لكل من حطين وحرب تشرين . . .

. . . وموقع كل منهما في التاريخ الكفاحي العربي والإنساني ، والتماثل بين الحدثين العظيمين ، كما بَيَّن الغزاة الصليبيين والصليبيين الصهاينة

الجدد،لذا فإنني أبرز الجوانب المشتركة لكل منهما،من دون إسهاب :

١ - إن مسيرة البناء الداخلي في مرحلة القيادة التاريخية للقائد صلاح الدين سارت جنباً إلى جنب مع مسيرة التحرير . إن الهدف النهائي الذي حدده صلاح الدين من بناء الدولة القوية ذات القدرات الإقتصادية والموارد والطاقات البشرية والمادية الضخمة ، والتي امتدت من الموصل في الشمال والشرق إلى أطراف تونس في الغرب وإلى السودان واليمن جنوباً - كان يكمن في توظيف كافة طاقات هذه الدولة العملاقة وتوجيه قدراتها باتجاه المعركة الفاصلة ومن أجل استرداد كل شبر من الأرض من براثن الكابوس الصليبي .

وبعدما تحققت كل أسباب القوة والنجاح في عهد سلفه نور الدين الزنكي الذي حدد الهدف النهائي في تحرير بيت المقدس ، وأمر ببناء منبر خاص بغية أن تلقى منه خطبة التحرير في المسجد الأقصى بعد تحريره من دنس الغزاة بشكل أصبح فيه هذا الهدف قاب قوسين أو أدنى من الإنجاز الفعلي ، ولكنّ رحلَ نور الدين قبل أن تكتحل عيناه برؤية بيت المقدس ، وإلقاء خطبة التحرير من منبر التحرير في المسجد الأقصى وقد تم تحريره . فجاء صلاح الدين وقام باستثمار كل ماأنجزه سلفه واستكمال وتطوير شروط مسيرة التحرير ، وعندما تهيأت الجماهير في مصر والشام لخوض المعركة الفاصلة كان الغزاة الصليبيون غارقون في غطرستهم وصلفهم اللامحدود، وكان القديس رينودي (رينالد)شاتيون الذي عرف بـ أرناط يغدر بقوانل الحجج ويسخر من المقدسات ، ويغرق القتلى العرب بسيل دمائهم وهو يهزأ

ويستخف بكل العرب والمسلمين . . .

.. بقوله : (فليأتِ محمدكم ليخلّصكم !) .

كل ذلك مما زاد جذوة الغيرية الوطنية لدى جماهير العرب اتقاداً، فامتلأت النفوس حماساً وعنفواناً ، وتهيأت للمعركة الفاصلة .

وفي المقابل نجد على خط المجابهة مع الكيان الإستيطاني الصهيوني، القائد التاريخي حافظ الأسد ، الذي قاد حركته التصحيحية المجيدة في السادس عشر من تشرين الثاني ، وحدد الهدف والغاية،بزج كل الطاقات والإمكانيات من أجل استرداد الأرض العربية السليبة ، وَرَبَط بين البناء الداخلي وبين مسيرة التحرير والإسترداد ؛ في الوقت الذي كان فيه العدو الصهيوني غارقٌ في غطرسته ، يقصف ويقتل ويزرع الدمار في أرجاء الوطن العربي حيثما سمحت له آلته الحربية وطائراته بالوصول والقرصنة،كما في تفجير طائرة الركاب الليبية فوق سيناء عام ١٩٧٢.

وكما أن حطين ماكانت لتتم لولا أن تهيأ لها قائد تاريخي شجاع حمل على كتفيه الأمانة التاريخية هو البطل صلاح الدين الذي اقترن اسمه بأمجاد حطين .. كذلك فإن حرب تشرين كانت ثمرة إعداد دؤوب للمناضلين والأشاوس في مصر وسوريا معاً ، وصرخة حق أطلقها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، تحدّياً لانتكاسة الجماهير التي ألمت في الساحة العربية إثر حرب ١٩٦٧ الي دبرها الغرب الإمبريالي الصليبي للانتقام من القوى القومية العربية ؛ ولكن دون أن يُكتَب للرئيس عبد الناصر-مثله في ذلك مثل نور الدين الزنكي - معاصرتها .

كذلك فإن حرب تشرين ماكانت لتتم لولا أن تهيأت لها قيادة

تاريخيـة شجاعة ونادرة في شخص القائد المناضل حافظ الأسد الذي حمل على كتفيه قضية التحرير منذ أيام شبابه الأولى ، وجعل منها شغله الشاغل ، وهو الذي اقترن اسمه بأمجاد حرب تشرين .

٢ - في ملحمة حطين امتزج الدم العربي في المشرق العربي ومغربه بعضه مع بعض ليتجاوز حدود التجزئة في وحدةٍ كفاحية ضد عدوٍ مشترك، كان أهم مافيها التقاء مصر وسوريا ؛ كذلك في حرب تشرين امتزج الدم العربي بعضه مع بعض من أقصى المشرق في العراق إلى أقصى المغرب في مراكش،في تضامنٍ كفاحي حقيقي كان أهم مافيه التقاء مصر وسوريا أيضاً.

٣ - حطين كانت نقطه انعطاف بارزة مضيئة في مسيرة التحرير العربي ، أخذ فيها العرب لأول مرةزمام المبادأة والهجوم بعد سنوات طوال من الكابوس الإستيطاني الصليبي ، فحررت الإنسان العربي من عقدة النقص والقصور التي دأب الغزاة على غرسها مع أنها لم تحرر كامل الأرض.

كذلك تماماً حرب تشرين ، حيث حارب العرب لأول مرة كما يجب أن يحاربوا ، وكانوا هم الذين فرضوا على الكيان الإستيطاني بدء المعركة ومكانها ، بعد سنوات طوال من واقع الإنسحاق ومرارة الهزيمة واليأس ، فكانت أهم حدث في التاريخ العربي المعاصر .

٤ - حطين أضاعت هيبة الممالك الصليبية ، وزرعت في نفوسهم مرارة الهزيمة ، وكانت أكبر ضربة موجعة تلقّاها الفرنجة منذ أن دخلوا المشرق العربي عام ١٠٩٧م محتلين غازين .

كذلك تماماً حرب تشرين التي زرعت الخوف في صفوف العدو وكانت

الزلزال الذي نقل الصليبيين الجدد من عالم الغطرسة والتفوق السحري إلى واقع الإنسحاق واليأس والدمار وخيبة الأمل ، مما بذل معهم الغرب ومازال ليومنا هذا جهوداً مستميتة لانتشالهم منه وتحريرهم من عقدة مواجهة المقاتل العربي ، كما أنها أسقطت هيبة إسرائيل لدى الغرب ذاته .

٥ - حطين حكمت على الوجود الصليبي في المشرق العربي بالزوال ، وما كان لقوة أن تغير ذلك الحكم التاريخي ، مع ماحدث من محاولات يائسة لتأخير حركة التنفيذ . فبين حطين في ٤ تموز ١١٨٧م وبين سقوط آخر معقل للغزاة الصليبيين في عكا،على يد السلطان الأشرف خليل قلاوون في ١٨أيار ١٢٩١م،مايزيد على مائة عام .

كذلك تماماً حرب تشرين ١٩٧٣، إنها الهزيمة الأكثر إيلاماً في تاريخ الكيان الإستيطاني الصليبي اليهودي . وهي وإن لم تنهِ هذا الوجود الغريب من أرضنا بعد ، ولكنها حكمت عليه بالزوال،ولو بعد حين .

وليس لقوةٍ في العالم مهما عظمت أن توقف حكم التاريخ .

إنها حرب تشرين ، كما أراد لها قائدها الأسد أن تكون . لقد دقت ناقوس الخطر .

ويحضرني هنا صرخة القائد صلاح الدين في ملحمة حطين وهو يستنهض همم المحاربين ويشدهم إلى انتزاع النصر واقتلاع الغزاة من قلاعهم في حماس لاهب :

" واعرباه ! وإسلاماه ، ياجند محمد ، ياأحفاد عمر وعلي .. هَبَّت رياح الجنة ! " .

ويحضرني في الوقت نفسه صرخة القائد الأسد في معمعان حرب تشرين وهو يستصرخ ضمائر المقاتلين ، وحماسهم :

« يا أحفاد خالد وأبي عبيدة وعمر وسعيد وصلاح الدين .. إن ضمير أمتنا ينادينا ، وأرواح شهدائنا تستحثنا أن نتمثل معاني اليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت ، وإن جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج تشخص بعيونها وأفئدتها إلى صمودنا العظيم وكلها أملٌ وثقة بأننا إلى النصر سائرون » .

٦ - إن مسيرة التحرير التي تعاظمت في ملحمة حطين ، كما في حرب تشرين عام ١٩٧٣م نجدها ، هنا وهناك قد تعثرت بعدها .. وماذلك إلا لفداحة الفاجعة التي ألمت بالصليبيين ، والصليبيين الجدد الصهاينة .

مـابعد حطين .. أم مـابعد تشرين ؟؟

عزيزي القارئ .. إن مسيرة التحرير ليست دوماً حركة مطرّدة إلى الأمام بوتيرة ثابتة . قد تكوع يميناً ؛ وقد تكوع يساراً .

تُبطئ حيناً وتسرع أحياناً ولكن دون أن تتوقف ..إنها سفينة النجاة في وسط العاصفة . إنها معقودة الأمل بالنصر .. ولكنه النصر المغمّس بدماء قوافل الشهداء . هكذا كانت مسيرتنا عبر التاريخ شاقة ومريرة ، ولكنها لم تنكفئ يوماً ، كما أنها لم تركع أبداً أمام بطش الغزاة وجحافل جيوشه . كما أن سقوط الخونة والمأجورين ، عملاء الأجنبي الدخيل ،وإن شكل ذلك حاجزاً أمامها ، ولكنه كان حاجزاً مؤقتاً ، تمكنت الأمة دوماً من تحطيمه ونسفه وتجاوزه ، وكأنّ شيئاً لم يكن ..

إن كل انتصار تحققه مسيرة الأمة في معترك خلاصها من الغزاة ، يستتبع هجمةً معاكسةً من جانب الغزاة أنفسهم ، وكثيراً ما تكون أشرس من هجمتهم الأولى التي جاؤوا بها ، إنهم عندما يفقدون موقعاً من مواقعهم سيلجأون بعدها إلى استنفار كافة شرورهم واستخدام كامل مخالبهم ، وكل مافي جعبتهم من سهام الغدر والعدوان .

إن وحش الغابة أكثر مايكون فتكاً وشراسةً عندما يصاب بسهمٍ

تسيل منه دماؤه .. وهكذا هم الغزاة الصليبيون ، والصليبيون الجدد الذين لجأوا إثر حطين ، كما إثر حرب تشرين إلى سلسلة من الهجمات الشرسة ، والمكائد والمؤامرات بفرض تطويق ماأنجزته العرب بانتصارها العظيم ، وتشتيت وبعثرة وشق جبهة الكفاح العربي المشترك ،مع التركيز على إحداث شرخ بين مصر وسوريا ، توأمي النضال القومي المشترك منذ الأزل ..

وإذا استعرضنا تاريخ الغزو الصليبي والمغولي ، ووقائع وانتصارات مسيرة التحرير العربي التي وُلدِت وتأصلت وشمخت في أتون التصدي للغزاة من صليبيين ومغول وتتار ، لوجدنا أن تلك الصورة الدامية لوحوش الغابة أو قُلْ للغزاة جميعهم ، كانت ملازمةً لتلك المرحلة الزاخرة بالكفاح والملاحم طيلة مايزيد على ثلاثة قرون . وهي نفسها اليوم ، بل قُلْ تكاد تكون أكثر وضوحاً في مسيرة التحرير والبناء التي تخوضها أمتنا منذ مطلع القرن العشرين في مواجهة تحالف الصليبيين الجدد من استعماريين وصهاينة.

إن الغزو الصليبي ، وإن كان يشكل من حيث مضمونه حملةً واحدة بدأت عام ١٠٩٧م وانكفأت وتقهقرت تماماً عام ١٢٩٣م بسقوط آخر المعاقل الصليبية في عكا على الساحل السوري ، على يد السلطان الأشرف خليل قلاوون ؛ ومع ذلك فإن هذا الغزو يقسمه الباحثون إلى حملات ثمانٍ متلاحقة .. وماذلك بغرض سهولة البحث والدراسة بقدر ماهو للربط بين الفعل ورد الفعل .. بين الغزو والتحرير .. بين الإنتصار العربي والتقهقر الصليبي .. وكل حملةٍ كانت تجيء لنجدة أختها ؛ وهكذا تعاود أوربا اليوم

مسيرتها الأولى .

فالحملة الصليبية الأولى بدأت ١٠٩٧م وأقامت إمارة الرها ، إمارة أنطاكية ، إمارة طرابلس ، وإمارة بيت المقدس .

ومع اتساع حملة الإستيطان الأوربي الصليبي الأولى،وُلِدت مسيرة التحرير لتنزل ضربةً موجعة بالإحتلالات الإستيطانية الصليبية ، وتمثلت تلك الضربة بصمود حلب البطولي أمام أشرس حصار قام به الصليبيون وانتهى بانكفائهم وتقهقرهم أمام أسوارها عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤م .

وبعدها تهيأت لحلب والموصل معاً قيادة عظيمة في شخص عماد الدين الزنكي الذي استطاع قيادة مسيرة التحرير والإنتقال بها من الدفاع إلى الهجوم فحاصر الرها،الإمارة الصليبية الأولى،وأسقطها تماماً في ٢٣ك١ ١١٤٤م .وكانت هذه ضربة أخرى أكثر إيلاماً ، استتبعت هجمة معاكسة من جانب الغزاة ، عُرِفت في تاريخ الحروب الصليبية بـ الحملة الثانية التي قادها ملك فرنسا لويس السابع مع كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ، كل منهما على رأس جيش زاد عن سبعين ألف محارب،وجاءت عن طريق البحر عام ١١٤٥م أي بعد سقوط إمارة الرها بأقل من عام . لقد استهدفت توجيه ضربةٍ قاضية إلى مسيرة التحرير في مهدها ، ووقف عملية المد الوحدوي والتحرري معاً لدى العرب . ولكنها فشلت في استعادة الرها فكَوّعت باتجاه دمشق ، وتقهقرت مرة أخرى أمام أسوار دمشق عام ٥٤٣هـ / ٢٤/ الموافق ٧ / ١١٤٨م عندما توحدت فصائل المقاومة العربية في الشمال والجنوب بعضها مع بعض في جبهة واحدة بقيادة نور الدين الزنكي .

وبعدها في أتون التصدي البطولي للإحتلالات الصليبية ، تعاظمت

فصائل المقاومة العربية والتقت بعضها مع بعض ، فصنعت الوحدة بين مصر والشام،بعد أن حررت مصر من الحماية والهيمنة الصليبية في عهد نور الدين الزنكي ، وبذلك انتقلت مسيرة التحرير العربي المظفرة إلى مواقع جديدة ، تمكنت منها أن تُنزِل ضربة جديدة بل قل ضربةً قاصمة بمواقع الغزاة الأوربيين وتمثلت بالإنتصار العظيم الذي حققه العرب في ملحمة حطين في ٤ تموز ١١٨٧م بقيادة صلاح الدين . هذا الإنتصار أذهل الغزاة ، ووضع وجودهم ، قاب قوسين أو أدنى من اللاوجود . فاستنفروا على الفور كافة كمائنهم ، وممالكهم ، وضربوا بوق الفزع في كافة أرجاء أوربا،وتوالت عليهم النجدات والذخائر ، وهذا ما عُرِف في تاريخ الحروب الصليبية بالحملة الثالثة الي أعقبت الإنتصار العظيم في حطين .

وإنني أجد من المفيد إلقاء الضوء على ماحدث بعد ملحمة حطين، نظراً لتماثل ذلك لما جرى ويجري بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، رغم شقة الزمن . فالشروط الموضوعية في كل منهما متماثلة ، والتحالفات العدوانية بعدها هنا ، وهناك،تكاد تخرج من قالبٍ واحد .

ولنتذكر جيداً أن صلاح الدين قام بتحرير بيت المقدس ودخولها يوم الجمعة في ١٥رجب ٥٨٣هـ / أيلول ١١٨٧ وإسقاط الإمارة الصليبية فيها، وذلك إثر الإنتصار العظيم في حطين في ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م . ولنذكر قيام صلاح الدين بإحضار منبر سلفه نور الدين إلى المسجد الأقصى حيث أُلقيت منه خطبة التحرير ، وأن صلاح الدين لم يفعل شيئاً من ذلك الذي فعله الصليبيون يوم دخولهم بيت المقدس على دماء أبنائها عام ١٠٩٨م .

لقد تابع بعدها صلاح الدين تحرير الساحل السوري من اللاذقية إلى غزة باستثناء مدينة صور التي لم يتمكن من تحريرها بسبب تدفق نجدات أوربا إليها عن طريق البحر ، بالإضافة إلى شدة الشتاء، مما أجبر صلاح الدين بالعودة عنها بعد أن حاصرها طيلة الصيف .

ومع أن جاي لوزجنان حاكم بيت المقدس كان قد عاهد صلاح الدين في أن لايُشهر سلاحًا في وجهه بعد حطين ، ولكن ما أن خرج من الأسر حتى قام بجمع وحشد غلول الصليبيين وتوجّه بهم لحصار عكا حيث كانت قد تدفقت نحوها النجدات الصليبية عن طريق البحر، والتي عُرِفت في تاريخ الحروب الصليبية بالحملة الثالثة . وانضم إلى الحملة الثالثة بالإضافة إلى لوزجنان أيضاً أمير طرابلس بوهيموند .

وتصدت عكا لتحالف صليبي عنيف دام حصاره حولها عامين كاملين لم يستطع صلاح الدين، مع بسالة أهلها وحاميتها، الاستمرار في الصمود فقام بتوقيع اتفاقية تسليم عكا مع ريتشار قلب الأسد ملك بريطانيا قائد الحملة الثالثة ، ومع أوغست ملك فرنسا ، مقابل قيام كل من الطرفين بتبادل الأسرى ، وخروج حاميتها من المدينة .

وهكذا استسلمت عكا في ١٢تموز ١١٩١م ؛ ولم يُنَفّذ ريتشار قلب الأسد شيئاً من بنود اتفاقية تسليم عكا ، فقتل ثلاثةآلاف من الأسرى خِلافاً لما اتفق عليه ، هذا ولم يعامل صلاح الدين الأسرى الصليبيين لديه بالمثل، بل أعادهم إلى قلعة دمشق .

ومن الجدير ذكره أن الحملة الثالثة التي اشترك في قيادتها كل من

امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا ، وأوغست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا،بالإضافة إلى أمراء وقادة الصليبيين المحليين،والتي زادت قواتها عن نصف مليون محارب ، قد فشلت تماماً في استعادة بيت المقدس رغم ضراوة القتال وغزارة النجدات ، وانكفأت أد راجها أمام صلابة وبسالة المقاومة العربية في بيت المقدس ، مما أجبر قادة الحملة الثالثة على توقيع هدنة مع صلاح الدين عُرِفت باسم اتفاقية الرملة في ٣ أيلول ١١٩٢م مدتها ٣ سنوات و٣ أشهر وتنتهي في كانون أول ١١٩٥ م ، مع الإشارة إلى أن القائد صلاح الدين قد توفي رحمه الله في دمشق في الثالث من آذار ١١٩٣م قبل انتهاء مدة الهدنة .

بوفاة صلاح الدين،وقع صراع على السلطة بين ولديه الأفضل نور الدين في دمشق ، والعزيز في مصر .. هذا الصراع الذي وجد فيه الصليبيون ضالتهم فقاموا بتسعيره وترقّب ما سينجم عنه . ولكن الملك العادل أخ صلاح الدين تمكّن من بسط سيطرته على مصر والشام معاً عام ١١٩٨م وإعادة توحيد توأمي النضال القومي ، كما كان الحال أيام أخيه صلاح الدين .. كل ذلك لم يَرُق لقادة الغزو الصليبي ، الذين كانوا ينظرون بعين القلق إلى جهود العادل في توحيد الجبهة بين مصر والشام ؛ فسارعوا إلى تطويق مسيرة الوحدة والتحرير ، وتلغيم البناء الوحدوي بين مصر والشام .. وضمن هذا الإطار والهدف جاءت جموع الصليبيين من أوربا بدءاً من ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م بقيادة هنري السادس بن فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، والتي عُرِفت باسم الحملة الرابعة .

لقد تمكن العرب المسلمين بقيادة العادل من إبادتها عند خروجها من عكا ، وعلى مقربة من أسوارها ، وقاموا على إثرها تماماً بتحرير مواقع جديدة كان أهمها استعادة يافا من أيدي الغزاة .

إن الحملة الصليبية الرابعة التي قادها الإمبراطور الألماني لم تُحَقق شيئاً من أهدافها ، وانكفأت أدراجها ، مع أنها تعززت بنجدات متلاحقة قادها كل من ليبولد السادس دوق النمسا ، وأندريه الثاني ملك هنغاريا ، وخيو ملك قبرص وغيرهم،حيث هزمهم العرب بقيادة العادل تماماً ، وبددوا جموعهم عام ١٢١٧م .

ومع تعاظم مد التحرير والاسترداد العربي بقيادة الملك العادل أخ صلاح الدين واستفحال خطر زوال الكيانات الإستيطانية الصليبية في المشرق التي أضحت تخسر موقعاً لها تِلوَ والآخر ، وبنداءآت استغاثة متلاحقة أطلقها كل من البابا أنوسنت الثالث ، ومن بعده هوّ نُوريوس الثالث في روما.. إثر كل ذلك،تدفقت النجدات الصليبية التي لم تتوقف يوماً منذ عرف المشرق العربي الحملة الأولى . تلك النجات التي عُرفت باسم الحملة الخامسة والتي انطلقت من عكا - حيث أصبحت عكا مركز مملكة بيت المقدس بعد تحرير بيت المقدس من قبل صلاح الدين - وقد قادها حاكم بيت المقدس في عكا الذي عُرِف بـ حنّا الأول ، هذه الحملة خرجت بحراً باتجاه دمياط واستهدفت احتلال مصر ، بصفتها مفتاح بيت المقدس ، وأحد فكي جبهة التحرير والإسترداد العربي .

لقد صمدت دمياط في وجه الحصار الصليبي تسعة أشهرٍ كاملة ،

ولم تسقط في يد الصليبيين في ٥ تشرين الثاين ١٢١٩م إلا بعد وفاة العادل وبسبب اندلاع فتنة داخلية بين أبنائه من أجل العرش . وبسقوط دمياط أعمل فيها الغزاة السيف والخراب والنهب كعادتهم في نشر الذعر وتصدير الرعب ، تماماً كما هي سلوكية كافة الإحتلالات التي عرفتها أمتنا تماماً كما يفعل الكيان الصهيوني-اسرائيل-إثر كل عملية اجتياح بدءاً من دير ياسين عام ١٩٤٨ وحتى يومنا هذا .

لقد أقام الصليبيون في دمياط رأس جسر لهم للعبور منه إلى القاهرة وما أن وصلت إليهم النجدات بقيادة فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا حتى تابعوا زحفهم في النيل باتجاه القاهرة وذلك صيف عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م . ولكن الإنتصار الصليبي في دمياط كان قد تبدد في مياه النيل حيث أفلت عليهم الملك الكامل في مصر مياه السدود ، وأغرق مراكبهم في مياه النيل عند وصولهم رأس الجزيرة قرب القاهرة ، وأسر من بقي حياً منهم ، مما جعلهم يطلبون الصلح مقابل الإنسحاب تماماً من مصر ، ويقدمون قادتهم رهائن لغاية استكمال الإنسحاب . وكانت بذلك هدنة القاهرة في السابع من أيلول ١٢٢١م ومدتها ٨ سنوات وتنتهي في عام ١٢٢٩م .

هكذا بادت الحملة الخامسة ، مثل أختها ، وأخواتها من قبل .

وإثر كل نصر ٍ تُحَقِقه مسيرة التحرير ، يهرع الغزاة المحتلون وعملاؤهم إلى تطويقه ، واستباقِ أصحابه من قطف ثماره،واستثمار نجاحاته،

هكذا كان التآمر منذ الأزل على شعبنا ، ومازال كذلك اليوم .

فإثر كل ضربة تحرير ألجزها أجدادنا وآباؤنا ، كانت تبرز الأفاعي تلوح

برؤوسها من الداخل لضرب الجبهة الكفاحية ، ونسف وحدتها وشق صمودها .. خاصة عندما كان المحتلون الغزاة يقفون عاجزين عن تحقيق انتصار عسكري حاسم من الخارج . وهذا هو ماحصل بعد أن غرقت الحملة الصليبية الخامسة في مياه النيل ، وتبددت في رمال سيناء وأمام شاطئ دمياط . وهذا هو ماتكرر بتمامه بعد انتصارنا في حرب تشرين عام ١٩٧٣م ، وفي نفس المكان من مسرح الأحداث مع فارق شقة الزمن فقط .

ولنتذكر أن الإنتصار العظيم الذي حققه صلاح الدين في حطين ماكان ليحدث لولا وحدة الجبهة الكفاحية بين توأمي النضال القومي العربي مصر والشام ؛ وأن الإنتصار الرائع في إغراق الحملة الخامسة في مياه النيل ودحر فلول الصليبية من كامل مصر ، ماكان ليحدث أيضاً لولا أن وقفت سوريا إلى جانب أختها مصر في محنتها ، وانطلقت منها النجدات البشرية والمادية إلى القاهرة ، مما قلب كفة موازين القوى لصالح مسيرة التحرير والإسترداد ، بالإضافة إلى ماقامت به دمشق بقياة المعظم عيسى شقيق الملك الكامل في مصر ، من تكثيف وتصعيد الهجمات العسكرية على قلاع وتحصينات الصليبيين في الجبهة الشرقية بغرض تخفيف العبء العسكري ، وبعثرة الغزاة على الجبهة المصرية ، وهذا ما يعيد إلى الأذهان ماقامت به سوريا في حرب تشرين عندما انقضت بضربات صاعقة على تحصينات وخطوط دفاعات العدو الصهيوني من الشمال ، مما مكن الشقيقة مصر من اقتلاع تحصينات خط بارليف ، وتحقيق العبور الخارق إلى سيناء .

ولذلك لجأ الغزاة إلى سياسة التطويق والإلتفاف والمكيدة والمؤامرة

لتحقيق ماعجزوا عن تحقيقه في ميادين الحرب والقتال .

وكما في كل مرة ، لجأوا إلى دق إسفين الشقاق بين الإخوة الأشقاء، المعظم عيسى في دمشق ، والملك الكامل في مصر، أولاد الملك العادل أخ صلاح الدين ، بغرض إجهاض مسيرة التحرير العربي وتلغيم البناء الوحدوي وإطالة أمد الكيانات الإستيطانية الصليبية في المشرق العربي آنذاك .

ولبلوغ هذا الغرض افتعل الغزاة نزاعاً ، وزخرجوا مكيدةً قاموا بتأجيج نارها بين الأخوين الشقيقين الملك عيسى في دمشق ، والملك الكامل في مصر ، ووضعوا الملك الكامل أمام مواجهةً حقيقية لأخيه المعظم عيسى في دمشق ، وأوغروا عليه صدره ، فاستنجد بالإمبراطور الألماني فريدريك الثاني ، عدوه بالأمس ، واعِداً إياه بتسليمه بيت المقدس وجميع فتوح عمه صلاح الدين بالساحل السوري ، والتي لايملك أصلاً سلطةً أو تفويضاً من أحد في التنازل عن شيء منها .

ولما بلغ النزاع أشده بين الشقيقين لجأ فريدريك الثاني إلى ابتزاز الملك عيسى في دمشق ، في محاولة لاستمالته إلى جانبه تارةً في مواجهة أخيه الكامل ، وتهديده تارةً أخرى بأخذ بيت المقدس عنوةً . ولكن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق رفض كل ذلك بإباء وشمم ولوح في جوابه لسفير فريدريك بتساهل أخيه الكامل في حقوق العرب والمسلمين قائلاً متوعداً :

« قل لصاحبك فريدريك : ما أنا مثل الغير . ماله عندي سوى السيف » .

ولكن الملك عيسى توفي في دمشق في ١١ تشرين الثاني ١٢٢٧م،

فخلفه ابنه الناصر داوود وهو في الواحد والعشرين سنةً من العمر ، فسقطت بوفاة عيسى الحجة التي كان يتذرع بها الكامل في مصر للإستنجاد بـ فريدريك على أخيه في دمشق . ورغم ذلك فقد زحف الكامل بجيوشه باتجاه دمشق مغتنماً الفراغ الذي تركه أخيه برحيله ، متذرعاً بحماية المقدسات وبيت المقدس ، خشية الإستيلاء عليها من قبل الصليبيين.

بينما كان في حقيقة الأمر على موعد وصول جيوش الأمبراطور الألماني فريدريك الثاني الذي جاء بعده على رأس ماعُرِف بـ الحملة السادسة منطلقاً من صقلية في إيطاليا فوصل عكا في مطلع إيلول ١٢٢٨م .

ومن الملفت للنظر أن فريدريك الثاني كان قد وصل وهو عالمٌ بوفاة عيسى في دمشق ، وأن البابا في روما كان قد بعث إلى الكامل يتوسل إليه في عدم تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور الألماني فريدريك الخارج على طاعة الكنيسة ، وأن بيت المقدس الذي تم تحريره على يد القائد الكبير صلاح الدين بطل ملحمة حطين، قد تم التفريط فيه وتسليمه دون قتال من قبل الخائن الكامل - ابن أخ صلاح الدين العادل - بموجب اتفاقية يافا الإستسلامية مع فريدريك الثاني عام ١٢٢٨م،والتي تضمنت :

١ - تسليم مدينة القدس للصليبيين بقيادة فريدريك الثاني .

٢ - أن يبقى المسجد الأقصى للمسلمين دون حمل سلاح فيه .

٣ - إطلاق سراح الصليبيين الأسرى .

٤ - أن يعطى للصليبيين أيضاً بيت لحم والناصرة ، تبنين وصيدا والطريق من بيت المقدس إلى يافا على الساحل .

٥ - تحالف كل من الكامل وفريدريك الثاني بمحالفة الآخر ضد جميع خصومه أياً كانوا .

٦ - مدة هذه المعاهدة عشر سنوات . (انظر د. أمينة رزق المرجع السابق ص ١٨٩) .

وبموجب الإتفاقية أعلاه تم تسليم بيت المقدس إلى فريدريك الثاني الذي دخلها يوم السبت ٦٢٥هـ الموافق ١٧آذار ١٢٢٩م حيث تُوِّج فيها ملكاً على بيت المقدس ثم قَفِل بعدها بأيام عائداً إلى أوربا .

لقد أثارت اتفاقية يافا غضب العرب والمسلمين ، ولُعِنَ الكامل من على منابر الجوامع والمساجد ، ووصفه الخطباء آنذاك بالخيانة والزندقة في الدين ، والتهاون في حقوق العرب والمسلمين ، واعتبروا الإتفاقية وصمة عار في تاريخهم .

وباتفاقية يافا واجهت مسيرة التحرير العربي موقفاً صعباً من أحلك المواقف والأزمات التي مرت به ؛ في الوقت الذي حقق فيه الغزاة الصليبيون نصراً سهلاً لم يكن ليحلموا به .

اتفاقية يافا عام ١٢٢٨م .. أم اتفاقية كامب ديفيد ؟؟

إنّا إذ نستعرض معاً جانباً من مسرح التحرير العربي في مرحلة مابعد حطين ، فإننا نتذكر تماماً وقائع حرب تشرين وما أفرزته بعدها من أحداث على الساحة العربية والدولية . وما أشبه اليوم بالأمس،فجمال عبد الناصر كان رجل القومية العربية حامل راية وحدتها وكفاحها ، سقط شهيداً في معمعان معارك التحرير في مواجهة الغزو الإستيطاني اليهودي على ضفاف قناة السويس عام ١٩٧٠م . وجاء أنور السادات فصادر ماحققه سلفه عبد الناصر من إنجازات قومية رائعة،تماماً كما فعل الفعلة الساقطة ذاتها الملك الكامل في مصر عام ١٢٢٨م ، بمصادرته إنجازات أبيه العادل ، وعمه صلاح الدين،في ملحمة حطين .

أنور السادات في مصر شارك في صنع أمجاد حرب تشرين إلى جانب الرئيس حافظ الأسد في سوريا .. هذه الحرب التي قصمت ظهر الكيان الإستيطاني اليهودي ، وحطمت أسطورة التفوق الصهيوني ووضعت مستقبل وجودهم أمام اللاوجود قاب قوسين أو أدنى .. تماماً كما كانت ملحمة حطين . وأنور السادات هو نفسه قام بعدها،بالتآمر على العرب وعلى

سوريا ؛ والجرف في مستنقع الخيانة للأمة العربية ، وقضيتها المصيرية الأولى قضية فلسطين ، وتَعاوَن مع المحتلين الصهاينة على تصفية انتصارات حرب تشرين ، وتبديد إنجازاتها ، ومنع العرب من استثمار نجاحاتها وقطف ثمارها . لقد قدم نصراً سهلاً لأعداء الأمة العربية ،وتنكّر لأخلاقيتها ودماء شهدائها،عندما قام بزيارته الإستسلامية الخيانية إلى القدس تحت حراب الصهاينة أو قُلْ الصليبيين الجدد من يهود الخزر ٢٠/١١/ ١٩٧٧م ، ثم أعقبها باتفاقية كامب ديفيد في ١٩٧٨/٩/١٧ ، فاتفاقية الصلح مع اسرائيل في واشنطن في ٢٦/ ٣ / ١٩٧٩م مما يعيد إلى الأذهان تماماً تلك الصورة القميئة للخائن الملك الكامل في مصر ، واتفاقية الصلح في يافا عام ١٢٢٨م،فكل من الكامل والسادات دخل التاريخ العربي خائناً ، لأمته متآمراً على مقدساتها .. الكامل بعد حطين والسادات بعد تشرين ! وكل منهما تنازل عن حقوقٍ لا يملك تفويضاً من أحد بالتنازل عنها ولايجوز التنازل عنها ، لأن حقوق الوطن هي حقوق ثابتة للأمة وهي مما لايجوز التنازل عنها لأحد ، كما لايجوز بيعها أو شراؤها مثلما لا يجوز لأحدٍ التنازل عن حياته أو عن ولده للغير ، ولا يصح قانوناً مثل هذا التنازل إن وقع ، ويعتبر باطلاً، مثله والعدم سواء .

الكامل في صلح يافا ١٢٢٨م تنازل عن بيت المقدس وأجزاء أخرى من فلسطين دون قتال ، وهي أصلاً لم تكن تحت سيادته .

و السادات في اتفاقية الصلح مع اسرائيل مَثّل الجانب العربي ، ولم يفوضه أحدٌ من الأقطار العربية بذلك ،وتنازل عن حقوق شعب فلسطين ورضي بالقدس عاصمة أبدية لإسرائيل كما يزعمون ، وأعطى اسرائيل الحق في المرور والملاحة في خليج العقبة في مياه إقليمية هي أصلاً من حقوق السيادة للأردن ، والمملكة العربية السعودية ، ومما لايملك حقاً دولياً في التنازل عنها ، ولايصح التنازل عنها .

كلٌ من الكامل في مصر ، والسادات،تحالف مع عدوه في نفس البقعة من الأرض وعلى نفس القضية المقدسة فلسطين ، رغم فارق الزمن .

وكل من الإتفاقيتين شكّل شرخاً عميقاً في وحدة الصف العربي وجبهتها الكفاحية ، وأعاق مسيرة التحرير والإسترداد لسنوات بعدها ؛ وكل منهما شجبته الجماهير العربية وثارت نقمتها عليه .

ومن المفارقة أن الكنيسة في روما استنكرت صلح يافا بين الملك الكامل وفريدريك الثاني عام ١٢٢٨م ، بسبب اعتبارها الأخير خارجاً على طاعتها .وكذلك هيئة الأمم المتحدة التي شجبت جمعيتها العامة في دورتها رقم ٢٩ لعام ١٩٧٨ بقرارٍ صادر عنها رقم ٣٣ / ٢٨ ، اتفاقية كامب

ديفيد واعتبرتها خروجاً على إرادة المجتمع الدولي،إذ نص قرارها بالحرف :
« تعلن الجمعية العامة أن صحة أية اتفاقيات ترمي إلى حل قضية فلسطين تستدعي أن تتم داخل إطار الأمم المتحدة ، وميثاقها وقراراتها ، وعلى أساس نيل شعب فلسطين وممارسته على وجه تام حقوقه الثابتة بما في ذلك الحق في العودة ، والحق في الإستقلال الوطني والسيادة الوطنية في فلسطين وباشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في هذه الإتفاقيات » .

ورغم ما أحدَثته اتفاقية يافا من جراحٍ أليمة ، أدمت مسيرة التحرير وأطالت من عمر الغزاة الصليبيين في المشرق العربي ، إلا أنها لم تصمد أمام غضبة الجماهير التي تمكنت من تمزيقها وإسقاطها من خلال استئناف الكفاح وإعادة تحرير بيت المقدس ، وإسقاط آخر المعاقل الصليبية في الساحل السوري ، كما سنرى ذلك في متن هذا البحث .

وفي المقابل،فإننا نجد اتفاقيات كامب ديفيد قد سقطت قانونياً وأخلاقياً منذ أيامها الأولى ؛ وإن استئناف أي صراع مسلح بين العرب واسرائيل سيجعلها من القيمة الفعلية فارغةً من مضمونها ، وكأنها لم تكن مثلها والعدم سواء . وإن استئناف العلاقات الأخوية بين مصر وسوريا منذ مطلع ١٩٩٠ م تَوأمي النضال القومي ، وعودة مصر إلى أخذ مكانها الطبيعي في الأمة العربية،كل ذلك مما أقلق الصليبيين الجدد وجعلهم يهددون ويولولون في آن واحد . وقد ظهرذلك جلياً واضحاً من خلال ردود الفعل والأصداء التي أثارتها مؤتمرات القمة بين الرئيس حافظ الأسد ، وحسني مبارك في نيسان وحزيران من عام ١٩٩٠م في كل من دمشق والقاهرة وما رافق ذلك من هزاتٍ في الأوساط الدبلوماسية الدولية والصحافة

العالمية .

أما عن تلك الضمانات الدولية التي تتمتع بها اتفاقيات كامب ديفيد كما يتشدق بذلك الصهاينة أصحابها ، فإننا نؤكد من موقع القانون الدولي والحقوق الدولية بأن تلك الإتفاقيات لا تملك أية ضمانة دولية من الوجهة الحقوقية.وذلك للأسباب التالية :

إن اتفاقية فينا لعام ١٩٦٣والتي حددت الإجراءات الأصولية لصحة أي اتفاق دولي ، وعرفت باسم (اتفاقية الإتفاقيات) ، كذلك محاضر مؤتمري فينا لقانون المعاهدات الدولية لعامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩م ، قد حددت شروطاً أساسية لصحة أي اتفاق أو معاهدة دولية,وتعتبر باطلة في حال عدم تحققها،من أهمها : التقاء الإرادات الحرة بين أطرافها ، من جهة ، ووجود عامل الرضى من جهة أخرى (أنظر القانون الدولي العام جامعة دمشق دكتور محمدعزيز شكري عميد كلية الحقوق -التعريف بالمعاهدة ص ٤١٥)

وهنا في اتفاقيات كامب ديفيد نجد إرادة مصر كانت مقيدة يوم توقيعها ، بقيد الإحتلال الإسرائيلي لجزءٍ كبير من التراب المصري في سيناء، وبالتالي سقوط شرط أساسي من شروط صحة الإتفاقية في الإرادة الحرة . هذا بالإضافة إلى عدم توفر شرط الرضى لدى الجانب المصري في الإتفاقية . وكيف يكون الرضى متوفراً وقد مارست كل من الولايات المتحدة ، واسرائيل الإبتزازات السياسية والعسكرية على مصر ، بالإضافة إلى كافة أشكال الإكراه وأهمها الإحتلال العسكري الذي بقي جاثماً لسنوات عديدة على التراب المصري إلى مابعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد مما شكل ظاهرةً فريدةً لا مثيل لها من قبل في كافة اتفاقيات الصلح التي عرفها العالم بين الأطراف المتحاربة ، والتي كانت تُوقع جميعها بعد إنهاء الإحتلالات

وانسحاب الجيوش الغازية ، وليس قبلها .

وفضلاً عن ذلك،حتى تكون الإتفاقية نافذةً من الوجهة الحقوقية في القانون الدولي ، يجب أن لاتتجاوز في مداها ، ورقعة تطبيقها على الساحة الدولية ، سلطة وصلاحيات موقعيها . بينما نجد في اتفاقية كامب ديڤيد أن هذا الشرط قد سقط تماماً،حيث وقع الجانب المصري الإتفاقية باسم الجانب العربي ، ولم يُفَوضه أحد من الأقطار العربية بذلك ، كذلك أعطى الجانب المصري في الإتفاقية اسرائيل حرية الملاحة في خليج العقبة في الوقت الذي لا تملك فيه إعطاء مثل هذا الحق سوى في مياهها الإقليمية فقط ، بينما لم تعط المملكة العربية السعودية والأردن بصفتها دولاً تملك مياهاً إقليمية في هذا الخليج ؛ لم تعط اسرائيل الحق في حرية الملاحة في مياهها .. ولكن الجانب المصري هو الذي أعطى ذلك باسمها جميعاً،وهذا باطل من الوجهة الحقوقية الدولية . فضلاً عن ذلك،فقد تجاهلت الإتفاقية إرادة الشعب الفلسطيني كطرف أساسي مُعتَرف به دولياً ، يمثله من الوجهة الحقوقية الدولية منظمة التحرير الفلسطيني بصفتها الممثل الشرعي الوحيد له على الساحة الدولية . فقد تجاهل كل من مصر واسرائيل هذا الطرف الحقوقي ، وتجاوزت الإتفاقية في مداها عليه ، حيث فرض أصحابها حلاً قسرياً عليه عرف باسم « الحكم الذاتي » لسكان الضفة والقطاع ، وساوَوا في ذلك بين العرب الفلسطينيين أصحاب فلسطين الحقيقيين ، وبين اليهود المستوطنين في الضفة والقطاع .

كما اشترطوا لصحة أي حل لمشكلة (سكان الضفة والقطاع) على حد زعمهم،إجماع واتفاق مواقف كل من الأردن ومصر واسرائيل دون خلاف

بينهم عليه . وهذا يعني من الوجهة الواقعية فرض الحل القسري الإسرائيلي فقط ، ورفض أي حل لاتوافق عليه اسرائيل .

وفضلاً عن ذلك،فإنه من شروط صحة الإتفاقية الدولية طبقاً لاتفاقية ڤيينا في الإتفاقيات ، عدم تعارض نصوصها مع قاعدة آمرة من قواعد القانون الدولي ، و قرارات المجتمع الدولي الذي تمثله هيئه الأمم المتحدة وماينبثق عنها من منظمات دولية عديدة . وفي اتفاقية كامب ديڤيد نجد هذا الشرط قد تخلف تماماً،حيث خالف الطرفان قرارات الأمم المتحدة التي تلاحقت وتأكدت منذ عام ١٩٧٣،والتي دعت جميعها إلى إعطاء الشعب العربي الفلسطيني حقه في تقرير المصير ، ورفضت إجراءآت الإحتلال الإسرائيلي في ضم القدس والأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، واعترفت بضرورة وجودة وإشراك منظمة التحرير في أي اتفاق أو حل للنزاع في المنطقة وداخل المؤتمر الدولي للسلام وتحت مظلة الأمم المتحدة . لذلك شجبت هيئة الأمم المتحدة اتفاقيات كامب ديڤيد في قرار جمعيتها العامة المشار إليه ، واعتبرتها لاغيةً من الناحية القانونية الدولية ولاتتمتع بأية ضمانات دولية على الصعيد الدولي .

والأهم من ذلك فقد تناولت اتفاقيات كامب ديڤيد حقوقاً ثابتة للشعب العربي الفلسطيني في وطنه القومي فلسطين ، وحقوقاً ثابتة لأطراف عربية أخرى بما فيها تنازل مصر عن سيادتها الحقيقية على التراب المصري في سيناء والارتضاء بشروط الهيمنة والإبتزاز الأمريكية الإسرائيلية في عدم السماح بتواجد قواتٍ عسكرية أو أسلحة أو استخدام مطارات في

سيناء لصالح أغراضٍ عسكرية بما يعني ذلك من انتقاصٍ لا يقبل الجدل ، من سيادة الشعب العربي المصري ، ونفي حقوقه الثابتة في سيادته على أرضه.

ولما كانت الحقوق الثابتة لأي شعب من الشعوب لاتقبل التنازل ولايجوز بيعها أو شراؤها ، ولايصح التفويض من أحد على الإنتقاص منها، كما لايجوز لأحدٍ أن يبيع عضواً من أعضائه أو ولداً من أبنائه ، أو يهب مثل ذلك ، وإن تَمّ فهو باطل من الوجهة الحقوقية .

لذلك كله إن اتفاقيات كامب ديفيد وما اتبعها من ملاحق تعتبر فارغةً من مضمونها وُلِدت ميتةً لا حراك فيها ، ولا تملك في القانون الدولي أية ضمانات دولية ، وتتنافى مع شرط صحة الإتفاقيات الدولية المعمول بها باتفاقية فينا للإتفاقيات ، وتعتبر لاغيةً تماماً .

وأعتقد أن الوقت الذي سيلجأ فيه القطر المصري الشقيق إلى تمزيق اتفاقيات كامب ديفيد ، والتحلل منها تماماًليس ببعيد،يملك كل الحق في ذلك، وهو ماستحمله لنا كلمات الأيام التالية .

عين جالوت .. ملحمةٌ خالدة .. هل فقدناها ؟!

لقد توفي الخائن الكامل في دمشق في آذار عام ١٢٣٨م ، بعد عشر سنوات من اتفاقية الصلح في يافا مع الغزاة الصليبيين، ولقد آلت السلطة من بعده إلى ابنه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب في مصر ؛ وإلى الناصر داوود ابن أخيه عيسى في دمشق .

ووسط بهجة وإكبار العرب والمسلمين قام الناصر داوود من دمشق ، بقيادة حملة ناجحة صاعقة عام ٦٣٧هـ الموافق في ك١، ١٢٣٩م ، باغت فيها الصليبيين ، مغتنماً انشغالهم بالإحتفال بعيدهم الأكبر ، محرراً بذلك بيت المقدس من جديد . ولكن الناصر داوود توفي بعدها ولم يعمر طويلاً . وحل مكانه في دمشق الصالح اسماعيل الذي أعلن عصيانه على الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة . وتكررت المكيدة ذاتها أيام سلطة الخائن الكامل . فقد تحالف الصالح اسماعيل مع الصليبين في عكا في مواجهة الصالح أيوب في مصر . وكما فعل الكامل من قبل قام الخائن الصالح اسماعيل بإعادة تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين دون حرب ، هدية ومكافأةً لهم على وقوفهم إلى جانبه .

وفي مواجهة ذلك قام الصالح نجم الدين أيوب - الذي كان خلافاً لأبيه ، الكامل،وطنياً غيوراً - بقيادة حملة جيش عظيم انطلق به من القاهرة باتجاه دمشق حيث دخلها محرراً ، بعد أن قهر تحالف الخائن الصالح اسماعيل مع الصليبيين .. ثم أكمل بعدها في مطاردة فلول الصليبيين ،

فتمكن من إعادة تحرير بيت المقدس واستعادته تماماً وذلك في ٦٤١هـ / تموز ١٢٤٤م .

وكما في كل مرة ، فقد استتبعت المسيرة المظفرة التي قادها الصالح نجم الدين أيوب في إعادة توحيد الجبهة الكفاحية بين دمشق والقاهرة ، والتي أنجزت الإنتصار الرائع في استعادة بيت المقدس .. فقد استتبع كل ذلك هجمةً شرسة معاكسة ، حشدوا لها حشوداً ضخمة ، وتوالت من أجلها نجدات هائلة بشرية ومادية ، وتمثلت فيما أُطلق عليه في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة السابعة التي تزعمها ملك فرنسا الذي عرف باسم القديس لويس التاسع . لقد أبحرت الحملة من فرنسا بقوام ثمانين ألف محارب على ١٨٠٠سفينة . وتجمعت بعدها في قبرص حيث أبحرت منها في أيار ١٢٤٩م باتجاه مصر ، فنزلت على الضفة الغربية للنيل في مواجهة دمياط في ٦٤٧هـ / الموافق ٥ حزيران ١٢٤٩ ، وفي اليوم التالي تمكنت الحملة من دخول دمياط غدراً دون قتال . وفي تلك الأثناء كان الصالح نجم الدين أيوب مريضاً في دمشق ، فحُمِل إلى مصر بطلب منه ليكون قريباً من مواقع القتال . وبعد خمسة أشهر من مكوث جيوش الحملة في دمياط وبالتحديد في ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م يوم أن بلغ لو يس التاسع قائد الحملة نبأ وفاة الصالح نجم الدين أيوب ، تم الزحف باتجاه القاهرة . وفي تلك الفترة الصعبة قامت أرملة الصالح أيوب شجرة الدر بإخفاء نبأ وفاة زوجها عن قادة الجيوش في مصر ، وتمكنت بمعاونة كبار القادة من قيادة المعارك ، وأخرجت المراسيم باسمها زوجها . ومرة أخرى مُنيت القوات الغازية بهزيمة

ساحقة على أبواب القاهرة ، وتبددت جيوشهم بين مَنْ غرق في مياه النيل ، وبين من وقع في الأسر ، بما فيهم ملك فرنسا قائد الحملة لويس التاسع الذي سُجِن في سجن المنصورة في القاهرة . وأمام خيبة أمل الغزاة ومرارة الهزيمة قام قادتهم في عكا بطلب الصلح مع عرض الإنسحاب من كامل مصر وأداء فديةٍ كبيرة عن الأسرى لقاء الإفراج عنهم .

وهكذا انكفأت فلول الغزاة من مصر وبادَت الحملة السابعة في مياه النيل ، كما بادت أختها الحملة الخامسة من قبل في نفس المكان .

وفي خضم احتفالات مصر بانتصارها العظيم ، قام قائدالجيش بتنصيب شجرة الدر أرملة الصالح أيوب ، سلطانةً على مصر وذلك في ٢ أيار ١٢٥٠م .

وفي تموز ١٢٥٠م ، قامت شجر الدر بعد حكم دام ثمانين يوماً ، أثبتت فيها مهارة نادرة ، بالتخلي عن السلطة لزوجها معز الدين أيبك قائد الجيش الذي عرف بـ (أتابك العسكر) ، والذي أعلن ولاءه للخليفة العباسي في بغداد المستعصم بالله . وباعتلاء المذكور السلطنة في مصر، بدأ ما يُعرف في تاريخ مصر والشام بـ عصر المماليك .

من هم المماليك ؟

إنهم جموع الرقيق ، صغار السن في غالبيتهم العظمى الذين تم اقتناؤهم من قبل الأمراء الأيوبيين في فترة حكم الأسرة الأيوبية لمصر والشام وذلك عن طريق الشراء من تجار النخاسة في سوق النخاسة . إنهم ينتمون في أصولهم القومية إلى أمم شتى ، من تركية ، ومغولية،وشراكسة ، وصقالبة، ويونان وأسبان ، وألمان وغيرهم .

ولقد انتسب المماالك إلى الأمير أو السلطان صاحب شرائهم ، فتكنوا به،مثل الممالك الظاهرة (نسبة إلى الظاهر بيبرس ، والمماليك الأشرفية ، نسبة إلى الأشرف خليل . وهكذا) . لقد أكثر الأمراء الأيوبيون من شراء المماليك ، وبذلوا عناية فائقةً في تدريبهم ، وتربيتهم . ليكونوا لهم وسيلة طيعة يدعمون بها نفوذهم ، وسنداً لهم في مواجهة خصومهم السياسيين . وكانوا يوضعون في الخدمة بعد سنوات من التربية والتدريب العسكري ، وبعد أن يُسلَخوا تماماً عن أصولهم القومية التي جاؤوا منها ، ويصبحوا بعدها عرباً مسلمين في لغتهم ، وعقيدتهم وولائهم للأمير أو السلطان سيدهم . (انظر عصر المماليك . دكتور عادل زيتون جامعة دمشق) .

ويجب هنا أن نُبزر الحقيقة التالية ، وهي أن انتقال السلطة إلى العائلات المملوكية لم يكن يعني أبداً خضوع العرب في مصر والشام إلى عناصر أجنبية أو غياب الهوية العربية عن مسرح قيادة الدولة . إن الهوية العربية بقيت ماثلةً حيةً مسيطرة على مسرح الأحداث في الوطن العربي طيلة قرون طوال ،ولم تذب أو تضمحل في الأسر والعائلات التي حكمت

وسيطرت ، كما دأب البعض من المستشرقين خاصة على تصويرها بخضوعها إلى عناصر غريبة عن الأمة العربية . بل الصحيح هو العكس بتمامه ؛ أي أن تلك الأسر والعناصر المملوكية هي التي ذابت وانسابت في الهوية العربية ممارسةً وسلوكاً وولاءً ، ولولا ذلك لما كان لها أن تستمر في البقاء .

لقد استمر حكم المماليك في مصر والشام من خلال الجماهير العربية التي ساندت مَنْ وقف إلى جانبها ، وأثبت ولاءه المطلق لها ،كما أنها رفضت واقتلعت من سدة الحكم منهم ، من وقف منها موقف العداء والتسلط ؛ ولست هنا بصدد التفصيل في ذلك . بل إن الأسرة العثمانية التي حلت في حكم المشرق العربي محل المماليك ، ومع أنها غريبة عن الأمة العربية والأصول العربية ، ماكان لها باديْ ذي بدء أن تبسط سلطتها على الأمة العربية لولا أن ذابت وانسابت في معتقدات الجماهير العربية ، وسلوكية الإنسان العربي وأعلنت ولاءها للعقيدة الإسلامية العربية ، ونصبت من نفسها حاميةً للأماكن المقدسة العربية . ولما أفصحت العناصر العثمانية عن تعصبها لأصولها التركية ، وعن عدائها للعرب والعروبة ، كان عندها الرفض العربي لها عنيفاً هائجاً كالبركان ، وكان ذلك إيذاناً بطي صفحتهم من وطننا العربي إلى الأبد . وبقيت الهوية العربية هي الغالبة على هذه الأرض ، وهي الحاكمة حقيقة وفعلاً ، ولم تغب يوماً من الأيام حتى في أحلك الغزوات والنكبات التي عصفت بوطننا العربي من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب .

ولنعد إلى مسرح الأحداث يوم أن أصبحت السلطة في مصر والشام

لدى عناصر وأسر مملوكية . ولنذكر أن الكيانات الإستيطانية الصليبية في المشرق العربي ، إثر انكفاء الحملة الصليبية السابعة خصوصاً ، كادت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة تماماً في أواسط القرن الثالث عشر ، لولا أن وجدت في زحف جحافل الغزاة الجدد من الهمج المغول والتتار معاً ، طوق نجاتها ، فاستردت بهم زخماً من حياة اصطناعية جديدة .

ومع أن المغول والتتار كانوا على الوثنية ، لا يدينون بدين سماوي ، ولايؤمنون بالله ، فإن ذلك لم يمنع الغزاة الصليبيين من التحالف معهم على قهرنا ونهبنا وإعمال السيف والخراب والدمار في ربوع مشرقنا العربي ، رغم أنهم زعموا المسيحية وأنهم حملة رسالة السيد المسيح وكلماته .. لقد وجد الصليبيون في الغزاة الجدد ضالتهم المنشودة وطوق نجاتهم بعد أن عصفت بهم الأرض العربية ، وكادت أن تطبق عليهم وتجعلهم أثراً بعد عين،وكعربون للتحالف الصليبي المغولي في محاولة قهر أمتنا وإركاعها ، قام الصليبيون بتزويج هولاكو حفيد جنكيز خان من أميرة صليبية . لقد سقطت بغداد أمام الإجتياح المغولي في شباط عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ حيث قضى المغول فيها بقيادة هولاكو على كل شيء وجدوه حياًمن التراث الحضاري في مذبحة استمرت ٤٠ يوماً قتلوا خلالها ثمانمائة ألف من سكانها ، ثم أشعلوا الحرائق فيهافييوم عاصف . وقد حمل المغول الهمجية ذاتها إلى حلب ، ودمشق التي سقطت هي الأخرى أمام اجتياحهم الهمجي في ٦ / ٣ / ١٢٦٠م . وتابع الغزاة الجدد زحفهم بعدها باتجاه مصر بتحالف كامل مع الإمارات الصليبية في طرابلس ، وعكا،حيث قدم لهم الغزاة الصليبيون كل

وسائل الدعم المادي وآلات الحرب ، ووضعوا قلاعهم تحت تصرفهم . وكان يحكم مصراً آنذاك السلطان سيف الدين قطز . لقد بعث هولاكو من غزة إلى السلطان قطز في مصر بكتاب تهديد يحمله فيه على الإستسلام جاء فيه:

(يعلم الملك المظفر قطز وأهل مملكته ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خَلَقَنَا من سخطه ، وسلّطَنا على من حل بهم غضبه ، فاتعظوا بغيركم ، فنحن قومٌ مانرحم من بكى ، ولانرق لمن شكى) .

ولكن السلطان قطز قام بقتل رسل هولاكو ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة من أبواب القاهرة ، وأعلن في البلاد النفير العام إلى الجهاد المقدس لملاقاة الغزاة ودحرهم على أعقابهم .

لقد بعث السلطان قطز بقائده بيبرس على رأس جيش إلى الشمال باتجاه الساحل لملاقاة جيوش هولاكو التي كانت تعسكر في غزة ، وقاد السلطان قطز بنفسه جيشاً آخر انطلق به بمحاذاة الجيش الأول ، في خطة هجوم عسكري لتبديد جحافل المغول . ولما وصلت أنباء تحرك جيوش السلطان قطز باتجاه الشمال ، ما كان من جيوش هولاكو إلا أن انسحبت من غزة دون قتال ، في خطة مناورة عسكرية لاستدراج جيوش العرب إلى مسرح معركة يكون في صالحهم .

وكان اللقاء الحاسم في عين جالوت قرب بيسان في فلسطين عام ٦٥٨هـ الموافق ١٢٦٠م. وكان لنا هناك في عين جالوت لقاء آخر مع المجد

والفخار والعنفوان العربي . لقد صنع العرب الأمجاد في عين جالوت حطين أخرى ، وكشفت فيها الهوية العربية عن ذاتها ، وأثبتت أصالتها . في ملحمة عين جالوت فتك المحارب العربي بالثور المغولي وبقرونه الصليبية ، فقتله تماماً ، وحطم قرونه . لقد كان لنا في عين جالوت وقفة غر وكبرياء وشموخ مع التاريخ الإنساني ، ومع الذات العربية . فيها امتزج الدم العربي السوري بالدم العربي المصري ، وتلاحم العرب بعضهم مع بعض من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب في وحدة كفاحية رائدة ، كانت دائماً الجسر الذي تعبر عليه أمتنا العربية في مواجهة الغزاة قديمهم وحديثهم،وفي عين جالوت صاح السلطان المظفر قطز صيحة النصر ،وأطلقها صرخة تعانق السماء ، مكبراً « الله أكبر .. الله أكبر » مستصرخاً عزيمة جنده ، وقد ولج إلى أعماق قلوبهم ، ودغدغ حبات نفوسهم وحميتهم ، فألقى خوذته عن رأسه وطرحها إلى الأرض ، وانقض كالأسد على قائد جيوش هولاكو ونائبه كتبغا ، فأرداه قتيلاً ، فثارت الهمم ، وتعانقت الرماح وانبعثت لتوها ملاحم ذي قار ، والقادسية،واليرموك ، وحطين،وكأنها تلاقت جميعها في يوم عين جالوت .

ومن الواجب ذكره هنا في الرد على المشككين في أصالتنا العربية ، أن الجيوش التي انطلقت إلى عين جالوت ، وتلاقت من الشمال والجنوب معاً في عين جالوت ، وحطمت تحالف جيوش المغول والتتار والصليبيين معاً في عين جالوت وبددت هجمةً شرسة هي من أشرس ماعرفه تاريخ مشرقنا العربي ، كانت جيوشاً عربية صِرفة ، وكان الإنسان العربي هو لحمتها

وسداها ، وعنوانها ولم تكن أبداً من المماليك الغرباء كما يزعمون .

لقد انتقل العرب إثر الإنتصار العظيم في عين جالوت إلى مرحلة متميزة من مراحل التحرير القومي ، وملكوا زمام المبادرة والتفوق الحربي فقضوا بذلك على خرافة أن المغول قومٌ لايُغلَبون ، مثلما قضوا قبلها أيام صلاح الدين على خرافة الفارس الصليبي الذي لايعرف الهزيمة ، ويصل إلى حيث يشاء . كما أن عين جالوت أعادت التلاحم الكفاحي بين الشام ومصر ومنحت مصر مركز الصدارة في العالم العربي ، ناهيك عن أن الإنتصار العربي في عين جالوت حمل انتصاراً للمدينة الإنسانية تجاه ذاتها . وهذا يسهل إدراكه إذا علمنا -كما يؤكد ذلك الباحثون في تاريخ حروب المغول - أن هولاكو كان يبني هجومه على المشرق العربي لاجتياحه ، ثم العبور منه إلى أوربا لإجتياحها هي الأخرى عبر مضيق جبل طارق ؛ ولو لم تكن ملحمة عين جالوت لسقطت أوربا ذاتها مع ما يعني ذلك من الخراب والدمار الذي لحق ببغداد ذاتها !

وبعد عين جالوت تابعت الجيوش بقيادة المظفر قطز مطاردة فلول المغول والصليبين معاً . ولم يغير من مسيرة التحرير والإسترداد انتقال السلطة من السلطان قطز إلى غريمه وقائد جيوشه الظاهر بيبرس ، الذي نصب نفسه سلطاناً بعد أن اغتال قائده السلطان قطز بدافع شهوة الحكم في أواخر شهر تشرين أول ١٢٦٠م في أوج احتفالات العرب بانتصاراتهم إثر ملحمة عين جالوت .

لقد تابع العرب بقيادة الظاهر بيبرس معارك التحرير في المشرق

العربي ، وأنهوا الكيان الإستيطاني الصليبي في إمارة أنطاكية في أيام ١٢٦٨م .، إيذاناً بسقوط وجودهم في المشرق حيث لم يبق لهم بعدها سوى إمارة طرابلس ، وإمارة بيت المقدس التي أصبح مركزها عكا بعد تحرير بيت المقدس في حطين .

لقد حارب العرب بقيادة بيبرس الصليبيين والمغول معاً ، بحيث يصعب تماماً الفصل بين حروبهم ضد المغول وحروبهم ضد الصليبيين ، بسبب اندماج كامل ، وتحالف عضوي مشترك بين الغزاة أنفسهم في مواجهة أمتنا.

ومما يؤكدهالباحثون بهذا الصدد،أن أبغا الذي خلف أبيه هولاكو بعد وفاته عام ١٢٦٥م ، وبعدأن فشلت كافة الحملات التي قادها بالتعاون مع الصليبيين ، قرر اللجوء إلى استخدام الدبلوماسية الهادئة في استمالة الظاهر بيبرس وعقدصلح معه ،فبعث بكتاب إليه يقول فيه :

« فأنت لوصعدت إلى السماء،أو هبطت إلى الأرض،ما تخلّصت منا، والمصلحة أن نجعل بيننا وبينك صلحاً »(انظرتاريخ المماليك.دكتورعادل زيتون).

ولكن العرب بقيادة بيبرس لم يرضخوا للإبتزاز ، ورفضوا التهديد والمهادنة ، في وقت صلبت فيه شكيمتهم ، وعظمت فيه عزيمتهم ، وبلغت فيه قوتهم مبلغاً أرهب تحالف الغزاة الصليبيين والمغول معاً ، رغم الترسانة الضخمة من آلة الحرب و الدمار التي ملكوها ، والدعم البشري والمادي الذي كان يتدفق عليهم من أواسط آسيا ، وشمالي أوربا في آن واحد .

وفي أثناء ذلك استنجد الصليبيون بملوك أوربا ، فجاءتهم حملة جديدة عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الثامنة التي تزعمها

الأمير الإنجليزي أدوارد ، ونَزلت عكا . ومن عكا انطلق الصليبيون في هجوم مشترك مع جيوش المغول بقيادة أبغا، بن هولاكو على دمشق ، حيث تصدى لهم الجهد العربي المشترك بقيادة الظاهر بيبرس ، فدحر هجومهم وطارد فلولهم . وفي عام ١٢٧٦م،تحالف سلاجقة الروم مع جيوش المغول ، ومع الصليبيين في طرابلس ، وعكا ، وأرمينيا الصغرى،في أضخم عملية تحالف مشترك شهدتها المنطقة العربية آنذاك ، لإنزال ضربة قاصمة بجيوش التحرير العربي ، ووقف مسيرة الإسترداد ، وإجهاضها .

ولكن العرب بقيادة بيبرس تمكنوا مرة أخرى في موقعة أبلستين قرب حمص ، من كسر تحالف الغزاة جميعهم ، وإنزال ضربة ساحقة بهم ، ومطاردة فلولهم ودخول « قيصرية » عاصمةأرمينيا الصليبية .ولقد لمع في هذه المعارك اسم الأمير قلاوون ، بطل العديد من معارك التحريرفي مواجهة المغول والصليبيين .

وبوفاة السلطان الظاهر بيبرس في دمشق عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م قاد معارك التحرير من بعده السلطان المنصور قلاوون .

وتكرر تحالف المغول والصليبيين في عهد قلاوون ، كما كان في عهد سلفه بيبرس . ففي موقعة حمص في ٣٠ تشري أول ١٢٨١م سحق العرب بقيادة السلطان قلاوون هجمة مشتركة واسعة قادها كل من ليو الثالث ملك أرمينيا ، وأبغا ابن هولاكو ، وانكفأت جيوشهم إلى أوكارها . وعلى يد السلطان قلاوون تم تحرير الساحل السوري بكامله وحتى غزة ، ولم يبق للصليبيين من مواقع سوى عكا .

وفي ٢٠ كانون أول ١٢٩٠م توفي السلطان المنصور قلاوون ، فخلفه ابنه الذي عُرِف بـ الأشرف خليل قلاوون ، الذي قاد بنجاح مثل أبيه معارك التحرير المظفرة . وفي ١٨ أيار ١٢٩١م،بعد حصار عنيف استخدمت فيه المنجنيقات،سقطت عكا على يد الأشرف خليل قلاوون الذي طوى بذلك آخر صفحة من صفحات الحروب الصليبية على أرض الشام ومصر .

إن تحرير عكا ، وما أتبعها من تصفية كافة جيوب الغزو الإستيطاني الصليبي في طرطوس ، وعتليت ، وصيدا ، وصور،خلال فترة بسيطة بعدها لم تتجاوز عام ١٢٩٣م ؛ كل ذلك كان مؤشراً واضحاً ، وبرهاناً ثابتاً على عظمة الإنسان العربي روحاً وجسداً ، وعلى قدرته في امتلاك مصيره بيده ، وتجاوزه كافة المحن،ولو بعد حين،من الشقاء والمعاناة الإنسانية التي كابد فيها على أيدي الغزاة .

لقد استمر الغزو الإستيطاني الصليبي للمشرق العربي طيلة قرنين من الزمن بدءاً من ١٠٩٨م ولغاية ١٢٩٣م بتصفية آخر أوكار الصليبية الإستيطانية في الساحل السوري ، وإن سقوط القلاع الصليبية وانهيار وتحطيم الترسانة الحربية الضخمة فيها ، رغم كافة المحاولات التي بُذِلت ، والإمدادات البشرية والمادية التي تلاحقت ولم تنقطع طيلة قرنين من الزمن ؛ ورغم كافة التحالفات الشرسة ، والمكائد التي حيكت بخبث ودهاء والتي استعرضنا بعضاً منها ، مما استهدف قهر إرادة الإنسان العربي ، وكسر مسيرة الصمود والتحرير العربي ، وإجبارها على الإنكفاء .. كل ذلك يقدم الدليل بعد الدليل على أصالة الأمة العربية ، وعراقتها ، ورسالتها

الحضارية الخالدة .

على أن وطننا العربي بقي بعدها وطيلة قرن كامل من الزمن يتعرض من فينة لأخرى لهجمات متلاحقة،كان أبرزها حملات المغول والتتار وقراصنة البحر من بقايا الحملات الصليبية .. تلك الحملات والهجمات التي سهل على الأمة العربية كسرها وتبديدها وتحطيمها في كل مرة تعافت فيها قوتها وتوحدت فيها جبهتها . وللتذكير فقط نورد هنا بعضاً من الأحداث والثوابت التاريخية التالية :

١ - في عام ١٢٩٨م اجتاحت جحافل المغول بقيادة غازان،المشرق العربي ودخلوا دمشق للمرة الثانية بعد اجتياحهم الأول لها أيام هولاكو والذي تبدد وانحسر إثر الإنتصار العظيم في عين جالوت عام ١٢٦٠م .

ولكن مكوث جيوش غازان في دمشق والمشرق لم يستمر طويلاً ، فقد تمكنت الجماهير العربية في مصر والشام من إعادة بناء جبهتهاواستنفار كمونها الخلاق فحققت انتصاراً حاسماً آخر على جيوش المغول في موقعة مرج الصفر قرب دمشق عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي قاد جيوش التحرير من القاهرة ، فاستُقبل بعدها استقبال الفاتحين في دمشق ، وكان عندها فتىً في مطلع شبابه .

٢ - وفي عام ١٣٦٥م عاود الصليبيون الكرة ، يراودهم حلمهم القديم بغزو المشرق واحتلاله ، فانطلقوا هذه المرة من جزيرة رودوس بقيادة بطرس لوزجنان ملك قبرص ، وتمكنوا على رأس حملة ضخمة من قراصنة البحار النورماند جاوزت ١٠٠ ألف محارب من النزول على شاطئ

الإسكندرية ، فنشروا فيها الرعب والحرائق والدمار وقتلوا من الأبرياء ، ونهبوا وخربوا طيلة أسبوع كامل ، أُجبِروا بعدها على الإنكفاء والتقهقر يوم ١٦ تشرين أول ١٣٦٥م بعدما تكبدت الحملة خسائر جسيمة على أيدي أبناء الإسكندرية ، الذين استبسلوا في مقاومة الغزاة ودحرهم وإغراق سفنهم، مما نجد صورة لذلك في مقاومة بورسعيد للعدوان الثلاثي الهمجي١٩٥٦م

٣ـوفي عام ١٣٩٣م اجتاحت جيوش التتار بقيادة تيمور لنغ بغداد بعد شهرين من حصارها ، بقوام ٨٠٠ ألف محارب ، وأعملوا فيها القتل والنهب والخراب مثل أسلافهم أيام هولاكو عام ١٢٥٨م ولكن المقاومة العربية ، تمكنت خلال فترة قصيرة جداً من الوقت من إعادة تنظيم صفوفها وتوحيد جبهتها في مصر والشام، حيث انطلق السلطان برقوق من القاهرة من نفس المكان الذي انطلق به صلاح الدين ، وقطز ، والناصر محمد بن قلاوون الذين وضعوا ملاحم التحرير في حطين وعين جالوت ومرج الصفر .. وهكذا كان لنا لقاء آخر مع ملاحم التحرير ودحر جحافل الغزاة،صنعها أجدادنا بوحدتهم الكفاحية بقيادة السلطان برقوق ، حيث تمكنوا من استعادة بغداد وكامل المشرق العربي وملاحقة فلول التتار شرقاً وذلك في حزيران ١٣٩٤ م أي خلال أقل من عام واحد على نكبتهم الثانية في بغداد .

ولم يجرؤ تيمور لنغ بعدها على معاودة غزوه المشرق العربي إلا بعد أن لمس ضعفاً في وحدة الصف العربي إثر وفاة السلطان برقوق ، واستلام السلطة بعده لابنه فرج برقرق الذي لم يكن مثل أبيه في القيادة والمراس ، مما شكّل فرصة مواتية لجيوش تيمور لنغ التي عادت ثانية إلى اجتياح بغداد في كانون أول ١٣٩٩م ، ثم انساحت بعدها في حلب ، وحمص ، وحماه ، حتى اجتاحت دمشق عام ٨٠٣هـ الموافق شباط ١٤٠١م حيث أعمل فيها

تيمور لنغ القتل والخراب والنهب ، واستباحها لجيوشه،وأجرى فيها صنوف البلاء ، ثم أشعل الحرائق فيها في يوم عاصف . ولكن ذلك لم يدم طويلاً . فمن وسط الحرائق والدخان ، من على رؤوس الجماجم التي تكدست في مذابح تيمور لنغ ، وُلِد المارد العربي ، وثارت الجماهير العربية التي قتلت السلطان خرج بن برقرق في دمشق عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م بسبب عقده الصلح المهين مع تيمور لنغ مثل سلفه الخائن الكامل مع فريدريك الثاني . وهكذا ثارت الجماهير العربية في مصر الشام معاً وصنعت التحرير من جديد وتبددت جيوش التتار من المشرق العربي بعد سنوات قليلة بعدها .

لقد بقي المشرق العربي بعد انكفاء وتقهقر جيوش تيمور لنغ - الذي توفي عام ١٤٠٥م - قوياً مهيب الجانب ولفترة طويلة من الزمن . وعندما دب الضعف والتفكك في واقع الحكم والإدارة أيام المماليك وأصبحت السلطة غايةً في ذاتها .. كل ذلك جعل الفرصة مواتية لغزوٍ همجي آخر قام به الغزاة العثمانيون الذين اجتاحوا وطننا العربي بدءاً من عام ١٥١٦م،وجثموا على صدر أمتنا العربية طيلة أربعة قرون متواصلة ، عانَت فيها الأمة طويلاً ؛ وتألمت كثيراً ، وتخلفت بسببها عن ركب الحضارة الإنسانية . وقد يتساءل البعض عن سبب هذا السبات العميق الذي خمدت فيه جذوة النضال الثوري التحرري العربي في التصدي للغزاة العثمانيين إلابعد أربعة قرون من الإستيطاَن والقهر الأجنبي .

وللحقيقة التاريخية نرد على ذلك بالقول ؛ إن الغزو العثماني ماكان لينجح في بسط هيمنته لولا أن نصَّب من نفسه حامياً للعرب وديارهم

المقدسة ، مستفيداً من واقع الفساد الذي عانت منه الجماهير العربية في السنوات الأخيرة لإدارة المماليك . كما أن الغزاة العثمانيين أذابوا أنفسهم -مَكراً وخداعاً - في قميص الهوية العربية ، وعقيدة أبنائها . لقد بدا العثمانيون - في أعين العرب آنذاك - وكأنهم الورثة الشرعيون للخلافة الإسلامية في بغداد ، وحكموا تحت ستار الإسلام وباسمه ، وتقمّصوا شعائره .. كل ذلك جعل وجودهم ممكناً ، وأطال من فترة غزوهم ، سيما وأن العقيدة الإسلامية وشعائرها وفرائضها ، تفترض التخاطب باللغة العربية ، وإقامة الأذان ، والصلاة ، وقراءة القرآن باللغة العربية ، بصفتها إحدى المقومات الكبرى للهوية العربية والإسلام معاً .

ولما أفصح العثمانيون عن جوهر وجودهم الإستيطاني ، وانكشفت لجماهير العرب حقيقتهم التسلطية العدوانية ، ونزعتهم العنصرية في تصفية الوجود العربي ، واستلاب الهوية العربية وتفتيتها ؛ أمام كل ذلك من لؤم العمثانيين وعدوانيتهم - بعد أن تقنعت طويلاً بالغيرية على العرب والإسلام معاً - أفاق العربُ من كبوتهم ، وقاموا بإعادة تنظيم صفوفهم ، فانبعثت فيهم جذوة النضال القومي ، وتأججت في أجسادهم روح الثورة العربية ؛ فكان أن ارتوت شجرة الوجود العربي بدماء قوافل شهداء القومية العربية . أولئك الذين جعلوا من أجسادهم من على أعواد المشانق منائر للحرية والتحرر العربي ؛ وكانت في أرواحهم انبعاثٌ للذات العربية ، وبعثٌ للوجود العربي الحضاري ورسالته الخالدة . وهكذا كانت الرصاصة الأولى في العاشر من حزيران ١٩١٦م التي أطلقها الشريف حسين في مكة على ثكنة

حامية تركية ، والتي انهار على إثرها الباستيل أو قُلْ الطاغوت العثماني بعد قرون طوال من الظلم والعدوان . ويحضرني هنا الشاعر العربي الزهاوي الذي أبرز في رثائه لشهداء الأمة العربية الذين أعدمهم الطاغية جمال باشا السفاح ، تلك الحقيقة الثورية الثابتة للمقاومة العربية في معمعان المجابهة والتصدي البطولي في مواجهة الطاغوت العثماني التركي ، فأنشد في رثائه اللاهب صارخاً إلى الثورة العربية :

لعمرك ليس الأمر ذنباً أصابه قصاصٌ ، ولكن يعربٌ ومغولُ

بني يعربٍ لا تأمنوا الترك بعدها بني يعربٍ إن الذئاب تصولُ

لقد سقط الكيان الإستيطاني التركي على أرضنا تحت ضربات الثائر العربي الذي أسقط من قبله القلاع الصليبية،وقهر جيوش هولاكو وتيمورلنغ .

ولكن الذئاب مازالت تحوم حولنا ، وتتربص بنا ، وتصول بغية الإنفضاض على وجودنا القومي ، واستئصال كينونتنا العربية من أعماق جذورنا . وما زالت مسيرة التحرير العربي تعاود سيرتها الأولى ؛ تغذُّ السير في خضم متلاطم من الأحداث العاتية التي تكسرت ، وتتكسر على صخرة المقاومة العربية الخالدة .

امبرياليون .. أم صليبيون جدد ؟

لقد صقلت الغزوات والحملات هوية الأمة العربية عبر تاريخها الموغل في القدم ، فازدادت أصالة وترسخت عراقةً ، فمدّت جذورها بعيداً في أغوار الأرض العربية ، كما في أغوار الإنسان العربي ذاته ، الذي التصق بأرضه ؛ بترابها ، كما بتاريخها وأمجادها .

إن تلك الغزوات والمحن التي نزلت بالأمة العربية في فترة ضعف عارضٍ ألمّ بالجسد العربي ، مع كثرتهاوشراستها لم تتمكن يوماً من أن تفتُك بالهوية العربية وتكسر إرادة الوجود لدى الإنسان العربي .. بل على العكس تماماً،أُكسِبت الهوية العربية مناعةً وصلابةً أمام تحديات الوجود المستقبلية وفي مواجهة كافة الأخطار المصيرية اللاحقة .. مَثَلُها في ذلك مثل لقاحات المناعة التي يتم أخذها بغرض إكساب الجسم القدرة على مواجهة الجراثيم والأوبئة بشكل مسبق قبل الإصابة بها ، مع فارق وحيد هو أن لقاحات المناعة تتكون في حد ذاتها من جراثيم تم إضعافها بغرض تهيئة الجسم على التصدي لها ؛ أما أمتنا العربية فقد صلب عودها ، وازدادات مناعتها ، فتفولَذت في مواجهات حقيقة مع أخطر وأشرس الحملات والغزوات والتي أوردنا جانباً منها .

ومن الثابت أن الوحدة الكفاحية العربية كانت دائماً هي الجدار الفولاذي الذي ترافقه الجماهير العربية في كل مرة تتعرض فيها لغزوٍ خارجي ؛ وكان هذا الجدار يقام ويشاد في أتون معارك التحرير والكفاح

المشترك ضد عدو مشترك . وإذا كان الباحثون والدارسون لتاريخ المشرق العربي ، قد قَسّموا الحروب الصليبية إلى حملات ثمانية،طبقاً لهجماتها الشرسة التي تلاحقت في مواجهة مسيرة التحرير العربي التي تعاظمت في خضم المواجهة مع الغزاة ، وصنعت التحرير،عندما طوت آخر صفحة في سجل الحروب الصليبية بعد تحرير عكا في ١٨ / ٥ / ١٢٩١م ؛ .. فإن الحروب الصليبية هي في حقيقتها حملة واحدة،وإن تباعدت أحداثها ودفعاتها مع شقة الزمن ، وإنها مازالت مستمرة ليومنا هذا ، وإن لبست ثوب اليهودية أو قُلّ ثوب الصليبية اليهودية في مواجهة جماهير أمتنا العربية . كما أن الأحداث المتتالية والتي ماتزال تعصف بالوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه تكشف لنا ، كما لغيرنا حقيقة ثابتة ساطعة ، هي أن أرضنا العربية هي الأكثر غنىً وجمالاً ونضرةً ، وأهميةً استراتيجية في العالم ، وأنها مازالت تستهوي كافة لصوص وقراصنة الأمم على اختلاف مشاربهم ؛ وأن التسلط والنهب والسلب مازالت هي الدوافع الحقيقة لكافة الغزوات والحملات التي شهدتها أمتنا العربية وليومنا هذا . كما أن تلك الهجمات والحملات مازالت تنشط في كل مرة تصاب بها الأمة العربية بعارض الضعف والتجزئة، وأنها انحسرت وتنحسر في كل مرة رفعت فيها العربية جدارها الفولاذي المنيع في وحدتها الكفاحية القومية ، التي تحطمت على جنباتها وتبددت كافة الحملات والإحتلالات . ويحضرني في هذا السياق هرقل ملك الروم وهو يغادر مرغماً سوريا ، وقد تم تحريرها على أيدي العرب من جند محمد وأصحاب محمد (ص)، فيقول وهو يطلق الزفرات الثقال :

« ويحك أرضاً ؛ وما أنفعك أرضاً ؛ ما أنفعك لعدوك لكثرة مافيك من العشب والخصب !

«سلام عليك ياسورية ، سلام مودعٍ لايرجو أن يرجع إليك أبداً »

(انظرمعجم البلدان لمؤلفه ياقوت الحموي - دارصادر بيروت مجلد ثالث صفحة ٢٨٠).

هذا وإن البواعث التي تعلّق بها الروم أيام هرقل تجاه مشرقنا العربي بقيت هي ذاتها لدى الصليبيين الجدد والإستعماريين كافة،وإن كثرت مشاريعهم ، وتعددت أحلافهم ، وتجملت أسماؤهم .

فقد جاء في مشروع إيزنهاور عام ١٩٥٧م « من الأمور التي تؤكد أهمية الشرق الأوسط - كما يطلقون ذلك في تسمياتهم الإستعمارية على وطننا العربي - احتواؤه على ثلثي مصادر البترول المعروفة في العالم . إن هذه المصادر البترولية - والكلام للرئيس الأمريكي السابق إيزنهاور نفسه - لاتقل أهمية عن حلف الأطلسي . بل إن هذا الحلف يفقد معناه وهدفه إذا فقدنا مصالحنا البترولية في الشرق الأوسط » .

(انظر مجلة المعرفة العدد١٠٧كانون الثاني ١٩٧١ص١٤-دكتور حنا عبود). إن المدنية الإنسانية ، ومع التقدم اللامحدود للعلم والتكنولوجيا المعاصرة ، لم تستطع حتى اليوم لجم دوافع التسلط الإستعماري والنهب العدواني والقهر الإنساني ، لدى دول أوربا والغرب عموماً ، كماأن تلك الدوافع الخسيسة التي حركت الحروب الصليبية وغيرها من الحروب ، مازالت هي نفسها التي تحرك الغرب منذ قيام الثورة الصناعية التي عرفتها أوربا وحتى اليوم .

وليس غلواً أن الحملات الصليبية التي تعرضت لها أمتنا مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، هي في حقيقتها حملة واحدة ، وأنها مازالت مستمرة اليوم ، وأن النهب والإستلاب هي البواعث ذاتها ، كما أن الهمجية وحروب الإبادة والوحشيتهي السمات الغالبة التي تربط بين الصليبيين والإستعماريين قديمهم وحديثهم .

أمّا تعاليم سيدنا المسيح عيسي بن مريم عليها السلام - رائد المحبة الإنسانية ، والذي شجب العنف والقهر والعدوان - فإنها تحولت لدى أساطين أوربا وجلّاديها إلى مجرد سلعة تجارية ، وبواعث عنصرية عدوانية بغرض استباحة كافة المحرمات لدينا ولدى الغير، وتصويرنا أمامشعوبهم بأننا الكفرة الملحدون للرب ، بغرض تسويغ قتلنا ، وإحلال دمائنا وأعراضنا ومقدساتنا !

لقد ظلّت نزعة العودة العدوانية ، وبواعث الحملات الصليبية الأولى، تراود نفوس قادة أوربا وجلاديها ، وإن تبدلت أسماؤهم ، وتلونت مدارسهم السياسية في البرلمانية وحمل مشعل المدنية الإنسانية . ومع أنهم أعلنوها من على منبر عصبة الأمم المتحدة في تسويغ الإنتداب على أقطارنا أن «رقي وحضارة تلك البلدان التي كانت خاضعة لتركيا ، تشكل أمانة تاريخية في أعناقهم ، ورسالة مقدسة،عليهم حملها تجاه الإنسانية جمعاء » ومع ذلك فإنهم بقوا على عدوانيتهم ، ومازالوا على همجيتهم التي عرفها أجدادنا في أسلافهم .

(انظر مبادئ ويلسون للسلام ، وميثاق عصبة الأمم المتحدة) .

وإذا ركبنا **قطار الأحداث** العاصفة ، التي عصفت بوطننا العربي

من **البوابة الأوربية** ، وقمنا باستعادة شريط الحملات والإحتلالات التي انطلقت من الغرب الأوربي واستهدفت قهرنا ونهبنا وإركاعنا لكان علينا أن نتوقف ملياً، نُجيل النظر في المحطات التالية :

أولاً- الغزو الأوربي الذي شمل الوطن العربي من مغربه إلى مشرقه،بدءاً من غزو الإغريق بزعامة الإسكندر المكدوني وهو يطارد فلول الفرس، حوالي ٣٣٥ ق.م ، إلى اجتياح الرومان لقرطاجة عام ١٤٦ قبل الميلاد،وانتهاءً بانكفاء وتقهقر الرومان إثر ثورةالقائد العربي والنبي العربي محمد(ص)، وجنده وأصحابه من القادة العظام ، وما أكثر الذين قادوا مسيرة التحرير العربي المظفرة الأولى ، وصنعوا التحرير العربي لكامل الوطن العربي خلال عشرين عاماً فقط .

ثانياً- ماعُرِف بـ الحملات الصليبية ، والتي أعطاها اسمها هكذا بـ الصليبية هم أصحابها الصليبيون ملوك وأمراء وأساقفة أوربا أنفسهم،عن سابق جشع عدواني ، وحقد عنصري دفين ، منافٍ لتعاليم سيدنا المسيح عليه السلام .. تلك الحملات التي استمرت زهاء قرنين من الزمن بدءاً من عام انطلاقها عام ١٠٩٥م باتجاه المشرق العربي ، وحتى تحرير عكا ، وسقوط آخر معاقل الصليبية الإستيطانية وتصفية كافة أوكارها وجيوبها على الساحل السوري عام ١٢٩٣م . ولابد هنا من إبراز حقيقة ثابتة وهي أن إطار « الصليبية » شكّل غطاءً دينياً زائفاً للمسيحية ، وأخفى خلفه بواعث استيطانية تسلطية ظهرت بكل جلاء منذ أيامها الأولى، وممارساتها الهمجية في النهب والقتل ، بشكل يصح فيه القول أنّ

«الصليبية » هي غير المسيحية إطلاقاً . تلك الحملات الصليبية التي بادت وتكسرت على يد رُوّاد مسيرة التحرير العربي الثاني التي برز فيها قادة عظام مثل عماد ونور الدين الزنكي وصلاح الدين،والسلطان قطز،والأشرف قلاوون وابنه خليل قلاوون.

وهنا تحضرني كلمة مَنْ أطلقوا عليه القديس أرناط ، وهو ريناردي شانيون،وقد فاضت به صليبيته العدوانية ، وتعطشه لسفك دماء العرب المسلمين من أجدادنا ، وهو يُعمِل السيف في رقابهم ،مستهزئاً في وقاحة مابعدها وقاحة بقوله : « فليأت محمدكم ليخلصكم ! » .

وفي المقابل تحضري كلمة صلاح الدين،بطل حطين ، وهو يخاطب أسراهم ، وقد أحسن وفادتهم ، وأطلق سراحهم بقوله :

« لقد خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه أبداً » .

ثالثاً-معاودة أوربا سيرتها الأولى صوب وطننا العربي في غزوها الإستيطاني بدءاً من عام ١٥٣٥م في معاهدة الصداقة والتعاون بين فرنسا والدولة العثمانية التي وقعها السلطان سليمان القانوني وملك فرنسا فرانسوا الأول ، والتي كانت في حقيقتها بوابة العبور لحملات صليبية جديدة من خلال سيل الإمتيازات التي حصلت عليها فرنسا بموجب المعاهدة المذكورة في المشرق العربي ،ومروراً بعدها فيما عرفته الدبلوماسية الغربية آنذاك بـ المسألة الشرقية التي عكست التنافس الأوربي الإستعماري على اقتسام وطننا العربي إلى مناطق نفوذ والحلول فيه مكان السلطنة العثمانية التي شاخت وهرمت آنذاك .

وهنا تبرز حملة نابليون على مصر والشام مابين ١٧٩٩م و ١٨٠١م ومن ثم حملة فريزر الإنكليزية عام ١٨٠٧م ، والتسابق في اقتناص الإمتيازات المالية والإقتصادية والسياسية في الشام ومصر والمغرب العربي، بالإضافة إلى ماأعطوه لأنفسهم من حق التدخل لحماية الأقليات المسيحية ، واليهودية .. كل ذلك شكّل جسراً استعمارياً جديداً عبرت منه أوربا مع مطلع القرن التاسع عشر إلى الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه بدءاً من احتلال فرنسا للجزائر ثم تونس فالمغرب ، فاحتلال إيطاليا لليبيا ، واحتلال بريطانيا لمصر ، ثم بعدها اتفاقية سايكس - بيكو عام ١٩١٦م التي أودعت المشرق العربي تحت المظلة الصليبية من جديد بعد زهاء ستة قرون من انكفائهم في ذيول الهزيمة منه . وهنا تحضرني كلمة الجنرال اللنبي القائد العام لجيوش الحلفاء لإدارة أرض العدو - كما أطلقوا ذلك على أرضنا - وقد فاضت به صليبيته الإستعمارية الحاقدة وهو يقول عندما دخل القدس في التاسع من كانون أول ١٩١٧ :

« الآن انتهت الحروب الصليبية ياصلاح الدين ! » ؛ مع أنها -عزيزي القارئ - لم تنته بعد .

وبعد الجنرال اللنبي بثلاث سنوات وقف ذئبٌ آخر هو الجنرال غورو وقد دخل دمشق على أجساد شهدائنا في ميسلون غروب شمس الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠م ، حيث وقف ظهر اليوم التالي أمام ضريح بطل حطين ، وقد ركله برجله ركلة جبانٍ أرعن هازئاً :

« ها نحن عدنا ياصلاح الدين ! » ، وذلك رداً على كلمة بطل حطين

« لقد خرجتم من الشر ق ولن تعودوا إليه أبداً » .

مع أنهم - عزيزي القارئ - لم يخرجوا منه بعد عودتهم الثانية إليه على أن مثل تلك الصيحات الحاقدة لم تكن لتمثل أفراداً ، وجماعات ، بقدر ماتزال تمثل التوجه الإستعماري الصليبي الجديد تجاه أمتنا العربية بفرض قهرها وإركاعها ونهب ثرواتها .

رابعاً-لما أُجبِرت جيوش أوربا الإستعمارية على الإنكفاء والتقهقر من معظم أرجاء الوطن العربي ، وأقطاره التي حققت استقلالها الوطني ، وبعد أن أصبح مستقبل الوجود الإستعماري الأوربي في وطننا العربي قاب قوسين أو أدنى من اللاوجود وذلك تحت ضربات قواعد المد الثوري العربي ، وتعاظم مسيرة التحرير الثالثة التي عبرت إلى صنع التحرير العربي من خلال قوافل الشهداء .. عندها لجأ الغرب إلى إنقاذ وجوده ومستقبله **الإستيطاني بحملةٍ صليبية جديدة** ، كما في كل مرة كان يتهدد فيها وجوده بالإنهيار والتقهقر . وقد تمثلت تلك الحملة في إيجاد وخلق **كيان استيطاني أوربي** ، يشكل امتداداً سرطانياً خبيثاً **لمملكة بيت المقدس الصليبية البائدة وفي نفس المكان** من المشرق العربي ، وأريدُ هنا أن أُبرِز من غير إسهاب الدور الخبيث الفعال الذي قام به كافة أباطرة وملوك أوربا ورؤساؤها منذ مطلع الغزو الإستعماري ، وفي سنوات الحربين العالميتين ، وماتلاهما من جهدٍ دؤوب وعمل متشعب منظم ، وتخطيط متواصل بينهم وبين الطغمة اليهودية المرابية في أوربا وأمريكا ؛ ناهيك عن اللقاءآت،وماأكثرها،بين حاخامات اليهودية ، وقادة

المؤسسة الصهيونية في العالم من جهة ، وبين البابوية المتصهينة في روما ذاتها من جهة ثانية ، مما يعيد إلى الأذهان لقاءآت وتحالفات بيزنطة أيام الإمبراطور قسطنطين الخامس مع مملكة الخزر اليهودية، وزواج هذا الأخير من أخت كاجان (ملك الخزر) ؛ أوْ قُلْ تحالفات مملكة بيت المقدس الصليبية مع المغول أيام هولاكو وأحفاده .

هكذا تحالفت وتلاقت النزعة الصليبية الإستعمارية مع اليهودية الصهيونية الإستيطانية ، بدءاً من إيجاد وخلق اسرائيل ذاتها ، إلى تأمين ديمومتها واستمراريتها كرأس حربةٍ في الجسد العربي ، ورأس جسرٍ لأوربا وأمريكا، يشكل امتداداً صليبياً استيطانياً لقلاعهم الصليبية البائدة . أما مايثبت ذلك من أدلة ووقائع فهي أكثر من أن نحيط بها في هذه العجالة . ونكتفي بالثوابت التالية :

لقد وجدت بريطانيا الإستعمارية ، في المؤسسة الصهيونية التي نشطت وتزامنت مع موجة الإمتداد الإستعماري الأوربي ، ضالّتها المنشودة والوسيلة والهدف معاً . لقد عبر ونستون تشرشل عن هذه الوجهة الإستعمارية أحسن تعبير بقوله :

« إن الصهيونية تشكل مطلباً حيوياً ملحاً لبريطانيا ؛ ولو لم تكن موجودة لكان علينا أن نخترعها اختراعاً » .

على أن هذه الحقيقة الثابتة أكدها دون خَفاء قادة الكيان الإستيطاني الصهيوني قديمهم وحديثهم ، كما عبر عنها القادة الإمبرياليون في أوربا وأمريكا دون موارية ، فوضعوا كامل ثقلهم ، وكل ما في ترسانتهم

الحربية للحفاظ على أمن وسلامة اسرائيل ، وقد ربطوا في ذلك ومازالوا كذلك يربطون بين أمنهم وأمن مصالحهم اللامحدودة في وطننا العربي ، وبين أمن اسرائيل ؛ الكيان العنصري المنافي لكافة شرائع بني البشر على الأرض

لقد قدمت المؤسسة الصهيونية نفسها منذ قيامها أواخر القرن التاسع عشر على أنها الإمتداد الصليبي لأوربا في المشرق العربي ، وأنها السور الأوربي - كما وصفها ذلك مؤسسها تيودور هرتزل في كتابه عن مشروع الدولة اليهودية في فلسطين عام ١٩٠٢م - المرفوع في وجه آسيا .

لقد اتصل هرتزل ببسمارك ألمانيا ، واضعاً المشروع الصهيوني تحت تصرف الإمبراطورية الألمانية الموحدة ، ثم قابل القيصر غليوم الثاني عام ١٨٩٨م على الأرض الفلسطينية بمناسبة حضور تدشين مشروع السكة الحديدية بين القدس وبغداد الذي قامت بتنفيذه الإستثمارات الألمانية .

ومما قاله هرتزل أثناءها إلى الإمبراطور غليوم الثاني :

« إن الدولة اليهودية التي نطمح بناءها في فلسطين،ستشكل جسراً بين الشرق والغرب ، ونقطة انطلاق للمجهود الحربي والحضاري الأوربي العظيم في آسيا .. إننا في حاجة إلى حامٍ يصون دولتنا اليهودية في فلسطين . ونحن نرحب بالحماية الألمانية أكثر من أي حماية أخرى » .

وبعدها تقدَّم هرتزل بمشروعه الإستيطاني إلى وزير المستعمرات في الحكومة البريطانية شامبرلن بقوله :

« حينما يجيء الوقت الذي نعيش فيه تحت ظل العلم البريطاني في

العريش فمن المؤكد أن فلسطين ستقع بكاملها في فلك النفوذ البريطاني ».

وفي عام ١٩٠٣ عرض هرتزل خدماته على قيصر روسيا نيكولاي الثاني في موسكو ، وقابل وزير داخليته بليهف حيث طالبه ، والتمس لديه مساعي حكومته لدى السلطان العثماني بشأن الإستيطان اليهودي في فلسطين مقابل قيام هرتزل بضمان الأمن وعدم إثارة الشغب من قبل العناصر اليهودية في روسيا تجاه حكومة القيصر في موسكو ، بعد أن شهدت البلاد موجة عنف واضطرابات أثارها اليهود الروس بشكل خاص .

وقبل الحرب العالمية الأولى توجه وايزمن عام ١٩١٤إلى الحكومة البريطانية بقوله « إذا سمحت لنا بريطانيا بالإقامة في فلسطين فسوف يقوم هؤلاء اليهود بتطوير البلاد وإنمائها وسيعيدون إليها الحضارة،كما أنهم شيشكلون خير دفاع عملي لقناة السويس » .

ويعرض حاييم وايزمن في مذاكراته وضع حجر الأساس للجامعة العبرية على جبل الزيتون المطل على المسجد الأقصى فيقول :

« لقد وضعنا إثنا عشر حجراً بعدد أسباط بني اسرائيل بحضور الجنرال اللنبي الذي لما دخل القدس فاتحاً عام ١٩١٧م قال كثيرون في أوربا اليوم انتهت الحروب الصليبية ! » .

كما يصف وايزمن رحلته الإستطلاعية الإستكشافية إلى فلسطين ، قبلها،وقد اختلجت في نفسه الطموحات الإستعمارية فيقول :

« فقمنا بتطواف واسع ننتقل من مكان إلى آخر ، ونحن نجتاز الحدود وتوفقفنا في عدة مواقع ونحن نرى المستعمرات النائية . وكأن كل تلة من

التلال ، وكل صخرة من الصخور برزت تستنطقني في هذه اللحظات وتوحي إلي في كل ثنيةٍ من ثنايا الطريق ، ماعلينا إنفاقه في هذه الأرض من عمل وجهد وتخطيط ومال قبل أن تصبح صالحة ليستوطنها العدد الكبير من اليهود » (انظر بروتوكولات حكماء صهيون مجلد أول . عجاج نويهض منشورات دار طلاس صفحة ١٢٣) .

وعندما تلبدت غيوم الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٨م وانغمست بريطانيا في دراسة المواقع الإستراتيجية في الشرق الأوسط لإقامة أُسس الدفاع الإمبراطوري ، بعث حاييم وايزمن بمذكرة إلى سيرجون شكبره الوزير البريطاني جاء فيها :

« اسمحوا لي أن أقول كلمة موجزة تتعلق بالمسألة الاستراتيجية : إن هناك بعض الحقائق المحسوسة التي لايصعب على عالم كيمياء مثلي فهمها، إن خطوط أنابيب البترول في حيفا ، والمطارات وجبل الكرمل .. كل هذا لا يمكن نقله إلى جزيرة قبرص ، ولاسكك الحديد بين فلسطين ومصر وبغداد »، وهو في مذكرته هذه يجذب وجهة النظر البريطانية إلى توسيع نفوذها الإستراتيجي في فلسطين ، وما يتبع ذلك من إيلاء المزيد من الدعم إلى المشروع اليهودي الإستيطاني فيها . (المصدر السابق صفحة ١٣٠) .

هكذا كانت المؤسسة الصهيونية بمشروعها الإستيطاني موجودة جاهزة، جاهزة في متناول يد من يريد تسخيرها واستثمارها من قبل دعاة الإستعمارية من الصليبيين الجدد .

وكما تحالفت بيزنطة مع مملكة الخزر في مواجهة الزحف العربي ؛ وكما تحالفت البابوية الصليبية في روما ، مع المغول أيام هولاكو من أجل

كسر صمودنا ، وتكريس وجودهم الإستيطاني العدواني في أرضنا ..

كذلك عاودت أوربا سيرتها الأولى ، فتحالفت البابوية الصليبية في روما ، مع اليهودية التوراتية في أوربا ذاتها ، وجرت بينهما لقاءآت ولقاءآت منذ مطلع القرن العشرين،من أجل نفس الغرض العدواني الذي انطلقت من أجله الحملات الصليبية البائدة.وهنا أورد بعضاً من لقاءآت الأفاعي :

اللقاء الأول بين هرتزل حاخام المؤسسة الصهيونية مع البابابيوس العاشر في روما عام ١٩٠٣م بغرض الحصول على دعم ومساندة الكرسي البابوي في روما للمشروع الإستيطاني اليهودي في فلسطين .

ومما قاله البابا بيوس العاشر في إجابته على طلب تيودور هرتزل :

« إن الدين اليهوي هو أساس ديتنا .. أنتم اليهود إذا استطعتم الإستيطان في فلسطين ، فجل مانقدر على مساعدتكم به هو الكنائس ، والقسس لتعميدكم ! » وكأنه أراد القول :

« إن وجودكم اليهودي يجب أن يكون وجوداً صليبياً يشكل امتداداً لمملكة بيت المقدس . عندها نكون معكم » وهكذا كان .

اللقاء الثاني بين البابا بن ديكت الخامس عشر ، وحاخام المؤسسة الصهيونية سوكولوف أحد عتاة صهاينة روسيا وبولونيا ، في ١٠/٥/١٩١٧م في الفاتيكان بغرض كسب حماس الكرسي البابوي للمشروع الصهيوني ذاته في فلسطين . ومما عرضه سوكولوف على البابا المذكور :

« نريد أن نشيد في فلسطين مركزاً حضارياً يستطيع اليهود أن

يعلّموا أولادهم المثل اليهودية ، ويُنشؤوهم على الروح اليهودية ، وأن يبذلوا غاية جهدهم في أن يجعلوا وطنهم القومي في فلسطين مظهراً للمدنية الأوربية وآدابها » .. وكان جواب البابا على طلبه بقوله :

« أعتقد أننا سنكون جيراناً جيرة حسنة » .

اللقاء الثالث بين البابا بن ديكيت الخامس عشر أيضاً ، وكبير حاخامات المؤسسة الصهيونية حاييم وايزمن عام ١٩٢١م ، لتعزيز مواقف كل منهما تجاه المشروع الإستيطاني في مشرقنا العربي.

(انظر بوتوكولات حكماء صهيون المجلد الأول . عجاج نويهض منشورات دار طلاس صفحة ٧٦٦) .

أما عن دور أوربا وأمريكا في إيجاد وصنع إسرائيل ، كقاعدة عدوانية وقلعة استيطانية متقدمة،مثلها مثل أختها من قبل - مملكة بيت المقدس - الصليبية البائدة،فإن أحداً لايستطيع أن لا يقر بذلك . ويكفي الإشارة هنا إلى وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧م الذي شكّل بحد ذاته عدواناً صارخاً ، واستلاباً وغزواً سياسياً فاضحاً سبق الغزو والإحتلال العسكري البريطاني لفلسطين ، كما شَكّل خرقاً فاضحاً لكافة المواثيق والأعراف الدولية التي عرفتها الأمم المتحضرة ، وجسّد التحالف العدواني المشترك في مشروع استيطاني استعماري مشترك بين ورثة الصليبية البائدة من الإستعماريين الأوربيين من جهة ، وبين المؤسسة الصهيونية وطغمتها المالية اليهودية المرابية من جهة أخرى .

(للتفصيل في ذلك انظر كتابنا: توراتُهم،هَلْ قَرَأْتَ ؟! صفحة ٥٨ ومابعدها - منشورات دار المعرفة دمشق ١٩٨٩ لمؤلفه عبد الوهاب زيتون)

ومع قيام اسرائيل عام ١٩٤٨م ، وضع قادة هذا الكيان أنفسهم في خدمة الغرب الإستعماري ومصالحه اللامحدودة في أرضنا العربية ، مما جعل هذا الكيان - كما أراد له صانعوه أن يكون - مخفراً متقدماً لهم من أجل قمع مسيرة التحرير العربي ، ورأس جسر للعبور منه إلى آسيا وافريقيا ، وقلعةً صليبية جديدة تخلف إمارة بيت المقدس التي بادت أيام صلاح الدين الأيوبي . وهنا يحضرني ماأعلنه على الملأ بن غوريون أول رئيس حكومة لكيان العدو الاسرائيلي بقوله :

« نحن هنا مثل فصائل الإنكليز والإسبان الذين قضوا بالسلاح والنار على الهنود الحمر في أمريكا » .

وكما كانت الإمارات الصليبية البائدة خليطاً غير متجانس من كافة الأمم والشعوب الأوربية وقراصنتها ، كذلك هو واقع الكيان العنصري اسرائيل في مذيج استيطاني من كافة الشعوب الأوربية ولصوص العالم الذين يجمعهم قاسم مشترك في الإستيطان القسري ونهب ثروات أمتنا العربية ، وقهرها ، وإركاعها ، ومنعها من النهوض الثوري ، وامتلاك مصيرها بيد أبنائها .

وكما كانت الزعامات الأوربية من ملوك وأباطرة أوربا وقسسها وأساقفتها ، تتسابق وتقف بكل ثقلها لنجدة وإنقاذ إمارات الصليبية وقلاعها في مشرقنا العربي .. كذلك تماماً نجد اليوم كافة الزعامات الأوربية والأمريكية بلااستثناء تضع إمكانيات دولها وشعوبها للحفاظ على هذا الكيان الإستيطاني اسرائيل ، وحمايته ، وتكريسه ، ومده بكل أسباب

البقاء .. ولاعزو في ذلك لأنه يشكل امتدادا صليبياً استعمارياً جديداً لوجودهم على أرضنا . هذا الكيان الذي التقت فيه وتحالفت به كافة قوى الشر والبغي والعدوان .

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، التي أسفرت عن بروز الولايات المتحدة كقائدة للمعسكر الإمبريالي العالمي ، أخذت المؤسسة الصهيونية في تركيز ثقلها ونقل ولائها إلى تلك الزعامة الجديدة للقوى الإستعمارية في العالم ، مع الإحتفاظ بروابطها الوثيقة بالدول الإستعمارية الأخرى في نطاق التحالف الغربي الا ستعماري والمصالح المشتركة . وبعد وضوح الأهمية الإستراتيجية البارزة للوطن العربي ، وخاصة بعد أن تكشفت الإحتياطات النفطية الهائلة التي تحتويها هذه المنطقة الأهم من العالم ، ازداد اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالمشروع الإستيطاني الصهيوني ، وزاد دعمها للمؤسسة الصهيونية ، بل أصبحت الداعمة الرئيسية لهما ، وهو ماحدا بـ حاييم وايزمن أول رئيس لدولة العدو الصهيوني أن يبعث برسالة شكر وامتنان عشية إعلان دولة اسرائيل في ٣١ أيار١٩٤٨ إلى الرئيس الأمريكي ترومان جاء فيها :

« إن دور القيادة الذي قامت به حكومتكم بوحي منكم - على صعيد الهجرة اليهودية وداخل الأمم المتحدة وعلى كافة الأصعدة - جعل قيام الدولة اليهودية أمراً ممكناً » .

(لمزيد من الإيضاح انظر كتاب القضية الفلسطينية لمؤلفه دكتور عزيز شكري جامعة دمشق ١٩٨٢م) .

لقد تجلّى الدعم الهائل الذي قدمته الولايات المتحدة للمشروع الإستيطاني اليهودي عقب الحرب العالمية الثانية في الضغوط والإبتزازات السياسية التي مارستها على بريطانيا ، وداخل إطار الأمم المتحدة من أجل إنهاء الإنتداب و إعلان قيام الكيان الصهيوني اللامشروع ، الذي كانت الولايات المتحدة أول من اعترف به .

وجاء البيان الثلاثي في ٢٥ أيار ١٩٥٠م الذي أعلنته الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا،وتعهدت بموجبه بالحفاظ على أمن وسلامة اسرائيل؛ جاء ليجسد التحالف المشترك بين كافة القوى الحاقدة ، والمعادية للأمة العربية . وقد أخذت مؤشرات الإرتباط الكلي والعضوي للمؤسسة الصهيونية واسرائيل بالولايات المتحدة في التصاعد السريع بعد عام ١٩٦٧م ،حيث أصبحت الأخيرة هي الداعم الأساسي بالمال والسلاح .

وقد أخذت أرقام المساعدات المالية وإرساليات السلاح الأمريكي إلى هذا الكيان تتضاعف عاماً بعد عام ، حتى وصل حجم المساعدات إلي مايزيد عن أربعة مليارات من الدولارات سنوياً ، إضافة إلى المساعدات الطارئة وصفقات السلاح الأعلى تطوراً في الترسانة الأمريكية ، مما جعل العديد من الزعامات الأمريكية ينظر إلى ذلك بعين القلق . وقد دخل هذا الإرتباط مرحلة السفور والإنكشاف الكامل بعد إعلان التوقيع عن معاهدة تعميق التحالف الإستراتيجي بين الولايات المتحدة واسرائيل ، والذي جاء بصدده من قبل موقعيه أن مدى هذا التحالف لايشمل المنطقة العربية فحسب ، بل يتجاوزها إلى مناطق أخرى في آسيا وافريقيا . هذا ولم يترك

القادة الأمريكيون والصهاينة مناسبةً إلاّ ويتحدوثون فيها عن الأهمية الكبيرة للكيان الإستيطاني اليهودي في إطار الإستراتيجية الكونية للإمبريالية العالمية عموماً،والأمريكية خصوصاً .

بل إن الولايات المتحدة قامت في السنوات الأخيرة بإشراك اسرائيل كشريك أساسي في برنامج حرب النجوم ، وقدَّمت لها في حزيران ١٩٨٩مبلغ ١٥٨مليون دولار لتصنيع صواريخ (السهم) المضادة للصواريخ العربية ضمن برنامج حرب النجوم.

عزيزي القارئ .. لقد أصبح واضحاً أن اسرائيل ليست أكثر من أداة في يد الإمبريالية العالمية ، ومُكَوّن أساسي من مكونات عملها ، مثلها في ذلك مثل مملكة بيت المقدس البائدة لدى أوربا صاحبة الحملات الصليبية .

.. وإن الذي صنع اسرائيل كامتدادٍ استيطاني أوربي غريب في مشرقنا العربي ، هم الإستعماريون الإمبرياليون جميعهم .. أو قُلْ الصليبيون الجدد !

الحروب الصليبية لم تنته بعد !

إن الحروب الصليبية التي أراد لها الإمبرياليون، أوقُلْ الصليبيون الجدد،أن تنته يوم أن دخلت جيوشهم مشرقنا العربي بقيادة الجنرال اللنبي القدس ، والجنرال غورو دمشق على أجساد شهدائنا الذين سقطوا في ميسلون .. والتي رددوها في وقاحة مابعدها وقاحة في أرضنا ذاتها ، كما لدى غيرهم من قادة أوربا وفي عواصم أوربا في حقدٍ دفين

بقولهم :

« الآن انتهت الحروب الصليبية .. وها نحن عدنا ياصلاح الدين ! »

.. إن كل الموشرات ، والأحداث المتلاحقة بعدها ، تُثبت يوماً بعد يوم أنها لم تنته بعد ، وإن توهم الصليبيون الجدد بذلك .

ولكن الأصح أن أوربا والغرب الإستعماري عموماً قد استأنفوا الحملات الصليبية من جديد ، وصنعوا فصلاً دامياً فيها ، يضاف إلى حملات أسلافهم من الصليبيين الذين بادوا وانقرضوا على أرضنا ، وإننا نحن الذين نخوضها اليوم حرب وجود ، لاحرب حدود مع الكيان الإستيطاني اسرائيل ومن صنعها من الصليبيين الجدد .. نحن الذين نكتب نهايتها ، أو قل الأجيال التالية - إن لم يكن ذلك في جيلنا نحن - ولو بعد حين . لقد بلغ عدد الحملات الصليبية التي بادت وتبددت على أرض مشرقنا العربي في الشام ووادي النيل ثماني حملات في زهاء قرنين من الزمن . وكان كل حملة تأتي لنجدة أختها من قبلها في أعقاب ماتحققه مسيرة أجدادنا من انتصارات رائعة على جبهة البناء العربي الداخلي ، والتحرير والإسترداد معاً .

وإن قيام اسرائيل وغرسها - كما أثبتنا ذلك في متن هذه الدراسة - شكّل حملة صليبية جديدة جاءت في إطار تحالف الصليبيين الجدد مع المؤسسة الصهيونية والجماعات اليهودية الأوربية ؛ تماماً كما تحالفت أوربا من قبل أيام بيزنطة مع أسلافهم من يهود الخزر ، ثم مع المغول والتتار لتكريس

وحماية مملكة بيت المقدس .

هذا وإن الهجرة اليهودية الكثيفة التي بدأت طلائعها في الوصول إلى فلسطين المحتلة مع مطلع عام ١٩٩٠، لتستوعب مايزيد على مليون مهاجر يهودي أوربي قبل نهاية ١٩٩١م.

بالإضافة إلى أعداد أخرى من أوربا الشرقية ويهود الفلاشا في الحبشة - كما صرح بذلك قادة العدو أنفسهم .. هذه الهجرة أو قل التهجير العدواني لجماعات اليهود الأوربيين من بقايا يهود مملكة الخزر الأوربية البائدة والتي يشارك في تنظيمها ودعمها وقيادتها كبار قادة أوربا وأمريكا معاً من الإمبرياليين أو قل من الصليبيين الجدد .. لتشكل حملة صليبية جديدة ، كتلك التي كان يقودها ملوك وأباطرة أوربا .

ولسنا هنا بصدد الإسهاب في ذلك ، ويكفي بنا الإشارة إلى خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش أمام الكونجرس في مطلع نيسان ، العام ١٩٩٠م ، والذي وصف فيه الهجرة اليهودية الواسعة بقوله :

« إنها الخروج الديمقراطي الذي يشهده العصر الحديث لليهود في العالم . إنها حدث بارزٌ كبير ، وانتصارٌ حضاري لكل من يبتهج ويناضل من أجل حرية الإنسان ـ والحديث لجورج بوش ذاته ـ إننا نشعر بالفخر والإعتزاز لأننا قدّمنا يد العون والدعم على مدى سنوات كي نجعل هجرة هؤلاء اليهود ممكنة »

وقد جاء خطاب الرئيس الأمريكي إثر موافقة الكونجرس الأمريكي

على منح إسرائيل أربعمائة مليون دولار لصالح توفير السكن لموجات المهاجرين الجدد، إضافة إلى ٧٥ مليون دولار أخرى كمعونات تُصرف للمهاجرين اليهود السوفييت مباشرة .

أما وزير خارجية الولايات المتحدة جيمس بيكر ، فقد أعلن في لقاء صحفي مشترك في برلين مع وزير خارجية الإتحاد السوفييتي إدوارد شيفار نادزة في شهر حزيران ١٩٩٠م جاء فيه :

« إن إبرام اتفاق تجاري بين واشنطن وموسكو هو رهنٌ بصدور القانون الذي يُعزز الهجرة اليهودية عن مجلس نواب الشعب السوفييتي »

كل ذلك في الوقت الذي تصر به الولايات المتحدة على ضرورة إلغاء قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥م الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية ، وتهدد بالإنسحاب من هيئة الأمم المتحدة إذا لم تسارع الدول الأعضاء إلى إعادة النظر في القرار المذكور بعد التغيرات الدولية في أوربا الشرقية ، والتي كانت الولايات المتحدة والمؤسسة الصهيونية وراءها وهي المستفيدة الأولى منها .

وفي الجانب الآخر من أوربا الشرقية حيث انطلقت أكبر حملة من المهاجرين اليهود مع مطلع عام ١٩٩٠، والتي تعيد إلى الأذهان تماماً حملات الرعاع الصليبيين ، نجد الرئيس السوفييتي ميخائيل كرباتشوف يعلن على المجتمع الدولي في أيار ١٩٩٠من أن :

« بلاده ستعيد النظر في مسألة السماح لليهود السوڤييت بالهجرة إلى إسرائيل ، إذا لم تتقدم اسرائيل بضمانات دولية لعدم السماح للمهاجرين اليهود الجدد بالإستيطان في الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧م » .. هذا في الوقت الذي يعلم فيه الرئيس السوڤيتي قبل غيره أنه لاتوجد في اسرائيل شرطةٌ دولية تقوم بضبط أو تنظيم المرور بين اسرائيل عام ١٩٤٨م وبين مااحتلته اسرائيل في عدوان حزيران ١٩٦٧م من أراضٍ عربية محتلة بلغت مساحتها ثلاث أضعاف مساحة اسرائيل ..

ومع ذلك فقد سارع قادة الكيان الإستيطاني الصهيوني وعلى رأسهم إسحق شامير رئيس حكومة العدو إلى الرد على الرئيس السوڤيتي في صفاقة مابعدها صفاقة ، وفي استخفاف بالعرب وبالمجتمع الدولي وبالإتحاد السوڤييتي ذاته حين أعلن على كافة وكالات الأنباء :

«إن المهاجرين الجدد هم الذين يختارون أمكنة إقامتهم في اسرائيل بدون تمييز ، بما في ذلك القدس بشطريها - العاصمة الأبدية لإسرائيل . إن المهاجر اليهودي يصبح اسرائيلياً منذ أن تطأ قدماه أرض اسرائيل !» .

وقد سبق إسحق شامير في تصريحه هذا ، قرار مجلس الشيوخ الأميركي كما قرار مجلس النواب الأمريكي أيضاً ، في اعتبار القدس الموحدة بشطريها عاصمة اسرائيل ، وفي «حق المهاجرين اليهود السوڤييت الإستيطان فيها دون تمييز بين شرقية وغربية ، وفي أي مكان آخر تقوم به اسرائيل » .

هذا وإذا كانت حملة تهجير اليهود المكثفة من الإتحاد السوفييتي ومن أوربا الشرقية - ، بغرض تغيير البنية السكانية في الأراضي العربية المحتلة ، وتهيئة اسرائيل لاحتلالات استيطانية جديد .. إذا كان ذلك يشكل حَمّلة صليبية جديدة توازي في همجيتها وعدوانيتها ، حملة قيام وغرس اسرائيل ذاتها عام ١٩٤٨م ، فإن التظاهرة الحربية الأضخم من نوعها في تاريخ العالم المعاصر ، والتي أخذت من الأرض العربية في الجزيرة العربية والخليج مسرحاً لها ، تشكل في إطارها كما في مضمونها حملة صليبية جديدة متأخرة جاءت لحماية وتغطية أختها ، وقد تزامنت معها ، كما بغرض تكريس التجزئة العربية وتمزيق الأمة العربية ونهب ثرواتها النفطية ، ولف الوطن العربي وتطويقه بحزامٍ من القواعد العسكرية أو قُلْ باحتلالات عسكرية سافرة .. كل ذلك تحت ذريعة حماية القانون الدولي ، وإعادة الشرعية إلى الكويت الشقيق من جرّاء الإجتياح العراقي للقطر العربي في الكويت .. هذا الإجتياح الذي تثبت الوقائع والقرائن أنه مسرحيةٌ أخرجت فصولها ، وتهيأت شروطها بدقة متناهية لدى دوائر أوربا وأمريكا ذاتها ، ليشكل غطاءً وقناعاً ، أو قُلْ أصبح ستاراً دخانياً دخلت خلفه جحافل جيوش غازية . ويحضرني هنا موقف القائد حافظ الأسد في مؤتمر القمة الطارئة في القاهرة ، وقد كشف بعبقريته المعهودة حجم المؤامرة التي تستهدف مجمل وجودنا العربي،فقال :

« إن أعداء الأمة العربية يُهيئون ، منذ وقت ليس بقريب ، لعملٍ هدفه تمزيق الأمة العربية ، وجعل قضية الصراع العربي الصهيوني هي آخر

القضايا .. ويخطئ كثيراً من يظن أو يعتقد بأنه قد يكون في منأى عن هذا الخطر » .

إذا كان الغرب الأوربي والأمريكي يدّعي الولاء لبمادئ سيدنا المسيح عليه السلام ، و قيم وأخلاقية المسيحية المنافية للحرب والعنف والعدوان .. وإذا كانوا في الغرب ينصّبون من أنفسهم حرّاساً للمسيحية والمسيحيين خارج أوربا وأمريكا ؛ عندها كيف يمكن لنا أن نفهم ويفهموا هذا الحماس المنقطع النظير لإسرائيل التوراتية العدوانية، مع أن اسرائيل ماانفكت يوماً تقتل العرب مسلمين ومسيحيين معاً دون تمييز .. وتاريخها حافل بالمذابح الهمجية بدءاً من مجزرة دير ياسين إلى كفر قاسم إلى صبرا وشاتيلا وليس آخراً مجزرة عين قارة بحق العمال العرب في ٢١/٥/١٩٩٠ ، ومذبحة المسجد الأقصى التي سقط خلالها صرعى المصلون العرب في باحة المسجد الشريف في ٨ / ١٠ / ١٩٩٠ . . واسرائيل ماانفكت تقصف العرب في مدنهم وقراهم ، وتستبيح أقداسهم وتهدم المساجد والكنائس دون تمييز وتعربد في المسجد الأقصي وكنيسة القيامة معاً دون تمييز ؛ مما هو وقائعه ثابتة ومعروفة في العالم قصيه ودنيه، .. كل ذلك والتناقض ثابتٌ ، والعداء متأصلٌ بين اليهودية العدوانية ، ومسيحية عيسى اليسوع في التسامح والمحبة الإنسانية .. كل ذلك وتعاليم المسيح والمسيحية خرجت من أرضنا ؛ من فلسطين،لتشكل ثورة إنسانية آنذاك في مواجهة طاغوت روما ، واليهود واليهودية معاً .

وإذا كان الأمر كذلك لدى الغرب الذي ماانفك يوماً منذ قياصرة روما، يقذف في بلادنا الخراب ، ويعمل القتل والدمار ، ويساند ويبارك اليوم وبالأمس همجية اسرائيل ويكرس احتلالاتها ، ويرفض حتى اتخاذ قرار إدانة في مجلس الأمن يَدين فيه عدوانيتها ، مما هو وقائعه معروفة وثابتة أيضاً .. وإذا كانوا في الغرب كذلك يذبحون معها أطفال الإنسانية في نفس المكان من العالم الذي ذاق فيه سيدنا المسيح عيسى عليه السلام ألوان العذاب والإضطهاد ، ومن قبل أسلافهم من الجلادين الرومان واليهود معاً ، مما هو وقائعه ثابتة ومعروفة أيضاً ؛ في الوقت الذي تبطش فيه أوربا وأمريكا التي تزعم المسيحية ، وتثور حميتها كذباً ورياءً لحماية المسيحيين في العالم ولبنان خصوصاً ؛ فتذبح شعب المسيح في أرض المسيح في فلسطين .. كل ذلك إرضاءً لجشعهم اللامحدود في نهبنا وقهرنا وإركاعنا. أمام كل ذلك،آن لنا أن نفهم ويفهموا أنهم صليبيون جدد مثلهم مثل أسلافهم ، وليسوا بمسيحيين إطلاقاً ، وأن المسيح منهم براء . آن لنا أن ندرك أن مسيحنا هو غير مسيحهم ؛ وأن إنجيلنا هو غير إنجيلهم ، وأن ربنا هو غير ربهم ؛ وأن ربهم هو خاصٌ بهم دون غيرهم ، وهو الجشع العدواني ، والتسلط الإستيطاني والحق العنصري ، ونهب الأمم والشعوب من غيرهم ، وأنه لامكان عندهم إطلاقاً لرب آخر في الوجود .. هكذا التقت في الكيان الإستيطاني الصليبي الجديد اسرائيل ، توراتهم في إنجيلهم ، وتلاقت فيه الممارسات الشريرة لكافة قوى البغي والعدوان .

إنها الحروب الصليبية التي عاودت فيها القوى الشريرة في العالم

سيـرتها الأولى ؛ تلك الحروب التي تَوهّم الغرب بأنها انتـهت يوم أن عـادوا إلى أرضنا بعربات الإحتلال الأوربي ، وغرسوا الكيان الصهيوني كامتدادٍ صليبي جديد لمملكة بيت المقدس البائدة .. ولكنها لم تنته بعد !

وستطوي هذه الأرض هاماتهم ، كما طوت من قبل أسلافهم .

اسـرائيـل .. أم مملكة بيت المقـدس ؟
وحتمية السقوط

إن المتتبع للأحداث التاريخية ، وللعواصف الثورية التي عـصـفت،وتعـصـف بالأوراق الخـريفـيـة الصـفـراء للإمـبـرياليين والإستعماريين من الصليبيين الجدد ، وتقتلع جيوبهم وتصفي أوكارهم يوماً بعـد يوم من أرضنا العـربيـة ، يسـتطيع أن يربط بدقـة وبكل وضـوح بين مـاجرى ويجري في مـشرقنا العـربي من انتـصـارات رائعـة وإنجازات ثورية حاسمة ، تصنعها قوافل الشهداء ومسيرة التحرير العربي المعاصرة ؛ وبين ما تتعرض له منطقتنا العربيـة من هجمات شرسة متلاحقة ، وحملات شريرة حاقدة ، إثر كل هزيمة تنزلهـا أمـتنا العـربيـة بسـاحـة التـحـالف الإمـبـريالي الصليبي الجديد وملحقاته الصهيونية .

إن نظرة سريعة إلى شريط الأحداث في الوطن العربي ، والتي تتغير بسـرعـة فائقـة ، مع مـاتحـمله من مسـتجـدات كل يوم ، قبل أن يجف مداد كتـابتـهـا أو تخرج لنشرها ؛ تبـرز لنا حقـيقـة ثابتـة قـد ترسخت في خضم الأحـداث ذاتهـا وهي تكمن في التـلازم العـضـوي والتـرابط الحـتـمي بين الإنتـصـار العـربي على جبـهـة البنـاء والتـحـرير من جـهـة ، وبين ردة الفـعل السريع ، والهجـمـة الشرسـة المعـاكسـة لقـوى الثـورة العربيـة من جـهـة أخرى .
ولنذكر في هذا السيـاق جانبـاً من ذلك ، مما هو وقـائعـه معروفة لنا ولغيرنا :

١ - الإنتصار العربي الذي تمثل بإنهاء الإحتلالات الأوربية لمعظم الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، فكان الرد على ذلك سريعاً بغرس الكيان العنصري الإستيطاني،اسرائيل ، كرأس حربة في خاصرة الوطن العربي .

٢ - الشموخ العربي في ثورة تموز عام ١٩٥٢م التي قادها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، والتي اقتلعت جيوب الرجعية المحلية المتحالفة مع القوة الإستعمارية ، فربطت بين معارك البناء الداخلي وبين معارك تحرير البلاد والأقطار العربية الأخرى من الإحتلالات الأجنبية ، فاحتضنت منذ أيامها الأولى ثورة الشعب العربي الجزائري في معركته المظفرة ضد الإحتلال الفرنسي ؛ وأينعت ثمارها في تصفية القواعد العسكرية البريطانية، ثم في تأميم قناة السويس واستردادها من ربقة الكابوس الأجنبي .. فكان الرد شرساً وواسعاً في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ م من قبل أساطيل وجيوش بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، وباءت تلك الحملة كما نعلم بالفشل الذريع .

٣ - اللهيب الثوري في سوريا في التصدي للمشاريع الإستعمارية ، ووقوفها إلى جانب الشقيقة مصر في دحر العدوان الثلاثي على بورسعيد.

فكان رد الغرب سريعاً بما عُرِف بمشروع إيزنهاور عام ١٩٥٧، وما رافقه من حشود عسكرية أمريكية أطلسية على طول الحدود مع تركيا من الشمال،كما بفرض حصار بحري على طول الساحل السوري مع تهديدات سافرة بالغزو والإحتلال العسكري .. وباءت الحملة الشرسة بالفشل الذريع

وطرحت الجماهير العربية في مصر وسوريا مشروع الوحدة في معمعان التصدي البطولي لأساطيل وجيوش حلف الأطلسي .

٤ - الإنتصار القومي العظيم بقيام الوحدة (الجمهورية العربية المتحدة) بين مصر وسوريا في ٢٢ شباط ١٩٥٨ ، ومارافق ذلك من خطر اندلاع الحريق الثوري إلى أقطار عربية أخرى ، فانتصار ثورة تموز في بغداد في العام ذاته ومارافقها من سقوط حلف بغداد الإستعماري ..

فكان الرد سريعاً ، والهجمة شرسة،وتمثل ذلك في إنزال القوات الأمريكية في لبنان ، والبريطانية في الأردن ، وإغراق المنطقة بسيل من الأحداث الدامية في لبنان والأردن والعراق ، ثم في تنفيذ جريمة الإنفصال الأسود في ٢٨ أيلول ١٩٦٢ م بين مصر وسوريا .

٥ - قيام ثورة الثامن من شباط في بغداد والثامن من آذار عام ١٩٦٣ م في دمشق ، مع ما رافق ذلك من تحولات قومية جذرية ، وتقارب وحدوي مع ثورة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر في مصر ، ودعم الأنظمة والحركات التحررية في الوطن العربي وعلى رأسها المقاومة الوطنية الفلسطينية ، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية لقيادة الكفاح المسلح للشعب العربي الفلسطيني ، هذا بالإضافة إلى الإنتصارات الرائعة التي حققتها سوريا على الشركات والإحتكارات النفطية .. فكانت الهجمة بعدها شرسة وواسعة في حملة صليبية جديدة تمثلت بعدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ م،كانت أداته المباشرة إسرائيل والترسانة العسكرية الأمريكية الفخمة في المتوسط .

٦ - لقد أفاقت الجماهير العربية على جم الكارثة التي نزلت بها أو قُلْ الأصح - أُنْزِلت بها ، ووضعت يدها على أبعاد المؤامرة الكبرى التي

استهدفت إجهاضها ، وإركاعها ، ونسف قضيتها الأولى ، القضية الفلسطينية . وكما في كل كارثة في تاريخ أمتنا ، وإثر كل اجتياح ، فقد وُلِدِ الإنسان ؛ المارد العربي من جديد وسط العاصفة والأعاصير ، وشب الفدائي العربي الفلسطيني وصَلُب عوده في وسط الأنقاض ، ومن بين مخيمات الشعب الذي اقتُلع من أرضه فلسطين .. وتلمست الجماهير في مصر وسوريا طريق الخلاص والتحرير ، وتهيأت لمعركة حاسمة تثأر بها لكرامتها الجريحة من نكسة حزيران ١٩٦٧ .. فكانت حرب العاشر من رمضان ... السادس من تشرين عام ١٩٧٣ م، التي امتزج فيها الدم العربي بعضه مع بعض ، من مشرق الوطن العربي ومغربه ؛ من شماله وجنوبه في وحدة كفاحية كانت دائماً هي الجسر الذي عبرت منه أمتنا لتحقيق أعظم انتصاراتها عبر التاريخ كله .. تماماً كما في ملحمة حطين ؛ وعين جالوت . لقد كانت حرب تشرين انتصاراً رائعاً لقوى التحرر العربي ، التي أنزلت ضربات موجعة كادت أن تكون هي القاضية على الكيان الإستيطاني الصهيوني ، لولا أن وَجَد طوق نجاته في استنفار كافة قوى الشر والعدوان في العالم وخصوصاً لدى الولايات المتحدة وأوربا من أجل الحفاظ على حياته ، حفاظاً في ذلك على مصالحهم . ويكفي أن أشير هنا بشيء من الإيجاز إلى ماحققته حرب تشرين من آثار عميقة مازالت بصماتها ظاهرة للصديق والعدو على حد سواء، لقد حطمت أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لايقهر ؛ فَقُهر ، وتجرّع مرارة الهزيمة حتى ثمالتها .. كما نسفت حرب تشرين نظرية الحدود الآمنة التي طالما تبجح بها العدو بأنها لايمكن اختراقها ، فتمزقه مزقاً ، وتبددّت نُتَفاً تحت ضربات المقاتل العربي ،

الذي لم يَنَم قط على ضيم هزيمة إلاّ وثأرَ لأمته ولنفسه منها . لقد كانت حرب تشرين بحق الزلزال الذي دمر هيبة الغرب عموماً ، ومؤسسته الإستيطانية إسرائيل خصوصاً .

إزاء هذا الإنتصار العظيم للأمة العربية في حرب تشرين .. تحركت قوة الإمبريالية أو الأصح قوى الصليبية الجديدة ، متحالفة بعضها مع بعض من أجل إعادة ترتيب الأوضاع في المنطقة ، وماحولها ، بشكل يتم فيه إنقاذ سريع للكيان الصهيوني ، كما يتم فيه الإلتفاف والتطويق على الجماهير العربية بغرض امتصاص حماسها الثوري ، وشق وحدتها الكفاحية التي صنعت أمجاد تشرين ، ومَنْعِها من قطف ثمار انتصاراتها .. تماماً كما كما كانت تفعل القوى الصليبية البائدة إثر كل انتصار حققه أجدادنا ، مما أوردنا بعضاً منه في متن هذه الدراسة ، وهكذا كان بَعد حرب تشرين ، لقد تحركت القوى المعادية للأمة العربية بسيل من الهجمات الشرسة المتلاحقة وعلى جبهات ومحاور عديدة نذكر منها :

محور تفكيك التضامن العربي الذي كان له أبلغ الأثر في حرب تشرين،وقد تجلى ذلك في إحداث شرخ عميق بين سوريا ومصر ، توأمي النضال العربي المشترك من خلال طرح ماعُرف في الدبلوماسة الغربية «بسياسة الخطوة ، خطوة » أو الحل على مراحل،بدءاً من مفاوضات الكيلو متر ١٠١ م على طريق القاهرة ، مروراً باتفاقية سيناء ١٩٧٦ م التي كانت محطة العبور إلى اتفاقيات كامب ديفيد الخيانية ، فاتفاقية الصلح بين مصر وإسرائيل التي أنهت حالة الحرب بينهما ، مع أنها لم تنه أصل النزاع

الذي بقي موجوداً متأججاً ، طالما بقي الكيان الإستيطاني الصهيوني جاثماً على أرض فلسطين .

تعريب الصراع بين الأمة العربية وأعدائها بشكل يصبح فيه الصراع بين العرب بعضهم مع بعض ، ويتم فيه جعل الصراع العربي الصهيوني هو آخر الصراعات في المنطقة ، مع مايتضمن ذلك من إغراق المنطقة بسيل من المؤامرات الدامية ، وافتعال الأزمات والخلافات وتسعيرها بين الأشقاء العرب ووضعهم في مواجهة بعضهم البعض بشكل يطلب فيه كل طرف عربي الإستنجاد بالقوى الأجنبية في مواجهة أخيه العربي الآخر .. تماماً كما كانت تفعل تلك القوى الصليبية البائدة ، عندما كانت تحقق بالمكيدة ، ماكانت تعجز عن تحقيقه في ساحات القتال .. بل إن تعويم وإغراق الوطن العربي بعد حرب تشرين في مسلسل الحروب الأهلية والإقتتالات العشائرية والطائفية البغيضة أصبح هدفاً معلناً في الدبلوماسية الغربية . هكذا أعلن على الملأ الدولي بكل صفاقة بريجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي جيمي كارتر بقوله :

« إن إثارة النعرات ، و التيارات الدينية في بلدان الشرق الأوسط من شأنها ، أن تجعل تلك الدول تصل إلى وضع تشعر فيه أن الخطر الآتي إليها من الداخل ،يفوق الخطر الآتي إليها من الخارج » .

وضمن هذا السياق تم تفجير مسلسل الرعب والأحداث الدامية في لبنان بدءاً من عام ١٩٧٥ م .. وكم من مرة أعلن قادة العدو الصهيوني أنهم يرقبون عن كثب مايجري في لبنان ؟ وأنهم كانوا يتابعون بقلق بالغ كل

بادرة أمل لخلاص لبنان من محنته .. لأن أمنهم في اسرائيل موجود في تمزيق لبنان إلى كيانات طائفية هزيلة كما في تصدير الأزمة اللبنانية إلى الأقطار العربية المجاورة لتمزيقها أيضاً . وهكذا جرى خلال خمس سنوات متتالية بدءاً من عام ١٩٧٨ في محاولات مستميتة ويائسة لتفجير الأوضاع الداخلية في سوريا عبر مسلسل الإغتيالات والإنفجارات وتفجير المؤسسات العامة ، ووسائط نقل المواطنين .

وضمن هذا الإتجاه قامت القوى المعادية للأمة العربية بخبثٍ ودهاء في جرّ العربة إلى صراعات هامشية بعيدة تماماً عن بوابة الصراع مع العدو الصهيوني . هكذا أُخرِجت الحرب العراقية - الإيرانية والتي استمرت ثماني سنوات ، وكانت على حساب العرب وأصدقاء العرب ، وليست لحسابهم .

ولم تكن المكيدة هي كل شيء . بل لم يتركوا فرصةً للقمع والعدوان إلاّ واستخدموها والمكيدة معاً في آن واحد . هكذا كان الإجتياح الأول للبنان من ٣/١٥ وحتى ١٩٧٨/٣/٢١ م والذي كان الغرض الأساسي منه اختبار مدى نجاح اتفاقيات كامب ديفيد في تجميد وإخراج مصر من جبهة القتال ضد العدوان الصهيوني .

وهكذا كان أيضاً الإجتياح الثاني للبنان عام ١٩٨٢ م الذي وصل إلى احتلال عاصمة دولة عربية،بيروت،على مرأى ومسمع من العالم المتحدث كله دون أن يحرك ساكناً ، أو تأخذهم الغيرة على حماية القانون الدولي ، كما يحلو ذلك لهم كلما ضربت أو تأثرت مصالحهم .

مع العلم أن اجتياح حزيران ١٩٨٢م كان قد تزامن مع تفجير الأوضاع الداخلية في لبنان إلى مستوى الذروة ،ولم ينته إلاّ بعد فرض نظام

.. وصاية وحماية على لبنان تمثلت باتفاقية السابع عشر من أيار عام ١٩٨٣ م والتي تعيد إلى الأذهان اتفاقية الحماية الصليبية التي فرضها عموري الأول ملك بيت المقدس صيف عام ١١٦٧م ، على مصر، والتي كان من شأنها إيداع مصر تحت حماية الحراب الصليبية من خلال نظام الوزير الخامس شاور آنذاك؛ ، والذي قضى عليه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين.

وضمن مسلسل الإحتلالات والإجتياحات وتوجيه الضربات الإنتقامية للأمة العربية أيضاً كان الغزو المسلح السافر للقطر الليبي الشقيق في نيسان عام ١٩٨٦ الذي كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا رأس الحربة فيه .

كل ذلك يُبرز لنا مدى ماأحدثته حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، من شروخ عميقة لدى العدو الصهويني ، وحماته،من الصليبيين الجدد ؟ مما جعلهم في سباق مع الأحداث في وطننا العربي ، للوقوف في وجه الرياح العربية العاتية التي هبّت في تشرين،قبل أن تجرف في وجهها حواجزوحدود التجزئة ،وتُسقط المستوطنات الصهيونية أو قُلْ قلاع الصليبية الجديدة وأوكارها .

٧ - في خريف عام ١٩٨٧ م كانت الجماهير العربية على موعد مع انتفاضة شعبنا في فلسطين .. مع إرادة الطفل العربي والإنسان العربي، الذي شمخ بإرادته فكان أقوى من كافة أسلحة العدو ، ووسائطه الهمجية في الإبادة والتذويب والإضطهاد .. وفي خريف عام ١٩٨٩ م كانت عودة مصر إلى أختها سورية ، لتأخذ دورها الطبيعي الذي كانت فيه عبر التاريخ في

مواجهة التحديات المصرية . وكان ذلك أيضاً انتصاراً عظيماً للأمة العربية تتوج في لقاءات القمة بين الرئيس حافظ الأسد وحسني مبارك في ربيع عام ١٩٩٠ في كل من دمشق والقاهرة .. وكان الرد سريعاً في هجمة معاكسة شرسة هي الأخرى أو قُلْ في حملة صليبية جديدة ذات شقين تزامن كل منهما مع الآخر ليكمل الغرض ذاته . فكانت حملة تهجير اليهود الأوسع من نوعها في تاريخ أوربا ، من الإتحاد السوفيتي خصوصاً،وأوربا الشريفة عموماً،باتجاه فلسطين المحتلة مع مطلع عام ١٩٩٠ م .. وفي نفس الوقت تقريباً تم تفجير الأوضاع العربية في الخليج من جراء اجتياح العراق للكويت في مطلع شهر آب ١٩٩٠ م .. فكان بذلك الذريعة الكبرى التي طالما عملوا من أجلها ، لزج واستجرار جحافل الجيوش الأجنبية الغازية إلى الوطن العربي بغرض إيداعه تحت مظلة الإحتلالات الأجنبية السافرة ، والحفاظ على الأوضاع المواتية لهم فيه والتي تسمح لهم بنهب ثروات الأمة العربية ، وتمزيقها ، وكسر إرادة المقاومة فيها .

عزيزي القارئ .. بعد أن قمنا معاً في متن هذه الدراسة بالتطواف والتجوال بين فصول تاريخنا العربي الزاخر بالتجارب والمحن ، المشرق بالملاحم والأمجاد ، فإننا نستطيع أن نجزم حقيقة راسخة ،وهي أن العرب سيقفون كتلة واحدة بغض النظر عن أي خلاف ..

وسيتجاوزون كل خلاف موجود بينهم في حال احتدام صراع مسلح بين أي قطر عربي وبين العدو الصهيوني إسرائيل أو أية قوة أخرى من العالم يمكن أن تعتدي على أي جزء من الأرض العربية .ولايمكن لأحد من العالم

ممن يعرف تاريخ هذه المنطقة أن يتصور غير ذلك .

إن بعض الحكام اليوم قد يساومون بالقضية ، كما ساوم أسلاف لهم من قبل .. إن الأمة العربية اليوم تدفع ثمن تخاذل البعض من حكامها ، المتاجرين بشرف قضيتها ، وبمصير أرضها ؛ من دماء شهدائها ومناضليها ؛ ومن شظف وعرق الملايين من أبنائها .

أولئك المتخاذلون ممن أصبحت السلطة لديهم غاية في حد ذاتها ، يدفعون ثمن بقاء نُظمِهم كل القيم والمبادئ ، بما في ذلك استجرار الجيوش الأجنبية ، وتدنيس الأماكن المقدسة ، وإغراق الأرض العربية في بحر من الدماء .. ولكن إرادة البقاء العربي التي تواجه تحديات الفناء ؛ الإرادة المتفجرة في ضمير الملايين الواسعة من أبناء أمتنا ومناضليها ، النابعة من ماضي الأمة وتراثها الثر وتقاليدها الكفاحية ، والثقة الأكيدة بالمستقبل لأننا نملك الحق الساطع والشعب الواسع .. كل ذلك لن يسمح للمساومة أن تستمر طويلاً في التمكين للعدو في شبر من أرضنا العربية .. والويل للغزاة من الصهاينة والصليبيين الجدد حين تهب الرياح العاتية ، وتهدر أمواج الكفاح القومي العربي من كل جانب ، وتلفحهم شمس أرضنا بنار محرقة .

إن استمرارية الصراع بين العرب وبين الصهاينة ومن يقف معهم من الصليبيين الجدد ، مع ماتشهده الساحة العربية من تمايز في القوى والمواقف كل ذلك يجب أن لايخيفنا . إنه دليل صحة وعافية ، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يكون الوطن العربي بشموليته وكليته مستسلماً متخاذلاً تحت

وطأة التآمر ، وكابوس الإحتلالات .

إن إسرائيل مثلها مثل أختها مملكة بيت المقدس من قبل ، لاتستند في وجودها إلى شيء سوى إلى قانون القوة ، والظلم ، مع أن الحق لايولد من الظلم ، كما أن الظلم لايدوم .

وليس الزمن مهماً،فقد تستمر إسرائيل ، كما استمرت أختها مملكة بيت المقدس القرن والقرنين .. وقد يتنازل بعض الخونة من العرب ممن أغوتهم شهوة السلطة ، وتحت وطأة الضغوط الأجنبية ، وبغية الحفاظ على عروشهم،ولو تغمست بدماء آلاف الضحايا ، كما فعل أسلاف لهم من قبل .. ولكن كل ذلك لن يغير شيئاً من حتمية السقوط والإنهيار لكل من الغزاة، والطغاة معاً . لقد قامت مملكة بيت المقدس ، وقلاع صليبية أخرى حولها امتدت شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ؛ وزالت وزالوا،لأنهم شكلوا ممالك غازية، استيطانية ظالمة ؛ والظلم لايدوم .

ولم تعرف أرضنا الثورات إلاّ في كل مرة نزل بها ظلم الغزاة أو ظلم الطغاة ، وليس هناك أدنى سبب يجعل من إسرائيل الصليبية اليهودية والتي قامت على نفس الأساليب والأصول والمذابح وحملات الإبادة الهمجية التي قامت أخت لها من قبل وعلى نفس الأرض .. ليس هناك من شيء يجعل من إسرائيل مثالاً لايخضع لمنطق التاريخ ومنطق الحق الأزلي الذي يدوم حكمه إلى الأبد .

وإذا كان ذلك هو حكم التاريخ الذي لايحيد أبداً ، فإن علينا أن نعلم أن هذا الحكم سوف لن يسْقط جاهزاً من السماء ، أو تأتي به الطير .. بل

يجب أن نُخرجه من أرضنا اللاهبة ، وأمتنا الغاضبة ... يجب أن نصنعه بأيدينا ، ونجبله بدماء شهدائنا وعرق وشظف جماهير أمتنا . لنصنع بذلك تاريخاً مشرقاً جديداً ونعيد بذلك بناء صرح مجتمع عربي موحد جديد . عندها يجب أن تخفق قلوب جماهير هذه الأمة العملاقة من المحيط إلى الخليج ، كما خفقت أيام حروب التحرير العربي وعلى يد قادة التحرير العربي ،وماأكثرهم ، بشعورٍ وطني متدفق يكون سدّاً منيعاً عاتي القوة بصمد لكل جارف .والذي يشعر بذلك ويدركه هو أنساننا العربي، الذي هو الأمل والرجاء ، وهوالوسيلة والهدف معاً في مسيرة الثورة العربية ، وهو درعها الفولاذي الذي لايمكن اختراقه .. وهو في نهاية المطاف الجماهير العربية صاحبة الحق ومالكة القرار العربي وجدار الوطن العربي .

ويجب أن لايغرب عن بالنا أن كفاحنا القومي المشترك ضد الغزاة قديمهم وحديثهم كان دائماً الجسر العظيم الذي عبرت منه الجماهير العربية لصنع وحدتها القومية ، وأن وحدتنا الكفاحية كانت دائماً الجدار الفولاذي المنيع الذي يبنى ويشاد في خضم معارك التحرير . لقد شكلت الحملات الغازية عبر التاريخ ، ومازالت كذلك اليوم في إسرائيل خليطاً شتى من أقوام وأمم شتى ، ولم تتفق يوماً ولم تتحالف مع بعضها البعض إلاّ من أجل غزونا وقهرنا واحتلال أرض لنا ، في فترة ضعف عارض فينا .

ونحن لم نتفق يوماً ، ولم نتوحد يوماً إلا في معمعان التحديات لدفع عدوانهم ودحر طغيانهم ؛ وأرضنا لم تشهد الثورات إلا في كل مرة نزل بها ظلم الغزاة أو ظلم الطغاة .هكذا خلقنا الله ، وهذا هو تاريخنا المديد

الحافل بالذكريات والأمجاد .

إن مسيرة التحرير والثورة العربية المعاصرة هي بالضرورة الحتمية بناء وحدوي وكفاح مشترك دائم ودؤوب في مواجهة الإحتلالات والقوى الغازية ، كما في مواجهة الظلم الإجتماعي واجتثاث كافة أشكال الهيمنة والتسلط والتبعية الأجنبية . وإن الإعتماد على الذات العربية في مواجهة الأخطار المصيرية ، وبناء وحدتنا القومية هو خيارنا الإستراتيجي الذي لاعودة عنه ، وهو الضمانة الأولى في مسيرة البناء والتحرير معاً . وهذه الحقيقة الثابتة وَعَتْها الجماهير العربية - صاحبة المصلحة الأولى في هذا الوطن - عبر كفاح أمتنا المديد في مواجهة الغزاة قديمهم وحديثهم ، وهي تشكل مركز الثقل لدى كافة الطلائع الثورية في الوطن العربي الكبير .

والخلاص نبغي في أمة عربية عظيمة واحدة ، في دولة عظيمة واحدة تُرْهِب ولاتُرْهَب،تحمل رسالتنا الحضارية الخالدة كما حملها أجدادلنا من قبل.

والحقَّ قصدتُ والله من وراء القصد .

المؤلف

عبد الوهاب زيتون

مصادر البحث

١ - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي . دكتور نبيه العاقل . جامعة دمشق .

٢ - معجم البلدان ياقوت الحموي . دار صادر بيروت .

٣ - تاريخ الرومان.دكتور محمد محفل جامعة دمشق .

٤ - بروتوكولات حكماء صهيون.عجاج نويهض دار طلاس دمشق.

٥ - القرآن الكريم .

٦ - الكتاب المقدس طبعة لندن ١٩٤٥ .

٧ - تاريخ المماليك. دكتور عادل زيتون جامعة دمشق ١٩٨٩ .

٨ - تاريخ صدر الإسلام.دكتور محمد فروخ دار الملايين بيروت .

٩ - العرب واليهود في التاريخ . دكتورأحمد سوسة.دمشق دار العربي ١٩٨٦ .

١٠ - تاريخ العصر الأيوبي.دكتورة أمينة البيطار جامعة دمشق ١٩٨٢ .

١١ - العصر العباسي.دكتور سهيل ذكار جامعة دمشق .

١٢-تاريخ عصرالخلافة العباسية.دكتوريوسف العش دارالفكر دمشق

١٣ - صحف ومنشورات مشار إليها في متن الدراسة .

المحتويات


دار المعرفة
نشر توزيع طباعة ترجمة